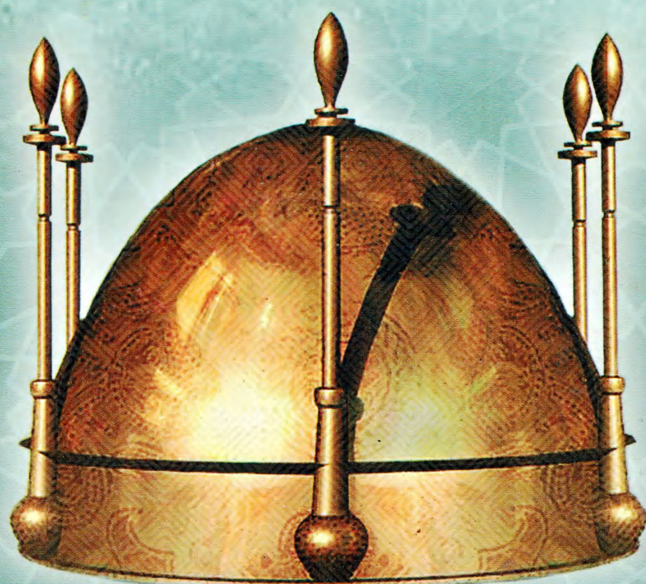
أميرُ المؤمنينَ

عَلِيٌّ

إمامُ أهلِ السُّنةِ والجَماعةِ





الدكتور: عبد المعين الشواف

عَلِيٌّ أميرُ المؤمنينَ
إمَامُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

الشواف، عبدالمعين
علي أمير المؤمنين ... إمام أهل السنة والجماعة
تأليف: عبدالمعين الشواف - القاهرة
ط1 دار الكتاب العربي 2017
352 ص ، 25 سم
تدمك: 978-977-376-975-1
1 - علي بن أبي طالب (الخليفة)
2 - أهل بيت الرسول 3 - الخلفاء الراشدون
4 - الصحابة والتابعون
5 - علي بن أبي طالب، علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن، 600 - 661
أ- العنوان

اسم الكتاب: علي أمير المؤمنين .. إمام أهل السنة والجماعة
تأليف: **د. عبد المعين الشواف**
المراجعة اللغوية والتدقيق: **طه عبدالرءوف سعد**
تصميم الغلاف: **قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي**
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 1507 / 2017
الترقيم الدولي: 978-977-376-975-1

الطبعة الأولى 2017



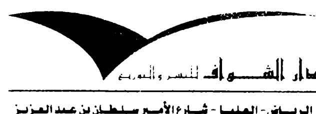
الرياض - العليا - شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز
هاتف 0114622667 فاكس 0114624790
إيميل : sales@shawafonline.com
www.alshawafintl.com

عَلِيٌّ أميرُ المؤمنينَ

إِمَامُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ

د. عبد المعين الشواف





تطلب المنشورات من دور النشر والمكتبات التالية

البلد	أسماء المكتبات
مصر	دار الكتاب العربي: 25 شارع عبدالخالق ثروت (القاهرة) - مكتبات الشروق - مكتبات ديوان شركة الشرق للمكتبات - مكتبات مؤسسة الأهرام - مكتبات أخبار اليوم - مكتبة منشأة المعارف (الإسكندرية) - مكتبات دار الفاروق (هايبر 6 أكتوبر) - مكتبات (أ) - مكتبة الكتب خان - مكتبة الخياط (الإسكندرية) - مكتبة دار الحديث (أسوان) - كتابيكو - مكتبات فكرة
ليبيا	طرابلس: المكتبة العلمية - المكتبة العربية - مكتبة السلام - دار الوليد - دار المعرفة - مكتبة 17 فبراير (بنغازي) - دار الجيل (بنغازي) - مكتبة الشعب (مصراته)
تونس	إداريات ومعارف سوسة - شركة كتبكم تونس - المركز التونسي للكتاب - دار المعرفة - مكتبة تونس - دار الجيل - مكتبة الكتاب - سو بيس - مكتبة نومام
الجزائر	مكتبة العزة والكرامة (وهران) - مكتبات العزة والكرامة بالعاصمة الجزائر وسائر فروعها
المغرب	الدار العالمية - دار الإنماء الثقافي - دار الثقافة - دار الأمان - مكتبة الألفية الثالثة - وراقة المبادرة - دار إحياء العلوم الزاهرة - الناشر الأطلسي - وراقة الجنوب - مكتبة فرنسا - مكتبة باريس
السعودية	مكتبات الشواف (الرياض/ الدمام) - مكتبات جرير - مكتبات العبيكان - مكتبات تهامة - مكتبات الرشد - دار الوراق - مكتبة المتنبي (الدمام) - كنوز المعرفة (جدة) - روائع المعرفة (جدة) - المكتبة التراثية
الإمارات	مكتبة زين المعاني (دبي) - مكتبات دبي للتوزيع - المكتبة التجارية (العين) - مكتبات جرير - البرج ميديا للنشر والتوزيع (أبو ظبي)
الكويت	مكتبات ذات السلاسل - دار الفكر الحديث - مكتبة العجيري - مكتبة الرسالة - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف - مكتبات جرير - دار آفاق
سلطنة عمان	مسقط: مكتبات جرير - أحمد ناصيف 0096892339307
البحرين	المكتبة الوطنية (المنامة) - مكتبات جرير
العراق	دار الكتب العلمية (بغداد) - دار المدى للعلوم والثقافة (أربيل) - دار التفسير (أربيل) - مكتبة هورمان (أربيل) - مكتبة برايتي (أربيل) - المكتبة القانونية - مكتبة النهضة (بغداد) - مكتبة السنجري (الموصل) - دارالزمان (أدهوك) - مؤسسة المصباح (بغداد) - مكتبة المعرفة (باب المعظم)
الأردن	مكتبة دنديس - دار أسامة - مكتبة الفرسان - دار صفحات - كشك الثقافة العربية حسن أبو علي - دار جلون
فلسطين	مكتبة دنديس (الخليل) - مكتبة القدس (القدس الشريف) - دار العماد للنشر (الخليل) - دار الجندي (القدس)
السودان	مكتبات القاضي (الخرطوم - أم درمان) - مكتبة الدار البيضاء (أم درمان) - وادي النيل للتنمية البشرية (الخرطوم)
لبنان	شركة الشرق الأوسط - النيل والفرات كوم



الموزع الحصري
دار الكتاب العربي

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: 2235401 ص.ب 34825

مصر - القاهرة - 52 شارع عبدالخالق ثروت - شقة 11 تليفون: 23916122 - فاكس: 23933671

لبنان - تليفون: 434186 / 05- 652241 / 03 - ص.ب 3043 الشويفات

darelkitab@yahoo.com daralwalid@yahoo.com info@darketab.com

www.darketab.com http://www.facebook.com/groups/darketab

http://twitter.com/darelkitab http://www.youtube.com/darelkitab

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله وحده سبحانه وتعالى خلق الخلق وقدر الأرزاق فلم ينسَ أحدًا من خلقه. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، خاتم الأنبياء والمرسلين بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيع عنها إلا هالك، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آل بيته الطيبين الأطهار وعلى أصحابه الكرام ومن اتبع هديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

لقد اختار الله سبحانه وتعالى العرب لحمل الرسالة الخاتمة، واختار من العرب قريشًا، واختار من قريش بني هاشم ومن بني هاشم عبدالمطلب ومن ذريته رسول الله ﷺ.

لقد كانت الفترة الأولى من الرسالات السماوية السابقة لبني إسرائيل، وخص الله العرب بالرسالة الخاتمة ليعلو ذكرهم على مرِّ الزمان المتبقي من الحياة على الأرض، فنزل القرآن بلغتهم؛ لغة البيان والبلاغة، لأن أوعية اللغات الأخرى لا تستطيع أن تستوعب هذا البيان ولم تكن مؤهَّلة لذلك، حتى اللغة العربية فإنها لم تنضج إلا قبل مائة عام من البعثة النبوية، فظهرت إرهاصات ممهدة لذلك من الشعر والخطابة والنثر، ثم نزل القرآن الكريم بهذه اللغة الكريمة بأجمل بلاغة وأعلى بيان مما زادها نضجًا وفصاحة بكافة أشكال البيان العربي؛ شعرًا ونثرًا وخطابة، فتألقت بهاءً وحسن بيان وسيادة وهيمنة على اللغات الأخرى.

إن مما زاد اللغة العربية جمالًا وحفظًا من التغيير وتقلبات الدهر - كما حدث في لغات أخرى - أنها لغة القرآن الذي تعهد الله جل وعلا بحفظه، وبحفظه حفظ اللغة التي نزل بها، وقد جعلها الله عالمية لأنها مادة الدين، والعرب حماته، مع احترامنا للمسلمين من غير العرب وحبنا لهم، لكن لا يمنع أن العبء في حفظ هذا الدين

يحمله العرب، ومن تكلم بلغتهم فنًّا وإتقانًا، فهم أدرى بحفظ اللغة العربية، وحفظها حفظ الدين الذي كلفوا بحمل رسالته وإيصالها إلى العالم نقية كما نزلت، وبهذا فنحن نشجع المسلمين من غير العرب في هذه الأيام بأن يتقنوا اللغة العربية ويحلونها بالمقام الأول؛ كما فعل الرعيل الأول من الأمم غير العربية الذين دخلوا في الإسلام، وذلك بناء على وصية النبي ﷺ: "أحبوا العرب لثلاث؛ لأني عربي ولأن القرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي" رواه الطبراني عن ابن عباس.

لقد جعل الإسلام من القبائل العربية أمة واحدة يجمعها فكر واحد آمنت بقيمه فجعلت منه عقيدة وأسلوبَ حياة، فانتهت وكفّت عن التناحر والحروب فيما بينها؛ لقد جمعتهم العقيدة الإسلامية وحرّمت عليهم دماء بعضهم بعضًا ووجهتهم إلى نشر الدعوة بين الشعوب الأخرى وهو واجب عليهم لأن الله تعالى حمَّلهم هذه المسئولية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: 28] فانطلقوا فاتحين ناشرين دين التوحيد ومعه العدل والمساواة بين المسلمين أسودهم وأحمرهم وأبيضهم "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى" رواه أحمد من حديث خطبة حجة الوداع.

وقد انصهرت تلك الأمم في مجتمع إسلامي واحد وقد آمنوا بهذا الدين عن قناعة وحرية دون ضغط أو إكراه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: 256] واستمر العرب في قيادة الأمة الإسلامية مدة قرن من الزمان إلى أن ظهرت الرايات الشعوبية الفارسية في زمن الخلافة العباسية غير أن أحفاد العباس من الخلفاء الأقوياء لجموا حركة الفرس من السيطرة على مقاليد البلاد، ودبر الخليفة أبو جعفر المنصور تصفية الطامعين كأبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال، كما تخلص الرشيد من البرامكة، لكن النفوذ الفارسي أطل برأسه بعد الصراع بين الأمين والمأمون وانتصار المأمون بمساعدة أخواله الفرس، وبعدها بدأ التأثير الفارسي يظهر جليًّا بالتحكم في مفاصل الدولة، ويظهر التراجع العربي وتواريه عن المشهد السياسي في جلسة كانت

لعبد الله بن المقفع حين فاجأ الحضور بقوله: "من أشرف الأمم؟ فكانت الأجوبة: الفرس لكنه لم يوافقهم على ذلك، فقالوا: الروم.. ثم ذكروا أممًا عديدة ولكنهم لم يجرؤوا أن يقولوا العرب، إلى أن قالها ابن المقفع وبرهن لهم على هذا الشرف.

إن تسلط الفرس في عهد الخلفاء الضعاف جلب الفوضى والدمار للأمة العربية، ففقدت كل ما بنته خلال عقود في مجدها الزاهر، فجاء هؤلاء وأرجعوها إلى الوراء مئات السنين، وأضعفوها ومهدوا لسقوطها على يد هولاكو قائد المغول بخيانة ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي سنة 656هـ، وقد كانت في عهد القيادة العربية قد وصلت لحدود الصين متجاوزة بلاد المغول وفارضة الجزية على الصين في عهد الأمويين بقيادة القائد قتيبة بن مسلم.

إن من دواعي حرص المسلمين على استمرار المسيرة الإيمانية بعد وفاة النبي ﷺ أن سارعوا إلى بيعة أبي بكر الصديق تحت سقيفة بني ساعدة قبل مواراة النبي ﷺ الثرى كي لا يبيت المسلمون دون إمام أو خليفة، فحفظ هؤلاء الأخيار الأمة من التفكك أو السقوط، ومنعوا المتربصين من إحداث فتنة تنهي مسيرة الدعوة إلى الله وتذر المسلمين في تشتت وانقسام ليتسلق بعدها المتسلقون وتكون فرصتهم لعودة العرب إلى الانقسام زمن الجاهلية، ولما فوت عليهم الشيخان أبو بكر وعمر ما أرادوا من الفتنة قاموا ببث سموم من نوع آخر زاعمين أن الخلافة ينبغي أن تكون لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه لم يوافق على بيعة أبي بكر، لكنه أنكر عليهم زعمهم هذا وقال صراحة: من ذا الذي يؤخرك وقد قدمك رسول الله ﷺ. فحصل الاتفاق على بيعة الصديق وخلافته لرسول الله ﷺ، وقد برهن الصديق بأنه أهل لحمل هذه المسئولية فثبت الدولة التي أراد لها الأعداء التفكك والسقوط، فقضى على المرتدين ثم سير الجيوش للفتوحات الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية في العراق والشام.

قميص عثمان وقميص علي فيما بعد:

لقد أصبح قميص عثمان رضي الله عنه مضرب المثل في مبررات الوصول إلى السلطة، وقد زال قميص عثمان بعد أن استتب الأمر للأمويين، أما قميص علي فقد طال أمد الأدعياء لنصرته وظهروا بارتدائه في كل عصر وزمان، وقد وجد الفرس في ارتدائه ضالتهم المنشودة لكي يجعلوه ستارًا لهم لتنفيذ مآربهم والوصول إلى تفتيت الأمة العربية وإعادة الكسروية الضائعة والانتقام من العرب الذين أضاعوها، فكان هذا الشعار على مدار قرون لدويلات صفوية فارسية انشقت بهذه الدعوة عن جسم الأمة العربية الإسلامية، فكانت دولة آل بويه، والسامانية والطاهرية.. إلى أن تسلم هذا القميص الخمينيون، وقد استتروا وراء الدعوة لنصرة علي أو ولده الحسين ليخفوا ما في نفوسهم من الانتقام لمجدهم الفارسي وانتزاع السلطة من العرب، وقد أضمروا للدولة الأموية الشر وحاربوها سياسيًّا وفكريًّا وعسكريًّا، وهم يقيمون كل مرة إمامًا من أحد أبناء الأسرة الهاشمية ويطالبون باسمه لإسقاط الدولة الأموية ومن بعدها الدولة العباسية؛ وقد أوقع بهم الهادي العباسي بمعركة (فخ) هزيمة منكرة عندما ثاروا عليه يوم التروية في منى؛ حتى إن الإمام زين العابدين تبرأ منهم لأنه عرف ما يريدون من وراء دعوتهم وما يدبرون من مكائد للإسلام والمسلمين.

لقد اتهم العلويون العباسيين بأنهم سرقوا منهم دولتهم، لأن الدعوة لإسقاط الأمويين كانت هاشمية، ثم جُيِّرتْ لصالح العباسيين، وانتقل عداء العلويين لأبناء عمومتهم العباسيين، ولقد قاتلهم العباسيون بضراوة وكان قادة العباسيين الذين قادوا الصراع من الوزراء الفرس وهم قتلة من يدعون نصرة آل البيت ولا يزال أحفادهم اليوم يجعلون - للتغطية على خططهم - من قميص علي ونصرة الحسين راية لتحقيق الحلم الفارسي ودولة كورش وقمبيز وأفكار عبدالله بن سبأ وإجرام أبي لؤلؤة المجوسي، وكانت غاية هؤلاء الأدعياء ومن تبعهم سحق الكيان العربي والعودة إلى إحياء الديانة الزرادشتيّة والقضاء على الإسلام وأهله، ويدل على هذا الحقد ما قاموا

به من ثورات وحركات انفصالية غايتها شرذمة الدولة الإسلامية ليسهل القضاء عليها.

إن فكرة إمامة علي جاءت بعد فكرة الخلافة؛ لأنها تُورث وهي أعلى مقامًا من الخلافة، وتكون محصورة في آل البيت، وقد أورد المتشيعون لعلي وآله الحجج والبراهين التي تؤيد دعواهم بروايات يخلو معظمها من السند الصحيح وغالوا في ذلك حى أوصلوا الأئمة إلى درجة التقديس والتعظيم والسمو بهم عن طبائع البشر بأن كلامهم منزَّل ومقدس لا ينطقون عن الهوى، فوجب على هذا طاعتهم واتباعهم بلا تردد أو مساءلة حتى أوصلوهم إلى مقام الربوبية، وكانت أول إشارة إلى هذا الهراء ما أشاعه عبدالله بن سبأ؛ اليهودي باطنًا المسلم ظاهرًا، بتأليه علي، وقد تبنى بعض الأعاجم أفكاره المتطرفة التي أحدثت شرخًا في مسيرة المسلمين ووحدة توجههم.

لقد هالهم أن يروا العرب يخرجون من صحرائهم فاتحين ومحطمين عرش كسرى، وأن يرثوا دولته وتاجه وسواريه، فعملوا على إلقاء بذور الفتنة بين المسلمين، وقد بدأت الفتن تعصف بالمسلمين ونشأت الفرق الضالة وكانت معظمها تحاك في ديار الفرس وبدعمهم؛ كالبابكية والخرّمية والقرامطة والحشاشين.

فاستغّلت تلك الفرق اسم آل البيت ومكانتهم مدعين منهجهم ونصرتهم ولكنهم كانوا في الحقيقة يكيدون للإسلام والعرب ويؤججون الخلاف على الخلافة وأحقية علي بن أبي طالب وذريته بها خصوصًا وأنهم لم يكونوا يتوقعون من العرب هذه الوثبة فقد كان العرب في نظر الفرس أقل الأمم شأنًا، فلما سادوا ودانت لهم الأمم بدأ الفرس مكائدهم، وكانوا يحملون الحقد بين جوانحهم، ويستغلون كل سقطة للعرب للانتقام منهم، فلما زالت دولة الأمويين بظهور العباسيين قامت عناصر الفرس المشاركة للعباسيين بالانتقام المريع فقتلوا الأمويين قتلا حثيثًا لم ينج منه حتى النساء والصغار، وقصة عبدالرحمن الداخل خير شاهد، فلما عبر نهر الفرات وكان معه أخ صغير لم يستطع العبور نادوه بالعودة والأمان فلما عاد ذبحوه على مرأى من أخيه عبدالرحمن وهو على الضفة المقابلة، ولولا أن تسلم زمام الأمور - بعد الثورة على

الأمويين - خلفاء أقوياء فطنوا لنوايا الفرس الخبيثة وخطرهم الكامن على العرب والإسلام فأوقفوهم عند حدهم وقضوا على رؤوس الفتنة أمثال: أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني والفضل بن سهل والبرامكة لكانت مؤامرة الفرس قد نجحت في الوصول إلى مآربهم في النيل من العرب والإسلام.

إن الخلاف الذي حدث بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وما تبعه من قتال بين علي ومعاوية رضي الله عنهما قد اتخذ ذريعة لنقل الخلافات السياسية إلى خلافات مذهبية؛ تخفي وراءها مطامع قومية من فئة الموالي في البلاد المفتوحة ولا سيما أن تلك البلاد أو بعضها تكتظ بديانات وثنية تحتضنها قوميات عرقية وطيدة الأركان قوية البنيان، ومنها دولة الأكاسرة التي ألبست مشروعها القومي لباسًا شيعيًّا يظهر محبة آل بيت علي رضي الله عنه، ولكنهم في الحقيقة يبطنون حب دولة آل ساسان ويعملون سرًّا على إعادتها، ولقد أصبح لهذا المذهب فلسفته ومفكروه الذين عملوا بإخلاص لتحقيق الآمال في عودة الزعامة الفارسية والمجد المجوسي، فصاروا يشككون في القرآن لينقصوا من هيبته وقدسيته، ويؤولون بعض آياته ليخرجوها عن مقصدها وسبب نزولها، وينكرون كثيرًا من أحكام التشريع الإسلامي، ويقولون بعلم الباطن والظاهر، وأن علم الباطن لا يعلمه إلا أئمتهم، وقد تصدى الغزالي للرد على ضلالاتهم وكشف خبثهم وقد أخفوا وراء ذلك أهدافًا شعوبية وعودة لإمبراطوريتهم التي مزقها العرب.

لقد جندت التيارات الشعوبية طاقاتها وأموالها وفكرها لتحقيق أهدافها الباطنية، ورأيت من واجبنا مخاطبة القارئ المنصف ليتعرف على الحقيقة وكي لا يقع في قبضة براثن هذه التيارات المضللة، وأن ديننا الحكيم يأمرنا أن ندعو من انحرف عن جادة الصواب من الغلاة والمضلّلين للعودة إلى منابع النور، إلى كتاب الله وسنة نبيه منطلقين من قول الرسول ﷺ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله" رواه الإمام مالك في الموطأ، وأن نعالجهم بالتسامح والوسطية

ونداوي جراحهم التي عمقتها أحقاد العمائم لنجتذب قلوبهم بإنارتها وإزالة ما علق بها من أدران الانتقام والثأر وثقافة الكراهية وفلسفة الشتائم التي أصبحت جوهر الدين وليست جزءًا منه، فقد جعلوا من تاريخنا المتسامح ماضيًا مخيفًا وجراحًا نازفة.

لم يكن هناك صدق عقائدي في الانتماء الفارسي للتشيع لكن الفرس وجدوا فيه جاذبًا للناس وتمويهًا للحقيقة، وأسلوبًا للاستيلاء على السلطة، وذلك باختراع فكرة الإمام المعصوم المنتظر، ثم ظهوره بعد مدة من الزمان ليملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلئت جورًا وظلمًا، وقد قام الصفويون باستخدام سلاح الطائفية لخدمة الوحدة الشعوبية الفارسية، وساعد هذا الغطاء الديني الفكر الصفوي على خدمة الأهداف الفارسية.

لقد تنبهت بعض القيادات العلوية إلى الغلو الفارسي في محبتهم بأنه ذريعة للنيل من العرب والإسلام ولغة القرآن، فقال علي بن الحسين: "أيها الناس أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارًا" ومن رغب بالمزيد للاطلاع على مكر الفرس فسيجد كثيرًا من المنصفين الذين تصدوا بأقلامهم من خلال الشبكة العنكبوتية لبيان الحق وإيقاظ النيام، وفضح ألاعيب الفرس، وأن هدفهم السيطرة على البلاد العربية بعد أن أصبحوا بلطجية الخليج وإثارتهم للقلاقل والفتن والحروب، وتصديرهم للثورة، ولا تخفى على الملأ أطماعهم في البلاد العربية، لقد استخدموا التشيع الزائف للنفاذ إلى قلب العالم العربي للسيطرة السياسية والاقتصادية والفكرية ومن ثم إحداث الفتن.

وإننا ندعو إلى الحذر من تجاوزات الفرس والعمل على إطفاء نار المجوسية قبل استفحالها وصعوبة إخمادها.

أرجو أن أكون قد وفقت في استقراء الأحداث وفحصها بدقة موضوعية وبحث أكاديمي يعتمد الحيادية والمنهج العلمي؛ ويستند إلى النص التاريخي الموثق من

كبار المؤرخين وجهابذة البحث العلمي الذين كانوا أكثر قربًا من الحدث التاريخي موضوع رواياتهم، وأن المنهج العلمي في البحث والدلائل الواضحة تستطيع أن تظهر الحقائق وتُجلي الظلام وتُسقط الأكاذيب.

أسأل الله أن يوفقني فيما استحضرت من التاريخ وما أرخت للمستقبل وما ورثته المنطقة من التهابات قومية وصراعات بين العروبة والعجم وبين ورثة الحضارة البيزنطية اليونانية الغربية والحضارة الفارسية الوثنية.

ورجائي أن يكون لهذا الكتاب سهم في الوصول إلى صحوة فكرية تؤذن بانفراج فجر وسطي إسلامي بعيدًا عن الغلو والتطرف.

د. عبدالمعين الشواف

1 علي أمير المؤمنين بين الميلاد والنشأة في مكة والهجرة للمدينة المنورة

- الميلاد والنشأة والنسب الشريف.
- الجد والأب والأعمام والعمات والإخوة.
- علي رضي الله عنه في بيت النبي ﷺ.
- علي رضي الله عنه ودوره في الهجرة.
- علي رضي الله عنه والمؤاخاة في المدينة المنورة.

الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين الميلاد والنشأة

النسب الشريف لعلي رضي الله عنه: هو علي بن أبي طالب (واسمه عبدمناف) بن عبد المطلب (واسمه شيبة الحمد) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة) بن قصي (واسمه زيد بن كلاب) بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

ينتسب سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لبني هاشم بطن من قريش، وهو أصغر ولد، لأبيه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم أحد سادات قريش والمسئول عن السقاية فيها. وأبو طالب أخو عبدالله والد النبي ﷺ ويرجع نسبه إلى نبي الله إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

ويلتقي نسب الإمام علي رضي الله عنه مع نسب النبي ﷺ في جده الأول عبدالمطلب بن هاشم، ووالده وأبو طالب شقيق عبدالله والد النبي ﷺ.[1]

وكان اسم الإمام علي رضي الله عنه عند مولده (أَسَدًا)، سمته بذلك أمه رضي الله عنهما باسم أبيها أسد بن هاشم، وكان أبوطالب غائبًا فلما عاد لم يعجبه هذا الاسم

1- يدعي البعض بأن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولد داخل الكعبة المشرفة جاء في المستدرك على الصحيحين (البخاري ومسلم) للحاكم النيسابوري: «تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه في جوف الكعبة».

وضعَّف السيوطي سند رواية الحاكم، وضعفها صاحب تهذيب الأسماء، والثابت عند السنة هو أن حكيم بن حزام هو الذي ولد في جوف الكعبة كما أورد ذلك الحاكم والذهبي وابن حجر وغيرهم، وممن قالوا بأن عليًّا رضي الله عنه قد ولد في جوف الكعبة، سبط ابن الجوزي الحنفي في كتابه تذكرة الخواص، والطوسي في أماليه، والمفيد في الإرشاد، وابن طاوس في الطرائف، والمسعودي في كتابيه إثبات الوصية ومروج الذهب.

انظر الطبقات الكبرى لابن سعد والمعجم الكبير للطبراني، وصِفة الصفوة لعبدالرحمن بن الجوزي.

وسماه عليًّا، ويدل على ذلك الشعر الذي ارتجزه يوم غزوة خيبر:

أنا الذي سمتني أمي حيدره   كليث غابات كريه المنظره

وحيدره اسم من أسماء الأسد.[1]

ويكنى الإمام علي رضي الله عنه بأبي الحسن نسبه إلى ابنه الأكبر الحسن رضي الله عنه وهو من ولد السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ، [2] ويكنى أيضًا بأبي تراب وهي كنية كناه بها النبي ﷺ وسبب تلك الكنية أن النبي ﷺ جاء بيت فاطمة بعد زواجها من الإمام علي رضي الله عنه فلم يجده فقال: أين ابن عمك؟

قالت كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل[3] عندي، فقال ﷺ لإنسان: «انظر أين هو؟» فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع وقد سقط رداءه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: قم أبا تراب (رواه مسلم)، ومن صحيح البخاري: «والله ما سماه إلا النبي»، وأبو السبطين (أي الحسن والحسين).

ولقب بأمير المؤمنين حين تولى خلافة المسلمين بعد استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

اختلفت الروايات وتعددت في تحديد سنة ولادته، فقد ذكر الحسن البصري أن ولادته قبل البعثة بخمس عشرة أو ست عشرة سنة[4]، وذكر ابن إسحاق أن ولادته قبل البعثة بعشر سنين[5]، ورجَّح ابن حجر قوله[6] وهو الأصح والله أعلم.

1- انظر غريب الحديث للخطابي، والرياض النضرة في مناقب العشرة.
2- انظر البداية والنهاية لابن كثير وكنيته أبو الحسن والحسين رضي الله عنهما.
3- أي يقيل، فالقيلولة: الظهيرة: بمعنى النوم في الظهيرة.
4- المعجم الكبير للطبراني، بسند مرسل.
5- السيرة النبوية (1/ 262).
6- الإصابة، لابن حجر العسقلاني.

الجد والأب والأعمام والعمات والإخوة

الجـد: هـو عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وهو جد رسول اللهﷺ، وجد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

واسمه شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيٍّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأم عبدالمطلب: سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية.

ولد عبدالمطلب بيثرب نحو عام 480م وعاش عند أخواله من بني النجار بيثرب (المدينة المنورة)، وقد مات أبوه هاشم بغزة في تجارته، فأرجعه عمه المطلب بن عبد مناف وحمله معه إلى مكة وأردفه على بعيره فلما دخل به مكة قالت قريش عن الغلام الرديف هذا عبد المطلب فقال: لا إنما هو ابن أخي شيبة.

نشأ عبد المطلب في بيئة سيادة وشرف. وعظم قدره لما احتفر بئر زمزم، وكانت من قبل مطوية، وذلك في مدة ملك قباذ ملك فارس، فاستخرج منها غزالتيْ ذهب عليهما الدُّر والجوهر، وغير ذلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعية، وسبعة أدرع سوابغ؛ فضرب من الأسياف بابًا للكعبة، وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب في الباب، وجعل الأخرى في الكعبة. وعظم قدره كثيرًا بين العرب بعد يوم الفيل. وقدم اليمن في وجوه قريش ليهنيء الملك سيف بن ذي يزن لتغلبه على الأحباش المغتصبين للجنوب العربي، فأكرمه الملك، وقرّبه، وحباه، وخصّه، وبشّره بأنّ النبوة في ولده.[1]

1- ورد في البداية والنهاية: لما ظهر سيف بن ذي يزين على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين؛ أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه، وأتاه وفد قريش فيهم عبدالمطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وعبدالله بن جدعان، وخويلد بن أسد

كفل النبي بعد موت أبيه، ونال شرف تربيته بعد موت أمه آمنة بنت وهب الزهرية. ومات عبد المطلب وعمر رسول الله ثماني سنين.

كان كاملًا عاقلًا، ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبه قومه ورفعوا من شأنه، فكان سيد قريش حتى هلك. قال الجاحظ:

عبد المطلب بن هاشم لم تقل العرب: أحلم من عبد المطلب، ولا هو أحلم من هاشم، لأنّ الحلم خصلة من خصاله كتمام حلمه، فلمّا كانت خصاله متساويةً، وخلاله مشرفة متوازية، وكلّها كان غالبًا ظاهرًا، وقاهرًا غامرًا، سمّي بأجمع الأشياء ولم يسمّ بالخصلة الواحدة، فيستدلّ بذلك على أنّها كانت أغلب خصال الخير عليه، ولقب عبد المطلب بالفيَّاض.

كان أعظم رجال مكة والجزيرة العربية كان له مجلس عند الكعبة يجلس ويلتف من حوله رجال مكة وقريش يتكلم ويسمعون منه ويحترمونه فقد كان له كلمة على مكة كلها فكان فاتح بيوت لإطعام الحجاج والزائرين وعابري السبيل وكانو يلقبونه بمطعم الإنس والوحش والطير وكان له من الإبل ما يخصصه في خدمة الكعبة بيت الله الحرام.[1]

ولما جاء أصحاب الفيل ليهدموا الكعبة، ذهب إلى أبرهة الأشرم وقابله وطلب إبله التي نهبوها، فتعجب أَبرهة وقال: أنتم تعظمون البيت، ولم تسألني عنه وتسأل عن إبلك؟ فقال له: (أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه) وفي رواية: وللبيت رب سيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، قال عبدالمطلب: أنت وذاك. ثم ذهب وتعلق بأستار الكعبة قائلًا:

لا هـــمَّ إن العبـدَ يمنع　　　رحلـــه فامنـع رحالكْ
لا يغـلبـــن صليبـهـــم　　　ومحالهم غدوًا محالك
إن كنت تاركهم وقبـــ　　　لتنـا فأمـــر مـــا بدا لك

1- السيرة النبوية لابن هشام.

فلما أصر أبرهة على هدم البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فقتل من قتل وهرب الباقون وتفرقوا في الأرض وأصيب أبرهة وتقرح جسده فنقلوه إلى صنعاء وهناك مات.

ذرية عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وزوجاته:

- صفية بنت جندب بن حجير من بني عامر بن صعصعة ولدت له: الحارث وقثم.
- نتيلة بنت جناب بن كليب من بني النَّمر بن قاسط ولدت له: ضرار والعباس.
- فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشية ولدت له: أبا طالب وعبدالله والزبير وعاتكة وبرة وأميمة وأروى وأم حكيم (واسمها البيضاء وهي توأمة عبد الله).
- هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشية ولدت له: المقوم والمغيرة وحمزة وصفية.
- لُبنى بنت هاجر بن عبد مناف الخزاعية ولدت له: أبا لهب.
- ممنّعة بنت عمرو بن مالك الخزاعية ولدت له: مصعب (ولكن غلب عليه اسم الغيداق).

والمعقبون من أبناء عبد المطلب بن هاشم هم: أبو طالب والحارث والعباس وأبولهب، وعبد الله الذي عقّب محمدًا، والذي أتى عقبه كما نصّ من ولدي ابنته الحسن والحسين.

توفي نحو عام 578م، وكان عمره 98 سنة ودفن بمكة.

أعمام الإمام علي رضي الله عنه:

- الحارث بن عبد المطلب أكبر أبنائه ومات على حياة أبيه ومن أبنائه عوف وعبد الله وأبو سفيان وأمية وربيعة ونوفل وعبد المطلب وأروى.
- عبد مناف بن عبد المطلب وهو أبو طالب سيد قريش بعد وفاة أبيه ومن أبنائه طالب وعقيل وجعفر وعلي وأم هانئ وجمانة.

- ضرار بن عبد المطلب مات قبل البعثة ولم يعقب. (أي ليس له ذرية).
- الزبير بن عبد المطلب شاعر قريش مات قبل البعثة وليس له عقب باقٍ، ولد له الطاهر وعبد الله وحجل وقرة وضباعة.
- عبد العُزَّى بن عبد المطلب وهو أبو لهب، مات كافرًا بعد بعثة الرسول، من أبنائه عتبة وعتيبة ومعتب ودرة.
- مصعب بن عبد المطلب ولقب بالغيداق وليس له عقب.
- المقوم بن عبد المطلب ولد له عبد الله وبكر وهند، وآخر من بقي من ذريته عبد الله بن بكر بن المقوم، مات ولم يعقب.
- قثم بن عبد المطلب مات صغيرًا وليس له عقب.
- المغيرة بن عبد المطلب لقب بحجل وليس له عقب.
- عبد الله بن عبد المطلب ولد له:النبي رسول الله ﷺ.
- العباس بن عبد المطلب ولد له: الفضل وعبد الله وعبيد الله وقثم ومعبد وعبدالرحمن وكثير والحارث وتمام وأم حبيب وصفية وآمنة.
- حمزة بن عبد المطلب أسد الله توفي شهيدًا يوم أحد وولد له: يعلَى وعمارة وعامر وفاطمة.

عمات الإمام علي رضي الله عنه:

- أم حكيم بنت عبد المطلب، جدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان لأمه.
- عاتكة بنت عبد المطلب، والدة عبد الله بن أبي أمية وهي صاحبة المنام قبل يوم بدر. واختلف في إسلامها.
- برة بنت عبد المطلب، والدة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي.
- أميمة بنت عبد المطلب، والدة عبد الله بن جحش وأم المؤمنين زينب بنت جحش.
- أروى بنت عبد المطلب، والدة طليب بن عمرو.
- صفية بنت عبد المطلب، والدة الزبير بن العوام أسلمت وهاجرت.[1]

1- المصدر السابق.

الأب هو: أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أم أبي طالب هي: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

كان أبو طالب الأخ الشقيق الوحيد لعبد الله والد النبي ﷺ، وقد عهد إليه والده عبد المطلب بكفالة رسول الله ﷺ.

ولما بُعث النبي ﷺ ونشر دعوته في مكة شمله عمه أبو طالب بالحماية ودافع عنه ولكنه لم يسلم وظل على دين آبائه وأجداده، فلما رأت قريش أن رسول الله يتزايد أمره ويقوى، ورأوا ما صنع أبو طالب به. مشوا إليه عارضين عليه عمارة بن الوليد وقالوا له: يا أبا طالب، هذا أنهد فتى في قريش وأجملهم. فخذه وادفع إلينا هذا الذي خالف دينك ودين آبائك فنقتله فإنما هو رجل برجل. فقال: بئس ما تسومونني، تعطونني ابنكم أربيه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ فقال المطعم بن عدي بن نوفل: يا أبا طالب قد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص منك بكل طريق. قال: والله ما أنصفتموني، ولكنك أجمعت على خذلاني. فاصنع ما بدا لك.

وقال أشراف مكة لأبي طالب: إما أن تخلي بيننا وبينه فنكفيكَه، فإنك على مثل ما نحن عليه أو أجمع لحربنا. فإنا لسنا بتاركي ابن أخيك على هذا، حتى نهلكه أو يكف عنا، فقد طلبنا التخلص من حربك بكل ما نظن أنه يخلص. فبعث أبو طالب إلى رسول الله فقال له: يا ابن أخي، إن قومك جاءوني، وقالوا كذا وكذا، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني ما لا أطيق أنا ولا أنت. فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك. فأجابه رسول الله: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه. فقال أبو طالب:

والله لـن يصلـوا إليك بجمعهـم ... حتـى أوسد في التراب دفينـا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة | وأبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني، وعرفت أنك ناصحي | ولقد صدقت، وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه | من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة | لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وأبناء أبي طالب هم: طالب وعقيل وجعفر وعلي وفاخته (أم هانئ) وجمانة.

وكان كل واحد منهم أكبر من الذي يليه بعشر سنين. فيكون طالب أسن من علي بثلاثين سنة، وبه كان يكنى أبوه، وأمهم جميعًا فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي.

وعند موته دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام ولكنه أبى عليه ذلك. وقال: أي ابن أخي، ملة الأشياخ. وكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب.[1]

أم الإمام علي رضي الله عنه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ولدت في مكة المكرمة، زوجة أبي طالب وكانت كأم لمحمد بن عبد الله ﷺ منذ صغره. أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين وكانت الحادية عشرة منهم والثانية من النساء. هاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت في السنة الرابعة للهجرة النبوية ودفنت في مقبرة البقيع.

تزوجت فاطمة بنت أسد من أبي طالب فقط وكانت أول امرأة هاشمية تتزوج رجلًا هاشميًّا، وهي بمنزلة الأمِّ لرسول اللّه وكان يحبها ويحترمها ويناديها بأمي.

كانت أوّل امرأة هاجرت إلى رسول اللّه من مكّة إلى المدينة على قدميها، وكانت من أبرّ النّاس برسول اللّه، فسمعت رسول اللّه وهو يقول: «إنّ النّاس يحشرون يوم القيامة عراة كما ولدوا»، فقالت: واسوأتاه، فقال لها رسول اللّه فإنّي أسأل اللّه أن يبعثك كاسية.[2]

1- انظر السيرة النبوية لابن هشام - تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]

2- البداية والنهاية لابن كثير، السيرة النبوية لابن هشام.

وهي أول أمرأة بايعت النبي ﷺ بعد نزول آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ... ﴾ [الممتحنة: 12].

أولادها: طالب وعقيل وجعفر الطيار وعلي بن أبي طالب.

بناتها:

- أم هانئ: زوجة هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.
- جُمانة: تزوجها أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، هاجرت إلى المدينة وتوفيت هناك.

توفيت في السنة الرابعة للهجرة وعمرها ما يقارب 60 سنة، فكفنها رسول الله ﷺ في قميصه، ودفنها في مقبرة البقيع.

عن ابن عباس، قال: أقبل علي بن أبي طالب ذات يوم إلى النبي باكيًا وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال له رسول الله: مه يا علي. فقال: ماتت أمي فاطمة، فبكى النبي ﷺ ثم قال: رحم الله أمك يا علي، أما إنها إن كانت لك أما فقد كانت لي أمًّا، خذ عمامتي هذه وخذ ثوبيَّ هذين فكفنها فيهما، ومر النساء فلتحسن غسلها، ولا تخرجها حتى أجيء فإليَّ أمرها.

قال: وأقبل النبي بعد ساعة وأخرجت فاطمة أم علي، فصلى عليها النبي صلاة لم يصلها على أحد قبلها مثل تلك الصلاة، ثم كبر عليها أربعين تكبيرة، ثم دخل القبر فتمدد فيه فلم يسمع له أنين ولا حركة، ثم قال: يا علي ادخل ! يا حسن ادخل ! فدخلا القبر، فلما فرغ مما احتاج إليه قال له: يا علي اخرج، يا حسن اخرج، فخرجا، ثم زحف النبي حتى صار عند رأسها، ثم قال: يا فاطمة أنا محمد سيد ولد آدم، فإن أتاك منكر ونكير فسألاك من ربك فقولي: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي.

ثم قال: «اللهم ثبت فاطمة بالقول الثابت، رب اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى لأنك أرحم الراحمين»، ثم ضرب بيده اليمنى على اليسرى فنفضهما، ثم قال: والذي نفس محمد بيده لقد سمعت فاطمة تصفيق يميني على شمالي.[1]

1- المصدر السابق.

فقام إليه عمار بن ياسر فقال: فداك أبي وأمي يا رسول الله! لقد صليت عليها صلاة لم تصلِّ على أحد قبلها مثل تلك الصلاة؟ فقال: يا أبا اليقظان! وأهل ذلك هي مني لقد كان لها من أبي طالب ولد كثير، ولقد كان خيرهم كثيرا وكان خيرنا قليلا، وكانت تشبعني وتجيعهم، وتكسوني وتعريهم، وتدهنني وتشعثهم. قال: فلم كبرت عليها أربعين تكبيرة يا رسول الله؟ قال: نعم يا عمار التفت إلى يمين ونظرت أربعين صفا من الملائكة فكبرت لكل صف تكبيرة.

قال: فتمددك في القبر ولم يسمع لك أنين ولا حركة؟ قال: إن الناس يحشرون يوم القيامة عراة، فلم أزل أطلب إلى ربي أن يبعثها ستيرة، والذي نفسي بيده، ما خرجت من قبرها حتى رأيت مصباحين من نور عند يديها، ومصباحين من نور عند رجليها، وملكيها الموكلين بقبرها يستغفران لها إلى يوم القيامة.

عن عطاء عن ابن عباس قال لما ماتت فاطمة أم علي ألبسها النبي قميصه واضطجع معها في قبرها فقالوا ما رأيناك يا رسول الله صنعت هذا فقال إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها إنما ألبستها قميصي لتكسي من حلل الجنة واضطجعت معها ليهوَّن عليها.

وعن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها فقال: رحمك الله يا أمي بعد أمي، وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده.

قال: ثم أمر رسول الله فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين.[1]

1- البداية والنهاية لابن كثير - سنن ابن ماجه - المستدرك على الصحيحين (البخاري ومسلم) (483/3) - الحاكم النيسابوري - مروج الذهب 2/2 ط - المسعودي.

علي رضي الله عنه في بيت النبي ﷺ

تروي لنا كتب السيرة أن عليًّا رضي الله عنه عاش فترة صباه في بيت النبي ﷺ قبل البعثة النبوية وبعدها ولهذا فهو لم يسجد لصنم قط وأسلم من فوره حين بعث ﷺ بعد السيدة خديجة رضي الله عنها، فكان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصدق بما جاءه من الله تعالى وهو يومئذ ابن عشر سنين.

ومما جاء في ضم رسول الله ﷺ لسيدنا علي رضي الله عنه، أنه قد أصابت قريشًا أزمة اقتصادية وفاقة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه: ياعباس، إن أخاك أباطالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من العيال آخذ من بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا، فنكفهما عنه، فقال العباس: نعم فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف من عيالك حتى ينكشف عن الناس من هم فيه.

فقال لهما أبوطالب إذا تركتما لي عقيلًا، فاصنعا ما شئتما.

فأخذ الرسول ﷺ عليًّا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا، فاتبعه علي - رضي الله عنه - وآمن به وصدقه، وكان الرسول ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج علي معه مستخفيًا من أبيه وسائر قومه، فيصليان الصلوات معًا فإذا أمسيا رجعا.

وهكذا عاش عليٌّ في بيت النبي ﷺ وتربى في بيت النبوة صغيرًا وشاهد النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها ولهذا فقد أسلم لله عز وجل.(1)

1- انظر البداية والنهاية لابن كثير والسيرة النبوية لابن هشام.

قصة دخوله في الإسلام

جاء في سيرة ابن إسحاق أن عليًّا رضي الله تعالى عنه رأى يومًا رسول الله ﷺ وزوجه خديجة يصليان: فقال للرسول ﷺ: يا محمد، ما هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: دين الله الَّذي اصطفى لنفسي، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وإلى عبادته، والكفر باللات والعزَّى، فقال له علي رضي الله عنه: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمرًا حتّى أحدّث أبا طالب، فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليًّا سرّه قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا عليّ إن لم تسلم فاكتم، فمكث عليّ تلك الليلة، ثمّ أوقع الله في قلب عليّ الإسلام.

هجرة علي رضي الله عنه للمدينة المنورة

عن هجرة علي رضي الله عنه من مكة إلى المدينة المنورة قال ابن إسحاق: وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها، لَحِقَ برسول ﷺ.[1]

ذكر د. راغب السرجاني في وقع قصة الإسلام على الإنترنت أن للإمام علي رضي الله عنه في الهجرة النبوية ثلاث مهام هي:

المهمة الأولى: فهي القيام بدور التمويه على قريش حتى يتم تعطيلها بضع ساعات، فلا تلاحق رسول الله ﷺ فور خروجه من مكة، وكان هذا عن طريق نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراش رسول الله ﷺ، وتغطيته ببردته؛ بحيث إذا نظر الكفار من شق الباب حسبوا أن رسول الله ﷺ ما زال نائمًا، فينتظرون خروجه في الصباح، فيمر وقت يتيح له ﷺ الوصول إلى غار ثور دون مراقبة.

وأما المهمة الثانية: فهي رد الودائع إلى أهل مكة، وهي مهمة خطيرة؛ حيث إن هذه الودائع الثمينة أمانة في حوزة رسول الله ﷺ يريد قضاءها على الوجه الأكمل.

وأما المهمة الثالثة: فهي مهمة عجيبة، وهي كسر صنم كبير من أصنام قريش لإيصال رسالة شديدة ومباشرة إلى أهل مكة!

1- انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (1/ 493)، والطبري: تاريخ الرسل والملوك (2/ 382)، وابن الجوزي: المنتظم (3/ 65)، والكلاعي: الاكتفاء (1/ 293)، وابن سيد الناس: عيون الأثر (1/ 221)، وابن كثير: البداية والنهاية (3/ 242)، والصالحي: سبل الهدي والرشاد (3/ 239)، وذكر البيهقي الرواية بسنده فقال: وعَنْ محمد بن إسحاق، قال: أخبرني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عبدالرحمن بن عويم بن ساعدة، قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ. انظر: البيهقي: السنن الكبرى (13 ، 73)، وقال ابن حجر: وأما أمره عليًّا بردها (أي الأمانات) فرواه ابن إسحاق بسند قوي. انظر: ابن حجر: التلخيص الحبير (3/ 214)، وحسنه الألباني، انظر: إرواء الغليل (5/ 384)، وقال الصوياني: سنده صحيح رواه البيهقي في سننه الكبرى. انظر: الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص141.

أما المهمة الأولى فهي تضحية كبيرة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن الكفار سيكونون في حالة عصبية ثائرة عندما يكتشفون الخدعة في الصباح، وقد يتهورون ويفعلون مع علي رضي الله عنه ما كانوا سيفعلونه مع رسول الله ﷺ؛ فيضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه بين القبائل، والتهمة الموجهة إليه بوضوح هي التستر على رسول الله ﷺ، وتضييع فرصة قتله على قيادة مكة؛ فقيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهذه المهمة يعد عملية استشهادية قد يلحق فيها بشهداء مكة سمية وياسر رضي الله عنهما، وهي دليل على شجاعة مفرِطة من البطل العظيم.

وأما المهمة الثانية: وهي مهمة رد الودائع، فقد ظهر هذا الوفاء في كل تعاملاته مع أعدائه، وما أروع وأوفى موقفه هذا مع أهل مكة يوم غادرها مهاجرًا إلى المدينة! ليعلن للجميع أن الوفاء هو منهج هذا الدين الجديد؛ لقد كان أهل مكة لا يثقون بأحد ثقتهم برسول الله ﷺ؛ ولذلك كانوا يحتفظون عنده بأموالهم وودائعهم، ولا غرو، فهو الصادق الأمين، وحتى بعد أن اشتد الإيذاء به ﷺ، وحتى بعد أن وصفوه بالساحر والكذاب والكاهن والشاعر وغير ذلك من الصفات؛ كانوا لا يزالون يحافظون على عادتهم بحفظ الأموال عنده! وكان هو ﷺ لا يمتنع من أداء هذا الدور حتى مع حربهم له.

فرسول الله ﷺ حرص على العدل إلى أقصى درجة ممكنة؛ فترك الودائع والأموال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمره أن يردَّها إلى أهلها، وأقام علي رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده.

وما أحسب أن أحدًا في الأرض أتى بمثل ما أتى به رسول الله ﷺ من كمال الوفاء والعدل، ومن خصال الخير والفضل! فأي إنسان مكانه قد يجد ألف تأويل ليبرر لنفسه أن يأخذ هذه الأموال، ولا يردَّها إلى أهلها.

وأما المهمة الثالثة: فهي مهمة تكسير صنم كبير من أصنام قريش..

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لما كان الليلة التي أمرني رسول الله ﷺ أن أبيت على فراشه، وخرج من مكة مهاجرًا، انطلق بي رسول الله ﷺ إلى الأصنام، فقال: «اجلس».

فجلست إلى جنب الكعبة، ثم صعد رسول الله ﷺ على منكبي، ثم قال: «انهض».

فنهضت به، فلما رأى ضعفي تحته، قال: «اجلس».

فجلست، فأنزلته عني، وجلس لي رسول الله ﷺ، ثم قال لي: «يا علي؛ اصعد على منكبي».

فصعدت على منكبيه، ثم نهض بي رسول الله ﷺ، وخيل إلي أني لو شئت نلت السماء، وصعدت إلى الكعبة، وتنحى رسول الله ﷺ، فألقيت صنمهم الأكبر، وكان من نحاس موتدًا بأوتاد من حديد إلى الأرض، فقال لي رسول الله ﷺ: «عالجه».

فعالجته فما زلت أعالجه، ويقول رسول الله ﷺ: «إيه إيه». فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه، فقال: «دقه». فدققته فكسرته ونزلت.(1)

لقد تجنب رسول الله ﷺ طوال فترة مكة أن يكسر أيًا من أصنام قريش؛ وذلك لتجنب صدام محقق مع أهل مكة؛ لأنه مأمور بالكف عن القتال، وبالتالي كان يتجنب بكل طاقته كل ما يقود إلى هذا القتال، ولم يفعل كما فعل جده أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مسألة تكسير الأصنام؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فردًا يحاول أن يزرع معنًى معينًا في نفوس قومه؛ بينما كان رسول الله ﷺ قائدًا لجماعة يُحاول أن يصل بها كلها إلى بر الأمان؛ أما الآن وقد هاجر المسلمون جميعًا، ولم يبق

1- الحاكم (4365)، واللفظ له، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (أي البخاري ومسلم) وفي رواية: «فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق؛ حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس». النسائي (8507)، وأحمد (644)، وأبو يعلَى (292)، والبزار: البحر الزخار (3/ 22)، قال الهيثمي: رواه أحمد وابنه وأبو يعلى والبزار.. ورجال الجميع ثقات. انظر: مجمع الزوائد (6/ 23)، وقال الصوياني: سنده جيد رواه أحمد. انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة(1/ 167).

إلا هو ﷺ وأبوبكر وعلي رضي الله عنهما، وسيكون رحيلهم بعد سويعات قليلة؛ فقد أراد أن يوصل رسالة قوية إلى أهل مكة بكسر صنمهم الأكبر الذي يعظمونه.

أحد بنود هذه الرسالة أن المرحلة السابقة -وهي مرحلة مكة المكرمة- قد انتهت، وستبدأ مرحلة جديدة في المدينة، وسيكون الصدام مع الشرك أحد أكبر معالمها، وهذه هي أولى إرهاصات الصدام!

إننا كسرنا هذا الصنم لنقول لكم: إننا لا نخاف الآن من عواقب هذا الفعل؛ بل ندعوكم للقدوم إلى المدينة والقتال إذا أردتم؛ فقد صارت لنا قوة وبأس.

وواضح أن رسول الله ﷺ كان مطمئنًا تمامًا إلى قوة الأنصار وإيمانهم، ويعلم أن تهييج قريش بهذا العمل لن يجر الويلات على المدينة؛ بل على العكس، سيفتح المجال للمسلمين لاسترداد ما سلب منهم على مدار السنين.

كما أن أحد بنود الرسالة كذلك هو لفت نظر أهل مكة إلى أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها فضلًا عن غيرها، وها هو الصنم الكبير يهان ويكسر، ولا يستطيع أن يكشف ملابسات ما حدث معه لأحد، فما أقبحها من أصنام، وما أقبح العقول التي رضيت أن تعبد مثل هذه الأحجار.

بعد أن كسر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه صنم قريش، ذهبا إلى بيت رسول الله ﷺ، وعرف الرسول ﷺ عليًّا رضي الله عنه بالودائع وأصحابها، ونام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراش الرسول ﷺ.

ونعود إلى الإمام علي رضي الله عنه حيث نام في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة، فقد ظن المتآمرون على قتل النبي ﷺ أنه هو، فلما أصبح قام علي رضي الله عنه من فراشه حينها عرف القوم أن النبي ﷺ قد خرج سالمًا من بيته وأنه نجا منهم، فقالوا لعلي رضي الله عنه:

أين صاحبك؟

قال: لا أدري أو رقيبًا كنت عليه؟! أمرتموه بالخروج فخرج ﷺ.

وضاق القوم بتلك الإجابة الجريئة وغاظهم خروج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، وقد عَموا عنه فلم يروه، فانتهروا عليًّا وضربوه، وأخذوه إلى المسجد الحرام فحبسوه هناك ساعة، ثم تركوه[1]، وتحمل على ما نزل به في سبيل الله، وكان فرحه بنجاة رسول الله أعظم عنده من كل أذى نزل به، ولم يضعف ولم يخبر عن مكان رسول الله ﷺ، وانطلق عليٌّ في مكة يجوب شوارعها باحثًا عن أصحاب الودائع التي خلفه رسول الله من أجلها، وردها إلى أصحابها، وظل يرد هذه الأمانات حتى برئت منها ذمة رسول الله ﷺ، وهناك تأهب للخروج ليلحق برسول الله ﷺ بعد ثلاث ليال قضاهن في مكة.[2]

وكان عليٌّ في أثناء هجرته يكمن بالنهار فإذا جن عليه الليل سار حتى قدم المدينة، وقد تفطرت قدماه،[3] وهكذا يكون عليٌّ رضي الله عنه، قد لاقى في هجرته من الشدة ما لاقى، فلم تكن له راحلة يمتطيها، ولم يستطع السير في النهار لشدة حرارة الشمس وفي مشي الليل ما فيه من الظلمة المفجعة والوحدة المفزعة.

وقد لاحظ سيدنا على مدة إقامته بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئًا معه، فتأخذه، قال علي رضي الله عنه: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة، لا زوج لك؟! قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا، فكان عليٌّ رضي الله يؤثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق. ونلاحظ صفة النباهة واليقظة التي لابد للمسلم أن يتحلى بها ولا يكون غافلًا عما يدور حوله.[4]

1- تاريخ الطبري.
2- البداية والنهاية - تاريخ الطبري.
3- الكامل في التاريخ لابن الأثير.
4- أسمى المطالب في سيرة الإمام علي رضي الله عنه - د. علي الصلابي.

الإمام علي رضي الله عنه في المدينة المنورة

شرع رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة في تثبيت دعائم الدولة الإسلامية، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم أقام المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود، وكان علي رضي الله عنه ملازمًا له في كل أحواله، منفذًا لأوامره، سائرًا على هديه ﷺ.

وكان من أوائل أعمال النبي ﷺ في المدينة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فقد آخى رسول الله ﷺ بين علي بن أبي طالب وسهل بن حنيف،[1] وقد تحدث بعض العلماء عن وجود مؤاخاة كانت في مكة بين المهاجرين، فقد أشار البلاذري إلى أن النبي ﷺ آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة، على الحق والمواساة، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبدالرحمن ابن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي، وبين مِصعب بن عُمَيْر وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله، وبينه وبين علي بن أبي طالب[2]، ويعتبر البلاذري (ت 276 هـ) أقدم من أشار إلي المؤاخاة المكية، وقد تابعه في ذلك ابن عبدالبر (ت 463 هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما. [3]

وقد أنكر ابن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وكذب الأحاديث التي وردت في ذلك، ومنها حديث المؤاخاة بين النبي ﷺ وعلي. [4]

وذكر ابن قيم الجوزية في زاد المعاد: إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال: وقد قيل: إنه -أي: النبي ﷺ- آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها

1- الكاشف للذهبي..
2- أنساب الأشراف.
3- السيرة النبوية الصحيحة، لابن سيد الناس..
4- منهاج السنة، لابن تيمية.

عليًّا أخا لنفسه، والثابت الأول، [1] والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار[2]، ولم تشر كتب السيرة الأولى المختصة إلى وقوع المؤاخاة بمكة، والبلاذري ساق الخبر، بلفظ: «قالوا» دون إسناد؛ مما يضعف الرواية، كما أن البلاذري نفسه ضعفه النقاد، وعلى فرض صحة هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث[3]، الذي نسخ بقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: 75]، فهذه الآية نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة[4]، وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة بين المتآخين[5].

وقد ذكر ابن كثير: أن بعض العلماء ينكر مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ويمنع صحته، وأن مستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شُرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض، ولتتآلف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر، ولكنه أشار إلا أنه قد يكون النبي ﷺأراد ألا يجعل مصلحة علي إلى غيره، وبخاصة أنه كان ينفق عليه من صغره في حياة أبيه[6]، ولكنه عاد في موضع آخر فأشار إلى معظم الأحاديث التي تحدثت عن مؤاخاة النبي ﷺ لعلي -رضي الله عنه- بأن أسانيدها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة[7]، وهناك مصادر ذكرت المؤاخاة بين النبي ﷺ وعلي بدون إسناد، منها: محمد بن حبيب[8]، وابن الجوزي[9]، وابن الأثير[10].

1- يعني: المؤاخاة في المدينة.
2- زاد المعاد.
3- السيرة النبوية الصحيحة.
4- المصدر السابق.
5- التاريخ الإسلامي، لعبد الحميد.
6- البداية والنهاية: لابن كثير.
7- البداية والنهاية (348/ 7).
8- المحبر: ص70.
9- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك.
10- أسد الغابة في معرفة الصحابة.

2 جهاد الإمام علي في عصر النبوة

الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ

- غزوة بواط.
- غزوة الأبواء.
- غزوة العشيرة.
- غزوة سفوان.
- غزوة بدر الكبرى.
- غزوة بدر الآخرة.
- غزوة أحد.
- غزوة حمراء الأسد.
- غزوة بني النضير.
- غزوة دومة الجندل.
- غزوة قريظة.
- غزوة الخندق.
- صلح الحديبية.
- غزوة خيبر.
- غزوة القضاء.
- فتح مكة.
- غزوة حنين.
- غزوة الطائف.
- غزوة تبوك وعدم مشاركة علي رضي الله عنه فيها. وحديث «أنت مني بمنزلة هارون من موسى...».
- سرية الإمام علي رضي الله عنه لهدم صنم الفلس في قبيلة طيء.

الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ

كان موقف قريش في مكة من دعوة الرسول ﷺ مناصبة العداء حتى هاجر ﷺ إلى يثرب التي عرفت بعد الهجرة النبوية بالمدينة المنورة، فقد عَلِمَ صناديد قريش أن ظهور الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فكان لابد من الوقوف في وجهه. (1)

وقد بذلت مكة وأهلها المحاولات لعدم وصول النبي ﷺ إلى المدينة، واتخذت مواقف عدائية لضرب الإسلام والقضاء على المسلمين، واستمر هذا العداء بعد هجرة النبي ﷺ، فمن أهم المواقف الدالة على مبادرة رؤساء مكة في إعلان الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: «عن عبدالرحمن بن كعب ابن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى (ابن أبي) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة، قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه ولتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ عبد الله بن أبي، ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم» فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا. (2)

وتظهر عظمة النبوة وعظمة القائد ﷺ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها، وضرب على وتر العزة القبلية، فقد كان ﷺ يدرك أغوار النفس البشرية التي يتعامل معها، ولذلك كان خطابه مؤثرًا في نفوس مشركي يثرب، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه

1- علي الصلابي: السيرة النبوية وانظر: أحمد باوزير: مرويات غزوة بدر.
2- سنن أبي داود.

العظيم في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصف الإسلامي وزعزعة بنيانه الداخلي، بعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والرد على قريش في إعلانها الحرب على المدينة، فاتجه نشاطه نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات.

ومن تلك السرايا التي سبقت معركة بدر الكبرى التي كانت في رمضان سنة 2 هجرية:

أولًا: غزوة الأبواء: (قيل: سُميت بذلك لما فيها من الوباء) سنة 2 هجرية:

وهي أولى الغزوات التي غزاها النبي ﷺ غزوة الأبواء وتعرف بغزوة ودان أيضًا (ودان: قرية جامعة قريبة من الأبواء)، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، ولم يقع قتال في هذه الغزوة بل تمت موادعة بني ضمرة (من كنانة)، وكانت هذه الغزوة في صفر سنة اثنتين من الهجرة، وكان عدد المسلمين مائتين بين راكب وراجل.

ثانيًا: سرية عبيدة بن الحارث:

وهي أول راية عقدها رسول الله ﷺ، كما ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته وكان عدد السرية ستين من المهاجرين، وكانت قوة الأعداء من قريش أكثر من مائتي راكب وراجل، وكان قائد المشركين أبو سفيان بن حرب، وحصلت مناوشات بين الطرفين على ماء بوادي رابغ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص أول سهم رُمِيَ في الإسلام وكانت بعد رجوعه من الأبواء.

ثالثًا: سرية حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق في كتابه (السير والمغازي): وبعث النبي ﷺ في مقامه ذلك- أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء- حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر

(ساحل البحر) من ناحية العيص في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعا للفريقين جميعًا، فانصرف القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال.

رابعًا: غزوة بواط سنة 2 هجرية:

وكانت غزوة رسول الله ﷺ (بواط) في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه وكان مقصده أن يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير، فلم يلق النبي ﷺ كيدًا فرجع إلى المدينة. [1]

خامسًا: غزوة العشيرة سنة 2 هجرية:

وفيها غزا ﷺ قريشًا، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العشيرة، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا، وذلك أن العير التي خرجت لها الغزوة قد مضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إلى الشام، فساحلت على البحر وبلغ قريشًا خبرها فخرجوا يمنعونها فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى. [2]

سادسًا: سرية سعد بن أبي وقاص سنة 2 هجرية:

وبعد غزوة العشيرة بعث النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في سرية قوامها ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار (عَلم لموضع بالحجاز قرب الجحفة) من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق حربًا.

1- بواط: هو جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى بقرب ينبع، انظر: طبقات ابن سعد (10/ 2).

2- العشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر، انظر: طبقات ابن سعد (2/10).

سابعًا: غزوة بدر الأولى (غزوة سفوان) سنة 2 هجرية:

ذكر ابن هشام في السيرة النبوية سببها أن كرز بن جابر الفهري، قد أغار على سرح المدينة (الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة) ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديًا يقال له (سفوان) من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

ثامنًا: سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة .. سرية نخلة سنة 2 هجرية:

وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية (هم رهط) من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يوم من رجب للاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها عمرو بن الحَضْرَمي، وأسروا اثنين من رجالها وهم: عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وعادوا بهما إلى المدينة، وقد توقف النبي ﷺ في هذه الغنائم حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

فلما نزل القرآن الكريم قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وفي سرية عبدالله هذه غنم المسلمون أول غنيمة، وعمرو بن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون.

شهد علي رضي الله عنه جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ، ما عدا غزوة تبوك؛ إذ استخلفه الرسول ﷺ على أهله. وكان يحمل اللواء في أكثرها، ويتقدم للمبارزة. وقَتل فيها عددًا من مشاهير أبطال العرب واليهود. وتجلّت شجاعته في معركة بدر والخندق وخيبر.

ونلقي الضوء على أهم تلك الغزوات التي شارك فيها الإمام علي رضي الله عنه:

غزوة بدر الكبرى في عام 2 هجرية.. (يوم الفرقان):

تُعد غزوة بدر أول معركة في الإسلام قامت بين الحق والباطل لذلك سميت يوم الفرقان وكانت البداية خروج المسلمين للقاء قافلة أبي سفيان ولم يريدوا القتال ولكنهم لم يلحقوا بتلك القافلة وعلمت قريش بالأمر فخرجت لقتال المسلمين فدارت رَحَى الحرب في السابع عشر من شهر رمضان للسنة الثانية للهجرة (624م)، وقعت معركة فاصلة في تاريخ الإسلام بين المسلمين (بقيادة الرسول ﷺ)، وبين قبيلة قريش وحلفائها (بقيادة أبي جهل عمرو بن هشام المخزوميّ القرشيّ)، قرب بئر ماء في منطقة تسمّى بدر، فسمّيت تلك المعركة باسم المنطقة التي دارت فيها (معركة بدر).

خرج مع الرسول ﷺ 314 صحابيًّا، بين مهاجر وأنصارّي، ولم يحملوا العدّة اللازمة للقتال، ولم يكن معهم إلاّ فرسان وسبعين بعيرًا كانوا يتناوبون على ركوبها، وكان الرسول ﷺ يتناوب على ركوب بعير واحد مع علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي (رضي الله عنهما)، وقام الرسول ﷺ بتسليم مصعب بن عمير لواء القيادة العامة، وقام بتقسيم المسلمين إلى كتيبة المهاجرين بقيادة علي بن أبي طالب، وكتيبة الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، وقيادة الميمنة للزبير بن العوّام، أمّا قيادة الميسرة فتركها للمقداد بن عمرو، في حين أبقى لنفسه القيادة العامة.

علم أبو سفيان بخبر خروج الرسول ﷺ وأصحابه، معترضين قافلته، فقام بتحويل مسارها إلى طريق ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى أهل قريش، فيطلب منهم أن يخرجوا لكي ينقذوا أموالهم، فاستجاب أهل قريش لهذا الخبر بأن جهزوا أنفسهم وخرجوا دفاعًا عن تجارتهم، فخرج منهم أكثر من ألف وثلاثمائة مقاتل، وكان قائدهم العام هو عمرو بن هشام (أبو جهل)،

وكان معهم مائة فرس وجمال كثيرة، وفي مسيرهم بلغهم أنّ أبا سفيان قد أنقذ القافلة، وأمرهم أن يعودوا لمكة، لكنّ أبا جهل أبى ذلك، وأمر جيشه بالذهاب إلى بدر؛ لكي يتم الاحتفاء بهذا الخروج، وأيضا لكي تهابهم العرب والقبائل المجاورة، وفي ذلك قال (والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزر، ونطعم الطعام ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا).

أشار الحُباب بن المنذر على الرسول ﷺ أن ينزلوا عند أقرب نقطة ماء لجيش قريش، وأن يقوموا ببناء الحياض ومنع الماء عنهم، ففعل الرسول ﷺ ذلك، ثم اقترح سعد بن معاذ أن يتم بناء عريش كمركز للقيادة، فبني للرسول ﷺ عريشٌ، وكان أبوبكر معه، وكان بعض من شباب الأنصار يقومون بحمايته، فأنزل الله على المسلمين النعاس والطمأنينة فناموا، وبقي رسول الله ﷺ يبكي ويدعو الله طيلة الليل، وفي الصباح قام الرسول ﷺ بصفّ المسلمين بأن جعل الشمس خلفهم، فتكون الشمس في عين الأعداء، ثم رتّب الصفوف ونظّمها، ثم قام بتحريض المسلمين على القتال، مع توجيه النصيحة لهم، فلا يسرفوا في الرمي، ولا يرموا الأعداء من بعيد، ولا تسلّ السيوف إلاّ حين تتداخل الصفوف.

خرج الأسود بن عبد الأسد من قريش إلى المسلمين، فأراد إمّا أن يشرب من حوض الماء الذي أعدّه المسلمون، أو أن يهدمه أو أن يقتل، ولمّا وصل خرج له حمزة بن عبد المطلب، فقتله، ثم خرج ثلاثة من قريش، وهم (عتبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة)، وطلبوا من المسلمين المبارزة، فأمر الرسول ﷺ حمزة ابن عبد المطلب فقاتل عتبة وقتله، وعلي بن أبي طالب فقاتل الوليد فقتله، وعبيدة بن الحارث فقاتل عتبة، فأصاب كل منهما الآخر، فانقضّ علي وحمزة على عتبة فقتلوه، ثم استُشهد عبيدة، فهجم جيش قريش على المسلمين هجومًا عامًّا، فتصدّى لهم المسلمون وهم واقفون في أماكنهم يقولون أَحَدٌ أحد، ثمّ أمر الرسول ﷺ المسلمين بالهجوم، قائلًا لهم (شدوا).

ألحق المسلمون هزيمةً كبيرةً بجيش قريش، فقتلوا منهم سبعين فيهم (أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف)، وأسروا سبعين آخرين. واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار. ومن أهم نتائج تلك المعركة أن أصبحت المدينة المنورة مركز قوة يهدّد مكة وتجارتها. ولا سيَّما بعد مقتل زعماء قريش وصناديد الشرك وعلى رأسهم أبو جهل.

غزوة أحد عام 3 هـ

وقعت في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، بعد عام واحد من غزوة بدر بعدما شعرت قريش بمرارة الهزيمة، ونال المشركون فيها ما غشيهم من هزيمة جيشهم، وقتل سادتهم، وذهاب هيبتهم، لذا قاموا بجمع حلفائهم، وأعدوا عدّتهم، وعزموا على غزو المسلمين في المدينة، والثأر لما أصابهم في غزوة بدر الكبرى.

فجرت أحداث عظام في هذه الغزوة المباركة، وظهر صدق الإيمان والتضحية والفداء، وابتلي المسلمون ابتلاءً عظيمًا؛ حتى رأوا رسول الله ﷺ قد وصل إليه المشركون، ونالوا منه، وكانت الصاعقة الكبرى ما أشيع من قتله عليه الصلاة والسلام ولكن الله تعالى حفظ نبيه ﷺ وثبت قلوب المؤمنين.

أكرم الله تعالى الطائفة المؤمنة في غزوة أحد بآيات عظيمة، وخص نبيه ﷺ بمعجزات باهرة، كانت معينًا للمؤمنين على ثباتهم رغم هزيمتهم، ومقوية لهم في محنتهم رغم قلتهم وكثرة عدوهم ولما اشتد الكرب على المؤمنين، وعظم خوف الصحابة رضي الله عنهم من نتائج هذه الغزوة، ودبت الفوضى في أوساطهم، ونالهم من التعب ما نالهم، وعلاهم من الغم ما علاهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النُّعاس وهو النوم الخفيف؛ لينسيهم غمهم، ويزيل تعبهم، ويجدد نشاطهم، فكان ذلك كرامة من الله تعالى لهم، وسكينة عليهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: 154] .

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره...».

وقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»؛ رواه البخاري.

ومن الآيات العظيمة في غزوة أحد: أن الملائكة حضروها، ودافعوا عن النبي ﷺ كما روى الشيخان (البخاري ومسلم) من حديث سعد رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبلُ ولا بعد».

ومن أعمال الملائكة في أحد: أنهم غسلوا من كان جنبًا من الصحابة رضي الله عنهم فقد قال النبي ﷺ في شأن حنظلة بن أبي عامر: «إن صاحبكم تُغسِّله الملائكة فاسألوا صاحبته»، فقالت: «إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة»؛ رواه الحاكم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أصيب حمزة بن عبدالمطلب وحنظلة بن الراهب وهما جُنب فقال رسول الله ﷺ: «رأيت الملائكة تغسلهما»؛ رواه الطبراني بإسناد حسن.

وأظلت الملائكة عبدالله بن حرام رضي الله عنه كما روى ابنه جابر رضي الله عنه قال: «لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهوني عنه وهو لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»؛ رواه الشيخان.

كانت معصية الرماة سببًا للهزيمة في أحد؛ إذ أمرهم النبي ﷺ بعدم مبارحة أماكنهم مهما كان الأمر، فتركوا مواقعهم، ورأوا أن النصر تحقق، واشتغلوا بجمع الغنائم؛ فجاءهم عدوهم من حيث لم يحتسبوا، وانقلب ميزان المعركة، وتحول النصر إلى هزيمة؛ ليعلم المسلمون خطورة المعصية، وخطورة الأثرة بالرأي والفعل.

غزوة بني النضير التي وقعت في شهر ربيع الأول:

كانت غزوة بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، يقول الله سبحانه وتعالى بعد بسم الله الرحمن

الرحيم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحشر: 1 - 6].

بعد الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة أحد تجرأ اليهود على المسلمين، وبدأوا يكاشفونهم بالغدر والعداوة، ويتصلون بالمشركين والمنافقين ويعملون لصالحهم ضد المسلمين، ورسول الله ﷺ كان صابرًا متحملًا لأذاهم وجرأتهم، وخاصة بعد وقعة الرَّجيع ومأساة بئر مَعُونة التي قتل فيها سبعون رجلًا من أفاضل الصحابة في كمين غادر للمشركين وحلفائهم اليهود، وقد تألم النبي ﷺ لهذه المأساة التي قتل فيها سبعون من أصحابه تألمًا شديدًا.[1]

وفي يوم من الأيام خلا اليهود بعضهم إلى بعض وسوّل لهم الشيطان أعمالهم، فتآمروا على قتل الرسول ﷺ، وقالوا: «أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد بها فيلقيها على رأس محمد فيشدخ بها رأسه؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه».

ولكنهم أصروا وعزموا على تنفيذ هذه الخطة الخبيثة، فلما جلس النبي ﷺ إلى جنب جدار بيت من بيوتهم وجلس معه أبوبكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه، صعد المجرم على سطح المنزل لينفذ فعلته المشئومة، ولكنّ الله -سبحانه وتعالى-

---

1- تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير.

أرسل جبريل إلى رسول الله ﷺ ليعلمه بما همّوا به، فأخبره جبريل، فنهض النبي ﷺ مسرعًا وتوجّه إلى المدينة، فلحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك. فأخبرهم بما همّ به اليهود.

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى يهود بني النضير يقول لهم: «اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وجدته بعد ذلك منكم ضربت عنقه». فلم يجد اليهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل والخروج من المدينة، غير أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول بعث إليهم أن اثبتوا وتمنّعوا ولا تخرجوا من دياركم؛ فإنّ معي ألفي رجل يدخلون معكم حصونكم، يدافعون عنكم ويموتون دونكم. فأنزل الله سبحانه وتعالى في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11].

وهناك عادت لليهود ثقتهم، وطمع رئيسهم حُيَيُّ بن أخطب فيما قاله رئيس المنافقين، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يقولون له: «إنّا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك».

ولكنّ رسول الله ﷺ حين بلغه جواب حيي بن أخطب كبّر وكبّر المسلمون معه، ثم نهض ﷺ لقتالهم ومناجزتهم، فاستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وسار إليهم يحمل اللواء علي بن أبي طالب، فلما وصل إليهم فرض ﷺ عليهم الحصار، فالتجأ اليهود إلى حصونهم، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك، فأمر ﷺ بقطعها وتحريقها، وفي ذلك أنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5].

فلما رأى المنافقون جدية الأمر، خانوا حلفاءَهم اليهود، فلم يسوقوا لهم خيرًا

ولم يدفعوا عنهم شرًا ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]، ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: 12]. ولهذا مثّلهم الله سبحانه وتعالى بالشيطان فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ [الحشر: 16 - 17].

ولم يطل الحصار طويلًا، وإنما دام ست ليال فقط، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فانهزموا وتهيأوا للاستسلام وإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ «نحن نخرج عن المدينة»، فوافق ﷺ على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم، وأنّ لهم ما حملت الإبل إلا السلاح، فوافقوا على ذلك. ولحقدهم وحسدهم قاموا بتخريب بيوتهم بأيديهم، ليحملوا معهم الأبواب والشبابيك والجذوع؛ حتى لا يأخذها المسلمون، ثم حملوا النساء والصبيان على ستمائة بعير، وأسلم منهم رجلان فقط، وذهبت طائفة منهم إلى الشام.

فقبض رسول الله ﷺ سلاحهم، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد معهم من السلاح خمسين درعًا وثلاثمائة وأربعين سيفًا، فكانت أموالهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، ولم يخمسها ﷺ (أي لم يقسّمها بالخمس كالغنائم)؛ لأنّ المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وإنما أفاءها الله عليهم وساقها لهم بدون قتال، فقسّمها ﷺ بين المهاجرين الأوّلين.

ومن الدروس والعبر في هذه الغزوة الإعلام بأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله فمن غدر ومكر ولف ودار فإن لفه ومكره سينقلب عليه في النهاية فهؤلاء اليهود أرادوا قتل الرسول ﷺ والقضاء عليه فقضوا على أنفسهم وأهلكوا أنفسهم.

غزوة دومة الجندل عام 5 هجرية

في شهر ربيع الأول 5هـ الموافق أغسطس 626م، تحرك الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ نحو قبيلة قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، في حدود قبائل الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة)، والمشرفة على سوق (دومة الجندل) الشهيرة.

تقع دومة الجندل على بعد 450 كيلومترًا شمال المدينة النبوية. وذكر الحموي في معجم البلدان أنها سُميت بذلك نسبة إلى حصن بناه دوماء بن إسماعيل.

أما الجندل: فهي الحجارة، ومفرده: جندلة. وعلى هذا يكون معنى اسم المنطقة: «الحصن الذي بناه دوماء في منطقة مليئة بالحجارة».

- وكان يضرب المثل بمناعة حصن دومة وشدته.
- سبب الغزوة: وصلت الأنباء إلى المدينة النبوية المشرفة بتجمع بعض قبائل المشركين عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، ثم الاعتداء على المدينة لاحقًا.

وكانت دومة الجندل تعد بلادًا نائية بالنسبة للمدينة النبوية؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة.

فحتى لو أن المسلمين أغفلوا أمرها وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها، ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية العسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع الإجرامي، فوجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثِّر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت

قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب، مما يضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

وكذلك فالقضاء على التجمع يؤدي إلى حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها.

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن النهار؛ حتى يخفي مسيره، ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء.

وسار حتى دنا من القوم، عندئذ تفرقوا، ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحدًا فقد ولوا مدبرين، وتركوا أنعامهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين، وأسر المسلمون رجلًا منهم، وأحضروه إلى الرسول فسأله عنهم، فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم. فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم وأقام بساحتهم أيامًا، وبعث البعوث، وبث السرايا، وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحدًا، وعاد المسلمون إلى المدينة.

وفي أثناء عودتهم وادع الرسول عيينةَ بن حصن الفزاري، واستأذن عيينة رسول الله ﷺ في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلًا منها.

وكانت غزوة دومة الجندل بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية.

وتعد تلك الغزوة حربًا استطلاعية حيث مسح الجيش الإسلامي الجزيرة العربية، وتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملًا على المسلمين.

غزوة بني قُرَيْظة

كان من سياسة النبي ﷺ أول هجرته للمدينة أن وادع اليهود فيها، وعاهدهم بميثاق بين فيه ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات، وكان من بين بنود ذلك الميثاق: أن للمسلمين دينهم، ولليهود دينهم، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

والتزم المسلمون بهذا العهد والميثاق؛ لأن من شيمتهم دائمًا الوفاء والأمانة، فدينهم يأمرهم بذلك ويحرم عليهم الغدر والخيانة ولكن اليهود نقضوا العهد قبيلة قبيلة، وأخطر ما نقضت اليهود من العهود، وأشده ضررًا على المسلمين، وأكثره خسة ودناءة وغدرا فعلة بني قريظة؛ ففي آخر شهر ذي القعدة من السنة الخامسة من الهجرة، نقضت بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ، فأمكن الله تعالى المؤمنين منهم.

إذ أنّ مقتضَى المعاهدة معهم أن يشاركوا المسلمين في دفع خطر المشركين عن المدينة وقد حاصروها بأعداد كثيفة في غزوة الأحزاب، ولم يكتف اليهود بخذلان المسلمين في هذا الوقت العصيب، والتخلي عنهم في هذا المأزق الحرج، بل دعتهم نفوسهم الخبيثة التي تنضح بالغدر، وتقطر بالخيانة، دعتهم إلى طعن المسلمين في ظهورهم، وخفرهم في نسائهم وذراريهم، وممالأة المشركين عليهم.

وشاع خبر الغدر اليهودي وخاف المسلمون من سكان الحصون من غدر اليهود، وأراد النبي ﷺ الاستيثاق من غدرهم، فأرسل الزبير والسعدين ابن معاذ وابن عبادة رضي الله عنهم، فرجعوا مؤكدين خبر نقض قريظة للعهد، وعظم بلاء المؤمنين، واشتدت محنتهم، وأصبحوا يواجهون عدوًّا شرسًا يحاصر المدينة في عدد كثيف يبلغ عشرة آلاف مقاتل، ويعالجون منافقين يخذلون ويرجفون، ويبثون الشائعات

والأكاذيب، ولا يدرون ما يصنعون باليهود وهم داخل الحصون عند النساء والأطفال وقد تنكروا للمسلمين، وانحازوا للمشركين ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11].

وكان الصحابي سعد بن معاذ رضي الله عنه في قلبه على بني قريظة بسبب خيانتهم القبيحة رغم أنهم كانوا حلفاءه وأقرب الناس إليه في الجاهلية، ولما جرح رضي الله عنه في الأحزاب ونزف وخشي أن يموت قبل أن يرى عذاب الله تعالى في بني قريظة، فدعا الله تعالى قائلًا: (اللهم لا تخرج نفسي حتى تقرَّ عيني من بني قريظة فاستمسك عرقه فما قطر قطرة).

واستجاب الله تعالى لدعوات المؤمنين وتضرعهم، وخذل الكافرين والمنافقين، فرد بقدرته وحكمته ورحمته المشركين على أعقابهم، وصدَّع تحالف اليهود معهم بشكوك ألقاها في قلوب الفريقين، وتوفيق منه سبحانه لنعيم بن مسعود رضي الله عنه في الوقيعة بينهم وقد أسلم ولم يعلموا بإسلامه، فعادت أحزاب المشركين خاسرة خائبة إلى مكة، وعاد رسول الله ﷺ (ووضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال: وضعت السلاح فوالله ما وضعته؟! فقال رسول الله ﷺ: فأين؟ قال: ها هنا، وأومأ إلى بني قريظة) فأذن عليه الصلاة والسلام في الناس:(لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة).

وهذا يدل على أن غزو بني قريظة واستئصال شأفتهم جاء الأمر به من عند الله عز وجل عن طريق جبريل عليه السلام، وليس فعلا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وأقره الله تعالى عليه، بل إن جبريل -عليه السلام- أنكر على النبي ﷺ وضع السلاح والاغتسال قبل إيقاع العقوبة بالخونة المجرمين من يهود بني قريظة، وأخبره أن الملائكة عليهم السلام لم يضعوا أسلحتهم.

خرج النبي ﷺ إليهم وقد بعث عليًّا رضي الله عنه على مقدمة الجيش ومعه اللواء

فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلةً، فلما اشتد حصرهم، واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لُبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم أنه الذبح، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ (وكان سعد رضي الله عنه حليفًا لهم فظنوا أن يحابيهم ويخفف الحكم عليهم) فقال رسول الله ﷺ: انزلوا على حكم سعد بن معاذ.

فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتي به على حمار عليه إِكاف من ليف قد حمل عليه وحف به قومه، يحاولون الشفاعة في بني قريظة، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، وهو رضي الله عنه ساكت لا يرجع إليهم شيئا، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أنى لي أن لا أبالي في الله لومة لائم، وفي رواية: قال رضي الله عنه: (قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم) فجيء بسعد رضي الله عنه وهو جريح، فقال النبي ﷺ: أنزلوه، فأنزلوه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم، قال عليه الصلاة والسلام: حكمت بحكم الله عز وجل، فقتل رجالهم وكانوا بين ست مئة وتسع مئة، إلا من أسلم منهم حقن إسلامه دمه، وسبيت نساؤهم وذرياتهم، وقسمت في المسلمين. (1)

فقال رسول الله ﷺ: «حكمت فيهم بحكم الله الذي حكم به فوق سبع سموات».

فقُتل رجالهم، وسبي نساؤهم وذراريهم، ومن لم ينبت من أولادهم، ولاقى بنو قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة.

1- انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري - والنسائي في سننه الكبرى، وابن عبدالبر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

غزوة الخندق عام 5 هـ

وتُسمى أيضًا غزوة الأحزاب وهي غزوة وقعت في شهر شوال من العام الخامس من الهجرة (627م) بين المسلمين بقيادة رسول الإسلام محمد ﷺ، والأحزاب الذين هم مجموعة من القبائل العربية المختلفة التي اجتمعت لغزو المدينة المنورة والقضاء على المسلمين والدولة الإسلامية.

سبب غزوة الخندق: هو أن يهود بني النضير نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ وحاولوا قتله، فوجّه إليهم جيشه فحاصرهم حتى استسلموا، ثم أخرجهم من ديارهم.

ونتيجةً لذلك، همّ يهود بني النضير بالانتقام من المسلمين، فبدأوا بتحريض القبائل العربية على غزو المدينة المنورة، فاستجاب لهم من العرب: قبيلة قريش وحلفاؤها: كنانة (الأحابيش)، وقبيلة غطفان (فزارة وبنو مرة وأشجع) وحلفاؤها بنو أسد وسليم وغيرها، وقد سُمُّوا بالأحزاب، ثم انضم إليهم يهود بني قريظة الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق.

تصدّى الرسول ﷺ والمسلمون للأحزاب، وذلك عن طريق حفر خندق شمال المدينة المنورة لمنع الأحزاب من دخولها، وكان صاحب فكرة حفر الخندق الصحابي سَلْمان الفارسي. ولمّا وصل الأحزاب حدود المدينة المنورة عجزوا عن دخولها، فضربوا حصارًا عليها دام ثلاثة أسابيع، وأدى هذا الحصار إلى تعرّض المسلمين للأذى والمشقة والجوع.

بدأ المسلمون في رشق المشركين بالنبال لكي يمنعوهم من عبور الخندق أو ردمه، وحاول المشركون بكل ضراوة أن يقتحموا الخندق، ونجح بعضهم فعلا في العبور من مكان ضيق في الخندق بفرقة على رأسها أحد أبطالهم اسمه عمرو بن عبد ود، ومعه عِكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، ولكن تصدى لهم المسلمون، حيث حدثت مبارزة رهيبة بين عمرو بن عبد ود وعلي بن أبي طالب.

قتل عليٍّ رضي اللّه عنه
عمرَو بن عبد ود رأس الكفار

عن ابن إسحاق في السيرة قال: كان عمرو بن عبد ود ثالث قريش، وكان قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، ولم يشهد أحدا، فلما كان يوم الخندق خرج مُعَلَّما ليُرى مشهده، فلما وقف هو وخيله قال له علي: يا عمرو قد كنت تعاهد الله لقريش أن لا يدعوك رجل إلى خلتين إلا قبلت منه أحدهما، فقال عمرو: أجل، فقال له علي رضي الله عنه: فإني أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ والإسلام، فقال: لا حاجة لي في ذلك قال: فإني أدعوك إلى البراز قال: يا ابن أخي، لم؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال علي: لكني أحب أن أقتلك، فحمي عمرو فاقتحم عن فرسه فعقره، ثم أقبل فجاء إلى علي، وقال: من يبارز؟

فقام علي وهو مقنع في الحديد، فقال: أنا له يا نبي الله، فقال: إنه عمرو بن عبد ود اجلس، فنادى عمرو: ألا رجل؟

فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه علي رضي الله عنه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك — مجيب صوتك غير عاجز
ذو نبهة وبصيرة — والصدق منجى كل فائز
إني لأرجو أن أقيم — عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى — ذكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا علي قال: ابن من؟

قال: ابن عبد مناف، أنا علي بن أبي طالب، فقال: عندك يا ابن أخي إن من أعمامك من هو أسن منك فانصرف فإني أكره أن أهريق دمك «أي أقتلك».

فقال علي: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك، فغضب، فنزل فسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضبًا واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في الدرقة فقدها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي رضي الله عنه على حبل العاتق، فسقط وثار العجاج، فسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرف أن عليًّا قتله، فثم يقول علي رضي الله تعالى عنه:

أعلي يقتحم الفوارس هكذا ... عني وعنهم أخروا أصحابي
اليوم يمنعني الفرار حفيظتي ... ومصمم في الرأس ليس بنابي
إلا ابن عبد حين شد إليه ... وحلفت فاستمعوا من الكتاب
إني لأصدق من يهلل بالتقى ... رجلان يضربان كل ضراب
فصدرت حين تركته متجدلا ... كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو انني ... كنت المقطَّر بزني أثوابي
عبد الحجارة من سفاهة عقله ... وعبدت رب محمد بصواب

ثم أقبل علي رضي الله عنه نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلا أسلبته درعه فليس للعرب درعًا خيرًا منها، فقال: ضربته فاتقاني بسوءته واستحييت ابن عمي أن أستلبه وخرجت خيله منهزمة حتى أقحمت من الخندق.

وتكررت محاولة المشركين مرة واثنتين، وعشرة، وتصدى أسيد بن حضير في كتيبة من مائتي مسلم لفرقة فرسان خالد بن الوليد واستطاع أن يردهم منهزمين.

كان الصراع يدور لفترات طويلة حتى إنه في أحد الأيام ظل المسلمون يدافعون عن الخندق من قبل صلاة العصر إلى ما بعد المغرب فضاعت عليهم صلاة العصر،

وكان هذا الحدث فريدًا في السيرة، وانزعج المسلمون بشدة لأنهم أضاعوا الصلاة، وقال ﷺ كما جاء في البخاري عن عليٍّ: «ملأ اللّه عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا كما شغلونا عن الصّلاة الوسطى حتّى غابت الشّمس».

كان المسلمون يدعون الله تعالى أيام الأحزاب يقولون: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا. وكان الرسول يقول: «اللّهمّ منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللّهمّ اهزمهم وزلزلهم».

وأرسل الله على الأحزاب الريح الباردة الشديدة، والريح جنديٌّ هائل من جنود الرحمن، وربنا بعث ريحًا شديدة وقاسية البرودة على معسكر الكافرين لم تترك لهم خيمةِ إلا واقتلعتها، ولم تترك قِدرًا إلا قلبته، ولم تترك نارًا إلا أطفأتها، ووصلت شدة الريح وخطورتها إلى الدرجة التي دفعتهم لأخذ قرار العودة دون قتال وفك الحصار.. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

وزلزل الله أبدان الأحزاب وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9] وانتهت غزوة الخندق بانسحاب الأحزاب.

غزوة حمراء الأسد عام 3 هجرية[1]

في السنة الثالثة للهجرة بعد انتهاء معركة أحد وعودة الرسول ﷺ ومن شهد معه المعركة ولما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا في المسجد وعلى بابه سعد بن عُبادة. وحباب بن المنذر، وسعد بن معاذ، وأوس بن خولي، وقتادة بن النعمان، وعبيد بن أوس في عدة منهم. فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح أمر بلالًا أن ينادي: إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس.

وساروا حتى وصلوا منطقة تسمى حمراء الأسد تبعد 20 كيلومتر جنوب المدينة المنورة كانت أحداث تلك الغزوة. وكان هدفها مطاردة قريش ومنعها من العودة للقضاء على المسلمين بالمدينة ورفع الروح المعنوية للصحابة بعد غزوة أحد.. وقد علمت قريش بخروج الرسول ﷺ وفضلت الهرب خوفًا من المسلمين الذين بقوا ثلاثة أيام في حمراء الأسد ثم رجعوا إلى المدينة.

قال الواقدي في تاريخه: وحدثني عتبة بن جُبيرة، عن رجال من قومه، قالوا: إن عبد الله بن سهل، ورافع بن سهل بن عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة، ومعهما عبدالله قد أثقلهما من الجراح، فلما أصبحوا وجاءهم سعد بن معاذ يخبرهم أن رسول الله ﷺ يأمرهم بطلب عدوهم قال أحدهما لصاحبه: والله إن تركنا غزوةً مع رسول الله لغبن! والله ما عندنا دابة نركبها وما ندري كيف نصنع! قال عبد الله: انطلق بنا! قال رافع: لا والله، ما بي مشى. قال أخوه، انطلق بنا، نتجار ونقصد! فخرجا يزحفان، فضعف رافع فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبةً، ويمشي الآخر عقبة، حتى أتيا رسول الله ﷺ عند العشاء وهم يوقدون النيران، فأتى بهما إلى رسول الله ﷺ وعلى

1- كان من المفروض أن تكون في الترتيب بعد غزوة أحد.

حرسه تلك الليلة عَبَّاد بن بشر فقال: ما حبسكما؟ فأخبراه بعلتهما، فدعا لهما بخير وقال: إن طالت لكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل، وليس ذلك بخير لكم! حدثني عبد العزيز بن محمد، عن يعقوب بن عمر بن قتادة، قال: هذان أنس ومؤنس وهذه قصتهما.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: يا رسول الله، إن مناديًا نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس. وقد كنت حريصًا على الحضور، ولكن أبي خلفني على أخوات لي وقال: يا بني، لا ينبغي لي ولك أن ندعهن ولا رجل عندهن، وأخاف عليهن وهن نسيات ضعاف، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ، لعل الله يرزقني الشهادة. فتخلفتُ عليهن فاستأثره الله على الشهادة وكنت رجوتها، فأذن لي يا رسول الله أن أسير معك. فأذن له رسول الله ﷺ.

قال جابر رضي الله عنه: فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال فأبى ذلك عليهم، ودعا رسول الله ﷺ بلوائه، وهو معقود لم يحل من الأمس، فدفعه إلى علي رضي الله عنه، ويقال دفعه إلى أبي بكر رضي الله عنه.

وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح، في وجهه أثر الحلقتين، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر، ورباعيته قد شظيت، وشفته قد كلمت من باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن بضربة ابن قميئة، وركبتاه مجحوشتان. فدخل رسول الله ﷺ المسجد فركع ركعتين، والناس قد حشدوا، ونزل أهل العوالي حيث جاءهم الصريخ، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعتين فدعا بفرسه على باب المسجد، وتلقاه طلحة رضي الله عنه وقد سمع المنادي فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ، فإذا رسول الله ﷺ يلبس الدرع والمغفر وما يُرى منه إلا عيناه، فقال: يا طلحة، سلاحك! فقلت: قريبًا. قال طلحة: فأخرج أعدو فألبس درعي، وآخذ سيفي، وأطرح درقتي في صدري، وإني بي لتسع جراحات ولأنا أهم بجراح رسول الله ﷺ مني بجراحي. ثم أقبل رسول الله ﷺ على طلحة فقال: ترى القوم الآن؟ قال: هم بالسيَّالة.

قال رسول الله ﷺ: ذلك الذي ظننت، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا. وبعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم طليعةً في آثار القوم: سليطًا ونعمان ابني سفيان بن خالد بن عوف بن دارم من بني سهم، ومعهما ثالث من أسلم من بني عوير لم يسم لنا.

ولحق القوم بحمراء الأسد، وهم يأتمرون بالرجوع، وصفوان ينهاهم عن الرجوع، فبصروا بالرجلين فعطفوا عليهما فأصابوهما «أي قتلوهما». فانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد فعسكروا، وقبروهما في قبر واحد.

فقال ابن عباس: هذا قبرهما وهما القرينان. ومضى رسول الله ﷺ في أصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد. قال جابر: وكانت عامة زادنا التمر، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين جملًا حتى وافت الحمراء. وساق جزرًا فنحروا في يوم اثنين وفي يوم ثلاثًا. وكان رسول الله ﷺ يأمرهم في النهار بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمرنا أن نوقد النيران. فيوقد كل رجل نارًا، فلقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه حتى كان مما كبت الله تعالى عدونا.

وانتهى معبد بن أبي معبد الخزاعي، وهو يومئذ مشركٌ، وكان خُزاعة سلمًا للنبي ﷺ، فقال: يا محمد، لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت بغيرك. ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشًا بالروحاء، وهم يقولون: لا محمدًا أصبتم، ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم! فهم مجمعون على الرجوع، ويقول قائلهم فيما بينهم: ما صنعنا شيئًا، أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، قبل أن يكون لهم وفر والمتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل. فلما جاء معبد إلى أبي سفيان قال: هذا معبد وعنده الخبر، ما وراءكَ يا معبد؟

قال: تركت محمدًا وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضبًا شديدًا ولمن أصبتم من أشرافهم، قالوا: ويلك! ما تقول؟ قال: والله ما نرى أن نرتحل حتى نرى نواصي الخيل! ثم قال معبد: لقد

حملني ما رأيت منهم أن قلت أبياتًا:

كادت تهد من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تعـــدو بأُســـد كــرام لا تنابلــة عند اللقــاء ولا مِيــل معــازيــل
فقلت ويل ابن حرب من لقائهـم إذا تغطمطت البطـحــاء بالجيــل

وكان مما رد الله تعالى أبا سفيان وأصحابه كلام صفوان بن أمية قبل أن يطلع معبد وهو يقول: يا قوم، لا تفعلوا! فإن القوم قد حزنوا وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. قال رسول الله ﷺ: أرشدهم صفوان وما كان برشيد، والذي نفسي بيده، لقد سومت لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب! فانصرف القوم سراعًا خائفين من الطلب لهم، ومر بأبي سفيان نفر من عبد القيس يريدون المدينة. فقال: هل مبلغو محمدًا وأصحابه ما أرسلكم به، على أن أوقر لكم أباعركم زبيبًا غدًا بعكاظ إن أنتم جئتموني؟

قالوا: نعم. قال: حيثما لقيتم محمدًا وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم، وأنا على آثاركم. فانطلق أبو سفيان، وقدم الركب على النبي ﷺ وأصحابه بالحمراء، فأخبروهم الذي أمرهم أبو سفيان، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل! وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172]. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. وكان معبد قد أرسل رجلًا من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة. (1)

1- انظر: تاريخ الواقدي والسيرة النبوية لابن هشام.

غزوة ذات الرقاع في السنة الرابعة للهجرة

كانت تلك الغزوة في السنة الرابعة للهجرة ضد بني ثعلبة وبني محارب من غطفان بعد أن بلغه انهم يعدون العدة لغزو المدينة فخرج إليهم في أربعمائة من المسلمين، وقيل في سبعمائة، واستخلف على المدينة أبا ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

وكان الستّة والسبعة من الرجال كانوا يتوالون على ركوب البعير.

ومما زاد الأمر سوءًا وعورة الأرض وكثرة أحجارها الحادّة، التي أثّرت على أقدامهم حتى تمزّقت خفافهم، وسقطت أظفارهم، فقاموا بلفّ الخرق والجلود على الأرجل؛ ومن هنا جاءت تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «وكنا نلفّ على أرجلنا الخرق، فسمّيت غزوة ذات الرقاع».

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «وإنما قيل لها: غزوة ذات الرقاع، لأنهم رقعوا فيها راياتهم ويقال ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع».

سار النبي ﷺ ومن معه في بلاد العدو حتى وصل إلى موضع يقال له نخل، ولقي جمعًا من غطفان، إلا أنه صلّى بالصحابة صلاة الخوف لأول مرة في الإسلام، فعن جابر قال: «خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعًا من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضًا، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف» رواه البخاري في صحيحه.

فلما علمت قبائل غطفان بقدوم المسلمين هربت، فلم يقع قتال، وعاد المسلمون منتصرين. وفي طريق العودة اشتد الحر عليهم، وجاء وقت القيلولة فنزلوا في واد كثير الأشجار، وتفرق المسلمون يستظلون فيه. وقد نام الرسول تحت شجرة وعلق سيفه بها، فإذا بأعرابي كافر يأتي فيأخذ السيف، فشعر به الرسول، واستيقظ من نومه، فقال

الأعرابي: «من يمنعك مني؟ فقال رسول الله: «الله». وإذا بالأعرابي يرتعد ويسقط السيف من يده، فأخذه النبي ثم عفا عن الأعرابي وتركه» [متفق عليه].

وكان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب، فلم تجترئ القبائل من غطفان أن ترفع رأسها بعدها، بل استكانت حتى استسلمت، وأسلمت، حتى شارك بعضها في فتح مكة وغزوة حُنين، وساد الأمن والسلام ربوع المنطقة، وبدأ التمهيد لفتوح البلدان والممالك الكبيرة، لتبليغ الإسلام.

ويقال ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع.[1]

1- السيرة النبوية لابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير.

غزوة بدر الآخرة

كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان سنة 4 هـ - يناير 626 م،تسمى هذه الغزوة ببدر الآخرة، وبدر الصغرى، وبدر الثانية، وبدر الموعد.

لما انصرف أبو سفيان ومن معه يوم أُحد نادى: «إن موعدكم بدرًا». فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: «نعم هو بيننا وبينك موعدٌ».

لما جاء الموعد استعمل رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول الأنصاري وخرج ومعه ألف وخمسمائة مقاتل، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل اللواء علي بن أبي طالب ونزل النبي بدرًا وأقام فيها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان من مكة على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل ألفان وخمسمائة، وقيل ألفا مقاتل، وفي نفسه رغبة ألا يحدث هذا اللقاء الذي ينتظر نتيجته كثير من رجال القبائل والأعراب وأهل المدن؛ إذ قضت المدينة ومكة عامًا في الاستعداد له، وكان في خروج أبي سفيان محاولة لإخافة المسلمين وإرهابهم كي لا يخرجوا فيكونوا هم الذين نكلوا عن الخروج.

بعث أبو سفيان نعيم بن مسعود؛ ليخيف المسلمين في المدينة من كثرة أعداد قريش وقوتها وجعل له عشرين بعيرًا إن أدى هذه المهمة ولم يخرج محمد، وقال له: «إنه بدا لي أن لا أخرج، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا؛ فيزداد المسلمون جرأة، فلأن يكون الخُلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي، فالحق بالمدينة وأعلمهم أنا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل عشرون أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو».

وصل نعيم إلى المدينة وبدا يبث إشاعاته وساعده في ذلك المنافقون واليهود، وقالوا: لا يفلت محمد من هذا الجمع ولعبت هذه الإشاعات دورها، وسار أبوبكر

الصديق، وعمر بن الخطاب إلى رسول الله وقالا له: «يا رسول الله إن الله مظهر نبيه ومعز دينه، وقد وعدنا القوم موعدًا لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسر لموعدهم فوالله إن في ذلك لخيرًا، فسرّ النبي مما قاله صاحباه وأعلن أنه في طريقه إلى بدر وقال: «والذي نفسي بيده؛ لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد».

نادى رسول الله ﷺ في الناس للخروج، وسار بهم إلى بدر، وصل النبي إلى بدر في جيشه وعسكر هناك، وبقي ثمان ليال ينتظر قريشًا، ولكنها لم تأت، إذ عادت جموعها من عسفان خوفًا من اللقاء حقيقةً، وحجتها في ذلك أن الظروف غير ملائمة للحرب إذ كانت سنوات جدب، قال أبو سفيان: «يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا»، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون إنما خرجتم تشربون السويق..!.

وأثناء وجود رسول الله ﷺ في انتظاره لأبي سفيان لميعاده أتاه مخشي بن عمرو الضَّمْري وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان فقال: «يا محمد: أجئت لملاقاة قريش على هذا الماء؟ قال: نعم يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك. قال: لا، والله، يا محمد، ما لنا بذلك منك من حاجة.

كانت نتيجة هذه الغزوة أن فر المشركون يجرون أذيال الخيبة والهزيمة، وعاد المسلمون يحملون راية الظفر، وهكذا دان عدو المسلمين الأول، وهي أقوى قوة في الجزيرة، وجيشها أكبر الجيوش تنظيمًا وعتادًا، وكانت هي المتحدية، وهي الفارّة من اللقاء، وأدى ذلك إلى خوف القبائل، وإجلاء جزء من اليهود. وبدا أن غزوة أحد لم تكن ضربة أليمة يخنع المسلمون بعدها، ومن نتائجها أن رجالًا من الأعراب حول المدينة، والمنطقة كلها دانت لرسول الله ﷺ.

غزوة بني المصطلق

وتسمى أيضًا غزوة المريسيع وسببها أن سمع النبي رسول الله ﷺ باجتماع قبيلة بني المصطلق استعدادها للإغارة على المدينة، فما كان منه ﷺ إلا أن جمع المسلمين وانطلق إليهم لرد شرهم، وكان خروجه من المدينة في 2 شعبان سنة 6 هـ باغتهم عند منطقة تعرف بماء المريسيع، وعندها نصر الله نبيه ورد كيدهم وانتصر المسلمون انتصارًا كبيرًا وغنموا غنائم ضخمة وسلبوا عددًا كبيرًا من نساء القبيلة كان منهم جويرية بنت الحارث ابنة زعيم بني المصطلق الذي هو الحارث بن ضرار، وكانت ضربة هائلة للقبيلة.

تزوج النبي ﷺ من جويرية بنت زعيم قبيلة بني المصطلق، وذلك بعد أن أدى عنها كتابها لثابت بن قيس، وكانت من نصيبه في السبي وكانت جويرية قد أسلمت، ورأى الرسول أنه بهذا الزواج سيقرب قلوب بني المصطلق له، وبخاصة إذا أعتق المسلمون سباياهم من نساء بني المصطلق إكرامًا للرسول، وقد حدث ما توقعه الرسول، وأعتق الصحابة سبايا بني المصطلق، وقالوا: أصهار الرسول. فأعتق في ذلك اليوم يوم زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث أهل مائة بيت وكان ذلك سببًا في إسلام قبيلة بني المصطلق، فكان نصرًا للمسلمين. (1)

1- تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري - مغازي الواقدي، الواقدي - كتاب الطبقات الكبير، محمد ابن سعد بن منيع البصري - السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام.

غزوة بني لحيان

غزوة بني لحيان حدثت في السنة السادسة للهجرة بين المسلمين وبني لحيان الهدف منها كان معاقبة بني لحيان على غدرهم بستة من الدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين من الغزوة.

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعددٍ من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع، وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة. والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادي الأول سنة 6 هـ في مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران واد بين أملج وعسفان حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم.

وسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدروا عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة. وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

غزوة ذي قرد

غزوة ذي قرد أو غزوة الغابة وقعت في السنة السادسة للهجرة بين 500 إلى 700 من قوات المسلمين بقيادة النبي ﷺ، طاردوا خلالها 40 راكبًا وعيينة بن حصن الفزاري مع جماعة من غطفان، الذين أغاروا على لقاح (حوامل الإبل ذات اللبن) والنبي ﷺ بالغابة وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد.

وهي أول غزوة غزاها النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، وقبل خيبر.

ولقد ذكر الإمام البخاري أنها كانت قبل فتح خيبر بثلاث، وروي ذلك مسلم مسنَدًا من حديث سلمة بن الأكوع. وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل صلح الحديبية، وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي.

عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: «بعث محمد بن عبد الله بظهره مع غلامه رباح، وأنا معه بفرس أبي طلحة، فلما أصبحنا إذا عبدالرحمن الفزاري قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه أبا طلحة، وأخبر محمد بن عبد الله، ثم قمت على أكمة، واستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

خذها أنا ابن الأكوع   واليـــوم يوم الرُّضَّـع

«فو الله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلى فارس جلست في أصل الشجر، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا في تضايق الجبل علوته، فجعلت أرديهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة، يعرفها محمد بن عبد الله وأصحابه.

حتى أتوا متضايقًا من ثنيّة، فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قرن، فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل، قلت: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا. فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس محمد بن عبد الله يتخللون الشجر، فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبدالرحمن وأخرم، فعقر بعبدالرحمن فرسه، وطعنه عبدالرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة بعبدالرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، فتبعتهم أعدو على رجليَّ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قرد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجليتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقني محمد بن عبد الله والخيل عشاء.

فقلت: يا محمد بن عبد الله، إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السّرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: «يا بن الأكوع! ملكت فأسجح».

ثم قال: «إنهم ليقرون الآن في غطفان». وقال محمد بن عبد الله: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سَلَمَةُ».

وأعطاني سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة. واستعمل رسول الله على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو.» (1)

1- الرحيق المختوم، المباركفوري.

صلح الحُديبية والإمام علي رضي الله عنه

في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، أعلن النبي محمد ﷺ أنه يريد المسير إلى مكة لأداء العمرة، وأذَّن في أصحابه بالرحيل إليها لأدائها وسار النبي محمد ﷺ بألف وأربع مئة من المهاجرين والأنصار، وكان معهم سلاح السفر لأنهم يرغبون في السلام ولا يريدون قتال المشركين، ولبسوا ملابس الإحرام ليؤكدوا لقريش أنهم يريدون العمرة ولا يقصدون الحرب، وما حملوا من سيوف إنما كان للحماية مما قد يعترضهم في الطريق. وعندما وصلوا إلى (ذي الحليفة) أحرموا بالعمرة. فلما اقتربوا من مكة بلغهم أن قريشًا جمعت الجموع لمقاتلتهم وصدهم عن البيت الحرام.

فلما نزل النبي محمد ﷺ بالحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى قريش وقال له: «أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالًا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، وأن الله عز وجل مظهر دينه بمكة. فانطلق عثمان، فأتى قريشًا، فقالوا: إلى أين؟ فقال: بعثني رسول الله أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم: أنه لم يأت لقتال، وإنما جئنا عمارًا. قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ إلى حاجتك».

ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين، فخاف النبي عليه، وخاصة بعد أن شاع أنه قد قُتل، فدعا إلى البيعة، فتبادروا إليه، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، وهذه هي بيعة الرضوان.

وفي هذه البيعة هي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

وقامت قريش بإرسال عروة بن مسعود الثقفي إلى المسلمين فرجع إلى أصحابه، فقال: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدًا. والله ما انتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، ثم قال: وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها».

ثم أسرعت قريش في إرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فلما رآه النبي قال: «قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فتكلم سهيل طويلًا ثم اتفقا على قواعد الصلح».

فلما اتفق الطرفان على الصلح دعا رسول الله عليَّ بنَ أبي طالب فقال له: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: أما الرحمن، فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم

فقال: «اكتب: باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله».

فقال سهيل: والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب محمد بن عبد الله

فقال: «إني رسول الله، وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله».

ثم قال لعلي: (امح: رسول الله). قال: لا والله لا أمحوك أبدًا، فأخذ رسول ﷺ الكتاب، فمحى كلمة رسول الله فكُتب: (هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله، لا

يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحدًا من أصحابه أراد أن يقيم بها). [1]

وأن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه.

ويمنعوا الحرب لمدة 10 سنين.

أن يعود المسلمون ذلك العام على أن يدخلوا مكة معتمرين في العام المقبل.

عدم الاعتداء على أية قبيلة أو على بعض مهما كانت الأسباب.

أن يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما بدون إذن وليه، وألا ترد قريش من يعود إليها من المسلمين.

ودخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا، وما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، قام ولم يكلم أحدًا منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا».

وكان قبول النبي ﷺ للصلح وشروطه بوحي من الله تعالى ولم يستشرهم في هذه الشروط أثناء المفاوضات علي غير عادته ولم يرق هذا الاتفاق في أعين جمهور الصحابة واعتقدوا أن الرسول سلم لقريش بكل مطالبهم وكان أشدهم نقدا للمعاهدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ذهب إلى أبي بكر فقال يا أبا بكر أليس برسول الله؟

1- عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ قالوا لا نقر لك بهذا لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ولكن أنت محمد بن عبد الله فقال أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي رضي الله عنه: امح رسول الله قال علي لا والله لا أمحوك أبدا فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاحًا إلا السيف في القراب وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها. صحيح البخاري 1186 مسلم 4731.

قال: بلى (رد عليه بالإيجاب) [1] أي هو رسول الله حقًّا.

فقال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى

قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا

قال أبوبكر: يا عمر الزم غرزه (الزم أمره) فإني أشهد أنه رسول الله

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟

قال: بلى

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى

قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني

فالموقف إذن ليس موقفَ شورى أو مناقشة بل كان كما ذكر الرسول ﷺ أمر الله وتوجيه الوحي فتصرف الرسول عليه السلام على ضوء هذا الإلهام الإلهي وكان

1- لاحظ أن الاستفهام المنفي مثل (أليس) (ألم) إذا أردت الرد بالإيجاب قل (بلى) وإذا كان الرد بالنفي قل (نعم) فإذا قيل لك (أَلَمْ تصلِّ العِشاء) فإذا كنت صليت فقل (بلى) وإذا كنت لم تصلِّ قل (نعم). انظر النحو المبسط والإعراب المبسط، الناشر: دار الكتاب العربي - دمشق/ القاهرة.

الرسول ﷺ يري ما لا يراه الصحابة. ثم إن الرسول وجد في هذه الشروط التي تم التوصل إليها الخير والبركة للإسلام والمسلمين.

وأنزل الله على نبيه سورة الفتح، في طريق عودته للمدينة المنورة، والمسلمون في هم وغم، وقد حيل بينهم وبين نسكهم، فانقلبت كآبتهم فرحًا وسرورًا، وأدركوا أن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام قال تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣**﴾ [الفتح: 1 - 3].

وفرَّج الله بهذه السورة غم المسلمين، وأسعد قلوبهم بما حوت من البشارة بالفتح المبين وبالنصر، والثناء والرضا على المؤمنين، حتى قال الرسول ﷺ عنها: «لقد أُنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾. (1)

1- صحيح الإمام البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الفتح 6 / 44.

الرسول ﷺ يعطي الراية لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في غزوة خيبر (سنة 7 هجرية)

ذكر ابن إسحاق أنها كانت في محرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة، وقد رجح ابن حجر قول ابن إسحاق على قول الواقدي في مغازيه.[1]

كانت الغزوة بعد عشرين يومًا من صلح الحديبية، وكان عدد المقاتلين المسلمين وقتها ألفًا وثمان مائة مقاتل فقط لأن الرسول رسول الله ﷺ قرر أن يقاتل معه في هذه المعركة كل من كان في صلح الحديبية فقط وهم الذين سوف يقسم عليهم الغنائم أما من زاد عليهم فله ثواب الجهاد فقط وليس له غنائم. وهي التي فيها قال: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله يفتح الله عليه وليس بفرار»، فلما كان من الغد دعا عليًّا وهو أرمد شديد الرمد فقال: «سر»، فقال: يا رسول الله ما أبصر موضع قدمي، فتفل عليه الصلاة والسلام في عينيه وعقد له اللواء ودفع إليه الراية وقال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك فقال: على ما أقاتلهم يا رسول الله قال: «على أن يشهدوا أن لا اله إلا الله وأني رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم عند الله تعالى».

1- السيرة النبوية لابن هشام، (3/ 455) - كتاب المغازي، الواقدي- كتاب الطبقات الكبرى، ابن سعد - تاريخ دمشق، ابن عساكر - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، (1412 - 1992م)، الطبعة الأولى.

ومدينة خيبر هي مدينة مليئة بالحصون وبها ماء من تحت الأرض وطعام يكفيها سنوات وبها عشرة آلاف مقاتل من اليهود منهم آلاف يجيدون الرمي، وكانت خيبر ممتلئة بالمال وكان اليهود يعملون بالربا مع جميع البلدان.

كانت خيبر هي وكر الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، وقد عاش المسلمون بسببهم محنًا متواصلة، اضطرت المسلمين إلى الفتك ببعض رؤوسهم أمثال سلام ابن أبي الحقيق وأسير بن زارم، ولكن كان لابد من عمل أكبر من ذلك إزاء هؤلاء اليهود، وما كان يمنع النبي ﷺ من مجابهتهم إلا وجود عدو أكبر وأقوى وألد ألا وهو قريش ولذلك قام بغزوهم بعد صلح الحديبية ولهذا اختلفت تلك الغزوة عما قبلها من غزوات؛ إذ أنها أول غزوة تأتى بعد وقعة بني قريظة وصلح الحديبية لتدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت مرحلة جديدة من بعد صلح الحديبية.

ومع كل الجرائم التي فعلها اليهود، وذلك التاريخ الأسود لهم مع المسلمين، إلا أن الرسول كان حريصًا على هدايتهم، ودخولهم في نور الإسلام. قال علي بن أبي طالب: «يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا».

فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب موضّحًا الغاية من الحرب في الإسلام، قال: «انفذْ على رسلك حتّى تنزل بساحتهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ اللّه تعالى فيه، فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النّعم».[1]

واقترب الجيش الإسلامي من لحظة البداية، وصلى المسلمون الصبح، وبدأ بعدها الجيش الإسلامي في التحرك في اتجاه خيبر، وكان اليهود حول حصون خيبر يزرعون

1- صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي.

في المزارع، فرأوا رسول الله والجيش معه، فقالوا: «محمد والله، محمد والخميس (الجيش)». ورجعوا هاربين إلى مدينتهم، وأغلقوا الأبواب عليهم.

وصاح الرسول صيحةً عالية سمعها الجيش بكامله، وسمعها كذلك اليهود، فقال: «اللّه أكبر! اللّه أكبر! خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين». [1]

وقد رفع التكبير النبوي الروح المعنوية عند المسلمين، وذكرهم بأيام الله، وبانتصارهم في بدر والأحزاب، أما اليهود فقد ألقت هذه الكلمات الرعب في قلوبهم.

وصل الصحابة -رضوان الله عليهم- إلى خيبر، وبدأ الرسول يدرس الموقف، فمن أيّ الحصون يدخل خيبر؟ فخيبر عبارة عن منطقة ذات حصون كثيرة، وفيها الحصون الكبيرة والحصون الصغيرة، والحصون الكبيرة ثمانية حصون رئيسية؛ فخمسة من هذه الحصون في منطقة، وثلاثة في منطقة أخرى، والخمسة الحصون الأولى هي خط الدفاع الاستراتيجي الأول لليهود، وتنقسم إلى: ثلاثة في منطقة تسمى النّطاة، واثنين في منطقة تسمى الشّق، أما حصون النطاة فكانوا بالترتيب الآتي: ناعم، ثم الصعب بن معاذ، ثم قلعة الزبير. وكان حصن ناعم من الحصون القوية في خيبر، واقترب الرسول من هذا الحصن، وأرسل علي بن أبي طالب ليدعوهم إلى الإسلام.

ورغم أن النبي ﷺ جاء من المدينة المنورة إلى خيبر ليعاقب اليهود على جرائمهم المتعددة السابقة، وعلى تحزيبهم الأحزاب وحصارهم للمدينة المنورة، وعلى تخابرهم مع المنافقين في داخل المدينة المنورة، وعلى محاولتهم اغتيال الرسول، وعلى تحفيزهم لغطفان أكثر من مرة على حرب المسلمين؛ فلذلك قرر أن يقاتلهم وأن يعاقبهم، ولكنه يريد أن يعطيهم فرصة أخيرة ليرفعوا عن أنفسهم العقاب الذي يستحقونه، فقال: إن أسلمتم رفعنا عنكم العقاب، ونسينا كل ما سبق. وهذه سعة صدر، ورحمة من رسول الله، ولكن اليهود، رفضوا هذه الدعوة، ورفضوا دعوة

1- صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء.

علي بن أبي طالب لدخولهم في الإسلام، وقرروا الحرب، واغتروا بقوتهم وأعدادهم وحصونهم وأصروا على القتال، بل أخرجوا أحد قادتهم الكبار ليحارب المسلمين، وكانت عادة الحروب القديمة أن يبدأ القتال بمبارزة بين فارسين من كلا الجيشين، والمنتصر في هذه المبارزة يعطي دفعة معنوية كبيرة لفريقه إن انتصر في هذه اللحظات الأولى من القتال؛ أخرج اليهود أحد أبطالهم، وكان من أشد الفرسان في تاريخ العرب بصفة عامّة، وهذا الرجل كان اسمه مرحبًا، وكان رجلًا عملاقًا ضخم الجثة، وخرج للقتال وطلب المبارزة، فخرج له عامر بن الأكوع، وسرعان ما دارت المبارزة بين الاثنين، وضرب عامر بن الأكوع مرحبًا اليهوديّ ضربة كبيرة، ولكن الضربة طاشت ولم تصل إلى مرحب، وأكملت الطريق إلى ركبة عامر فقُتل بسيفه، فاستشهد، فقال الصحابة: قد قتل نفسه. وتأثر الصحابة بهذا الموقف، بل وصل الأمر إلى أن بعض الصحابة قالوا: حبط عمله. وكأنه قتل نفسه بإرادته.

ولكن الرسول علق بعد ذلك على هذه الحادثة، وأثنى على عامر بن الأكوع، وقال: «إنّ له لأجرين»، وجمع بين إصبعيه، ثم قال: «إنّه لجاهد مجاهد [1]، قلّ عربيّ مشى بها مثله[2]؛ يعني نادرًا من العرب الذي مشى في أرض المعركة مثل عامر بن الأكوع.

وحدث نوع من الهِزّة عند المسلمين، وارتفعت الروح المعنوية عند اليهود، ووقف مرحب القائد اليهودي يطلب القتال من جديد بعد أن ارتفعت معنوياته في هذه اللحظات الأولى من القتال، فخرج له علي بن أبي طالب حامل راية المسلمين في غزوة خيبر، ودار بينهما قتال شديد عنيف، ثم منّ الله على علي بن أبي طالب بالنصر، كما تنبأ بذلك الرسول ﷺ، وقتل علي بن أبي طالب مرحبًا، وكان قتله إشارة كبيرة إلى أن النصر سيكون للمسلمين إن شاء الله؛ لأن هذا الرجل كان أقوى رجل في اليهود، وكان اليهود لا يتخيلون أبدًا أن يقتله أحد من المسلمين.

1- أي أنه مجتهد في العلم والعبادة والعمل.
2- متفق عليه بين البخاري ومسلم.

وخرج أخو مرحب -وكان اسمه ياسرًا وكان يريد الثأر لأخيه، وكان من عمالقة اليهود أيضًا- يطلب القتال، فخرج له الزبير بن العوام، واستطاع الزبير بن العوام أن يقتل ياسرًا أخا مرحب.

واحتدم اللقاء بين الصحابة وبين اليهود، واستمر عدّة أيام متصلة، وهذا غريب في عرف القتال؛ فكما رأينا قبل ذلك في بدر وفي أحد وفي غيرها كان اللقاء يومًا واحدًا، ولكن في هذا اللقاء الشديد دارت المعركة أكثر من يوم حتى تسلل اليهود من حصن ناعم وتركوه فارغًا للمسلمين، وكان هذا التسلل ليلًا، وانتقلوا إلى الحصن الذي وراءه، وتحصنوا في حصن الصعب بن معاذ، واحتل المسلمون حصن ناعم، وكان هذا إضافةً كبيرة للجيش الإسلامي في غزوة خيبر.

وتوجه الرسول ﷺ إلى حصن الصعب، وحاصر الحصن حصارًا شديدًا، وكان حصن الصعب بن معاذ أشد خطورةً وصعوبة من حصن ناعم، وأحكم المسلمون الحصار على حصن الصعب بن معاذ.

ومع أن الحصار كان شديدًا، ومع أن فتنة الحرب كانت كبيرة، إلا أن الله أراد أن يبتلي المؤمنين، فأوقعهم في أمر صعب إلى جوار صعوبة الحرب، وهو أمر الجوع؛ إذ داخل المسلمون في جوع شديد جدًّا لدرجة أن الصحابة قالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء.

وعندما ازداد الجوع على المسلمين، قام بعض رجال الجيش الإسلامي بذبح بعض الحمير للأكل. والحقيقة أن العرب كانت تأكل الحمير في ظروف معينة، ولم يكن الأمر محرمًا على المسلمين في ذلك الوقت، ونصبوا القدور، ولم يكن هذا بعلم الرسول، ولما رأى الرسول النيران مشتعلة قال: «على أيّ شيء توقدون؟».

فهو يعلم أنه ليس مع الجيش لحم يطبخ، ولا شيء يوقد عليه نار، فقالوا: يا رسول الله، نوقد هذه النيران على لحم. فقال: «أيّ لحم؟» فقالوا: لحوم الحمر. يعني لحوم

الحمر التي تستخدم في النقل، وهذه الحمير لم تكن محرّمة على المسلمين حتى هذه اللحظة، ولكن الرسول في هذا الموقف الصعب قام ونهى عن أكل لحوم الحمر الأهليّة، وقال: «لا تأكلوا من لحوم الحمر شيئًا وأهرقوها». [1]

بل إن الرسول لم يكتف بتحريم الأكل من لحوم الحمر الإنسيّة، وإنما قال: «أهريقوها (يعني: صبوا كل القدور، وكل ما فيها من مرق اللحوم على الأرض) واكسروها»؛ ليختفي كل أثر لهذه اللحوم، فسأل بعض الصحابة: أو نهريقها ونغسلها؟ يعني بدل الكسر نغسل القدور، فقال: «أو ذاك». [2]

ومن الواضح أن الرسول كان يرى أن موقف الصحابة لم يصل بعد إلى موقف الاضطرار، أي ما زالت هناك فرصة أن يعيشوا بدون طعام فترة من الزمان، وإلا اضطر المسلمون لأكل أيّ شيء حتى الميتة، وهذا مباح في أوقات الضرورة فقط. إنها التربية الإيمانية العالية! وهذا من أعظم أسباب النصر.

في هذه الأزمة الكبيرة وبعد استجابة الصحابة رضوان الله عليهم لأمر الرسول، لجأ المسلمون لجوءًا كاملًا إلى الله، وهذا من أبلغ الفوائد في الأزمات، لجوء المسلمين الصادقين إلى الله؛ ليفتح لهم أبواب الرحمة. ووقف المسلمون يدعون مع الرسول، هو يدعو وهم يؤمّنون، فقال: «اللّهمّ إنّك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوّة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إيّاه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناءً، وأكثرها طعامًا وودكًا. وانتهى من دعائه.[3]

وبفضل لجوء المسلمين إلى الله، جاء النصر من الله عز وجل؛ ففي اليوم التالي فتح الله عليهم حِصن الصعب بن معاذ، وهذا من أغنى حصون خيبر بالطعام والشراب، وما لذّ من ألوان الطعام المختلفة، ووجدوا فيه الطعام والودك كما دعا رسول الله،

1- رواه البخاري.

2- البخاري ومسلم في صحيحيهما (متفق عليه).

3- أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، والودك: دسم اللحم.

وأكل الناس وشبعوا واستكملوا الحرب، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى حصن قلعة الزبير، وهو الحصن الثالث في المنطقة؛ وحصن قلعة الزبير من أمنع الحصون أيضًا في هذه المنطقة، وكما يقول الرواة: لا تقدر عليه الخيل والرجال؛ لأنه فوق قمة جبل ومن الصعب الوصول إليه.

وفرض الرسول عليه الحصار، وظل الحصار ثلاثة أيام، ثم ألقى الله الرعب في قلب رجل من اليهود فأتى وتسلل من الحصن، وجاء إلى الرسول وطلب الأمان، وقال له: يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرًا تحاصرهم ما بالوا بك، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم دون أن يشعر المسلمون بهم. وقال اليهودي: فإن قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك؛ لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا من غير ماء. فوصل الرسول إلى هذه المياه وقطعها عن اليهود، فخرجوا إليه وقاتلوا قتالًا شديدًا، واستمر القتال حتى انتصر المسلمون وافتتحت قلعة الزبير، وكان القتال في منتهى الضراوة. [1]

وبذلك فتح الرسول الحصون الثلاثة الأولى، وهي حصن ناعم، والصعب بن معاذ، والزبير، وكانوا في منطقة تسمى النطاة.

1- ابن هشام: السيرة النبوية، والمباركفوري: الرحيق المختوم.

وادي القرى تيماء بعد غزوة خيبر عام 7 هـ

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، انصرف إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي، وهم على تعبئة، فقتل مدعم عبد لرسول الله ﷺ فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال النبي ﷺ: (كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا)، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين، فقال النبي ﷺ: (شراك من نار أو شراكان من نار). رواه البخاري في صحيحه.

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنمه الله أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القري أربعة أيام. وقسم على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها كما عامل أهل خيبر. [1]

تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادى القري، لم يبدوا أيّة

1- زاد المعاد في هَدْيِ خير العباد لابن قيم الجوزية.

مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم. وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه: «هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديا، أن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد». (1)

العودة إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله ﷺ في العودة إلى المدينة، وفي الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا).

وفي مرجعه ذلك سار النبي ﷺ ليلة، ثم نام في آخر الليل ببعض الطريق، وقال لبلال: (اكلأ لنا الليل)، فغلبت بلالًا عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ أحد، حتى ضربتهم الشمس، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ، ثم خرج من ذلك الوادي، وتقدم، ثم صلَّى الفجر بالناس، وقيل: إن هذه القصة في غير هذا السفر.

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر، يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة 7 هـ. (2)

ومما جاء في ذكر غزوة خيبر:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه فقال أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسمه، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهورهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال قسم قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على

1- انظر كتاب الرحيق المختوم - مصدر سابق.
2- المرجع السابق.

أن أُرمَى ها هنا- وأشار إلى حلقه- بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله ليصدقك، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتي به النبي ﷺ وهو مقتول فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه.

فكفنه النبي في جبته ثم قدمه فصلى عليه وكان من دعائه له:اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك قتل شهيدا وأنا عليه شهيد. (1)

1- أخرجه النسائي والطحاوي في شرح معاني الآثار، والحاكم، والبيهقي، وإسناده صحيح نقلًا عن زاد المعاد.

عمرة القضاء ثم فتح مكة 7 هـ

عمرة القضاء هي العمرة التي أداها الرسول ﷺ وألفان من أصحابه سوى النساء والصبيان، في ذي القعدة 7 هجرية عوضًا عن العمرة التي صرفوا عنها وفقًا لشروط صلح الحديبية، وقد تزوج الرسول من ميمونة بنت الحارث خلال تلك العمرة.

قد اختلف في تسمية هذه العمرة عمرة القضاء، فقال مالك والشافعي والجمهور: لأنه قاضى قريشا سنة الحديبية فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الحكم لا لأنها قضاء عن العمرة التي صدّ عنها لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها بل كانت عمرة تامة، وقال أبو حنيفة وأحمد: إن من صدّ عن البيت فعليه القضاء فتسميتها قضاء عل هذا ظاهرة – وهذه العمرة ليست من الغزوات –.

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر أقام بها شهري ربيع وجماديين ورجب وشعبان وشوالًا، ثم خرج في ذي القعدة في السنة السابعة – فبراير سنة 629م – في الشهر الذي صدّه فيه المشركون بالحديبية معتمرًا عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الديلي ويقال لها عمرة القصاص لأنهم صدُّوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست فاقتص رسول الله ﷺ منهم وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية وخرج معهم غيرهم أيضًا فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان وساق معه ﷺ ستين بدنة وحمل السلاح والدروع والرماح وقاد مائة فارس خوفًا من غدر أهل مكة فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش بينها أن محمدًا في عسر وجهد فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف والمسلمون يطوفون معه، كان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذا بخطام ناقته.

وكان المشركون على جبل قيقعان، ثم سعى رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته وبعد فراغه نحر هديه عند المروة وحلق رأسه هناك ثم أمر مائتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج - موضع على ثمانية أميال من مكة - يقيمون على السلاح ويأتي الآخرون ليقضوا نسكهم ففعلوا وأقام ﷺ بمكة ثلاثا كما شرطه قريش في الهدنة فلما كان الظهر من اليوم الرابع جاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى فقالا: ننشدك العهد إلا ما خرجت من أرضنا فرد عليهما سعد بن عبادة رضي الله عنه فأسكته ﷺ وأذن بالرحيل.

جاء في البخاري من حديث البرَّاء فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًّا رضي الله عنه فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج رسول الله ﷺ.

فتح مكة المكرمة

وفقًا لشروط صلح الحديبية تحالفت قريش مع قبيلة بني بكر، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ إلا أن قريش نقضت الصلح وساعدت بني بكر في قتل عددًا من رجال قبيلة خزاعة داخل الحرم المكي، وبذلك خانت قريش العهد الذي بينهما وبين رسول الله ﷺ.

ونتيجةً لذلك الغدر والنقض في العهد، خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين من خزاعة حتى قدموا على الرسول ﷺ في المدينة المنورة، وأخبروه بما كان من بني الدئل بن بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش لبني الدئل بن بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على الرسول وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدًا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدًا
قد كنتم ولدًا، وكنا والدًا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدًا
فانصر -هداك الله- نصرًا أعتدًا ... وادع عباد الله يأتوا مددًا
فيهم رسول الله قد تجردًا ... إن سيم خسفًا وجهه تربدًا
في فيلق كالبحر يجري مزبدًا ... إن قريشًا أخلفوك الموعدًا
ونقضوا ميثاقك المؤكدًا ... وجعلوا لي في كداء رصّدًا
وزعموا أن لست أدعو أحدًا ... وهم أذل وأقل عددًا
هم بيتونا بالوتير هُجَّدًا ... وقتلونا رُكَّعًا وسجّدًا

فقال الرسول ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم». (1)

وفي مكة اجتمع كبير قريش أبو سفيان مع قادة مكة، مع عكرمة بن أبي جهل، ومع

1- السيرة النبوية لابن هشام.

صفوان بن أمية، ومع سهيل بن عمرو، ومع غيرهم من رجال مكة وزعمائها، وبدءوا يفكرون فيما سيفعلونه نتيجة نقض المعاهدة، لوجود انطباع عند قريش وخاصة عند أبي سفيان عن المسلمين أنهم وصلوا إلى مرحلة كبيرة من القوة، وكان من الواضح في صلح الحديبية نفسه أن الغلبة للمسلمين، والقوة والبأس لصالح المسلمين، والتفريط والتنازل في صالح قريش، التي ما كنت تسلم بذلك الأمر لولا أنها رأت قوة المسلمين، في بيعة الرضوان أو في صلح الحديبية.

ثم إن أبا سفيان قد سافر إلى غزة للتجارة، وهناك التقى مع هرقل في اللقاء العجيب، وخرج أبو سفيان من هذه المحاورة بتصور هائل عن رسول الله ﷺ، لدرجة أنه خرج يضرب يدًا بيد وقال: (لقد أَمَرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة (يقصد النبي ﷺ)؛ إنه ليخافه ملك بني الأصفر -يعني: هرقل -[1]

اختارت قريش أبا سفيان وهو سيد مكة وزعيمها، وهو ليس مجرد سفير ترسله مكة، ولكنه زعيم مكة بكاملها، وزعيم بني أمية، وله تاريخ طويل وحروب متتالية مع المسلمين. وهنا يتنازل أبو سفيان عن كبريائه، وعن كرامته، ويذهب إلى المدينة المنورة، ويطلب من الرسول أن يطيل الهدنة مع قريش، وهذا شيء كبير! ولعلها المرة الأولى في تاريخ قريش التي تقدّم فيها تنازلًا بهذه الصورة، ولكن أبا سفيان ذهب بالفعل إلى المدينة المنورة، وحاول قدر المستطاع أن يمنع الرسول من الانتقام لخزاعة، والثأر لكرامة الأمة الإسلامية، وأن يطيل المدة بأيّ ثمن.

وصل أبو سفيان إلى المدينة المنورة وذهب إلى ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضوان الله عليها، وهي ابنته، وزوجة الرسول، والتقى أبو سفيان بأم حبيبة رضي الله عنها، وكان هذا اللقاء بعد غياب ستة عشر عامًا متصلة؛ لأن أم حبيبة -رضي الله عنها- ظلت فترة طويلة من الزمن في الحبشة مهاجرة هناك مع زوجها عبيد الله بن جحش الذي تنصّر هناك، ومات كافرًا، فتزوجها الرسول، ثم أتت إلى المدينة المنورة، ولم

1- السيرة النبوية جزء من كتابه البداية والنهاية لابن كثير..

تدخل مكة طوال هذه المدة الطويلة، وكانت العلاقة بينها وبين أبيها منقطعة، فكان أبو سفيان يظن أن أم حبيبة سوف تستقبله استقبالًا حافلًا. وما إن اقترب أبو سفيان من الفراش ليتحادث مع ابنته، فإذا بها تطوي الفراش، وتمنعه من الجلوس عليه، فتعجب أبو سفيان وقال لها: يا بنيّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟!

أي: لم تجلسيني على هذا الفراش لأنه مكرّم عندك أكثر مني، أم لأنك تريني رجلًا عظيمًا لا أقعد على هذا الفراش المتواضع فراش الرسول. فقالت السيدة أم حبيبة في صلابة وفي قوة:

«هو فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراشه».

فقال أبو سفيان: يا بنية، والله لقد أصابك بعدي شرّ[1]. ثم خرج من عندها.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ قد أنبأ المسلمون بقدوم أبي سفيان قبل أن يأتيَ في معجزة نبوية ظاهرة، قال: «كأنّكم بأبي سفيان قد جاءكم يشدّ في العقد، ويزيد في المدّة». [2]

فالناس يعرفون الغرض الذي أتى بأبي سفيان إلى المدينة المنورة؛ لذلك أرادت أم حبيبة -رضي الله عنها- أن تقف هذه الوقفة الصلبة الجريئة القوية مع أبيها؛ ليعلم أبو سفيان أن المسلمين جميعًا صفّ واحد، وأنهم جميعًا على قلب رجل واحد، حتى ابنته أم حبيبة رضي الله عنها وقفت مع الرسول ضد أبيها أبي سفيان. وقد ترك هذا الأمر انطباعًا سلبيًّا كبيرًا عند أبي سفيان، وعرف أنه يقف أمام مجموعة من الصعب أن يحاربهم، وهذا ليس هو السلوك الإسلامي العام مع الرّحم المشرك، أو الرحم غير المسلم؛ لأن الله أمر بمصاحبة الآباء والأمهات المشركين بالمعروف، قال الله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: 15].

1- انظر: السيرة النبوية لابن كثير (السيرة النبوبة لابن كثير يسرد الكتاب (في أربعة أجزاء كبيرة) سيرة النبي منذ ولادته حتى وفاته ﷺ مرورًا بفترة حياته في مكة ثم في المدينة، بتفصيل واسع).
2- المصدر السابق.

واتجه أبو سفيان بعد ذلك إلى الرسول؛ ليحاول أن يطيل المدة، وتحدث مع الرسول عن رغبته في إطالة مدة الصلح، ولكن الرسول رفض تمامًا أن يردّ عليه، ولم يكن هذا هو التصرف المعتاد من رسول الله؛ لأننا نعلم أن رسول الله كان دائمًا يحسن استقبال الضيوف، ويكرم الضيوف، وخاصةً أن هذا الرجل زعيم من زعماء قريش، وكان الرسول يستمع منه ويتحاور معه قبل ذلك، ولكن هذا لم يحدث في هذا الموقف؛ ليشعر أبا سفيان بمدى الجرم الذي أقبلت عليه قريش؛ ولأن الرسول يريد أن يفتح مكة وأن يستغل هذه الفرصة السانحة، ولا يريد لكلمات أبي سفيان أن تؤثر فيه بأية صورة من الصور. ومع ذلك هو لم ينفعل على أبي سفيان، ولم يقلْ له فعلتم كذا وكذا، ولم يذكر كلامًا شديدًا لأبي سفيان؛ وذلك لكي لا يلفت نظر أبي سفيان إلى أن المسلمين يفكرون في فتح مكة، وأن الهجوم على مكة أصبح وشيكًا، فآثر أن يسكت، ولم يرد على أبي سفيان بكلمة واحدة. وكانت هذه إهانة كبيرة لكرامة أبي سفيان، وذلك بأن يأتي إلى رسول الله ثم لا يقبل الرسول أن يرد عليه.

خرج أبو سفيان بهذه الهزيمة النفسية الكبيرة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلب منه أن يتوسط له عند الرسول ﷺ، وأن يجدد المسلمون العهد مع قريش، ولكن الصّدّيق قال له في صرامة واضحة: ما أنا بفاعل، فلن أتوسط بينك وبين الرسول.

فخرج أبو سفيان من عند أبي بكر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وليته ما فعل، فعندما ذهب وطلب منه أن يتوسط له عند الرسول ﷺ، ليجدد العهد بين قريش وبين المسلمين، قال عمر بن الخطاب بمنتهى القوة: أنا أشفع لكم عند رسول الله ! فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به.

أي لو معي جيش من النمل لأقاتلنكم به.

وخرج أبو سفيان من عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، واتجه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه متزوج من السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ،

فدخل عندهما، وكان عندهما الحسن يلعب بينهما، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحمًا، وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة، فلا أرجعنّ كما جئت خائبًا -ولننظر إلى الذل الذي وصلت إليه قريش- فاشفع لي إلى رسول الله.

فقال علي بن أبي طالب: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فقال أبو سفيان للسيدة فاطمة رضي الله عنها: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري بنِيَّك هذا -ولننظر إلى أيّ درجة من المهانة والذل حينما يطلب أبو سفيان من السيدة فاطمة أن تأمر ابنها الحسن، وكان وقتها طفلًا صغيرًا يلعب بينها وبين علي بن أبي طالب- فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

أي يخرج الغلام الطفل الصغير الحسن بن علي -رضي الله عنهما- ليجير أبا سفيان وقريشًا. فقالت السيدة فاطمة لتعطيه الضربة السادسة: والله ما بلغ بنيَّ ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على النبي ﷺ.

فقال أبو سفيان: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني.

فقال له علي: والله لا أعلم شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. أي قم وسط الناس واطلب الإجارة، ولعل أحد الناس يتشفع لك عند رسول الله.

فقال أبو سفيان: أوترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟

قال علي بن أبي طالب في وضوح: لا والله ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك.(1)

ومع هذا الإحباط الذي أصاب أبا سفيان إلا أنه قام في المسجد، وقال: يا أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. فلم يقم أحد من المسلمين لأبي سفيان.

ركب أبو سفيان بعيره راجعًا إلى مكة، فمر على سلمان وصهيب وبلال، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها.

1- ابن هشام: في السيرة النبوية.

وعاد إلى مكة، فقال له زعماء قريش: ما وراءك؟

فقال أبو سفيان: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة، فوالله ما وجدت فيه خيرًا، ثم جئت عمر فوجدته أدنى العدو (أي: أعدى العدو أو أقربه)، ثم جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بأمر صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئًا أم لا؟

فقالوا: فبماذا أمرك؟

فقال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟

قال: لا.

قالوا: ويحك! ما زادك الرجل على أن لعب بك.

فقال أبو سفيان: لا والله ما وجدت غير ذلك. [1]

وهكذا علمت قريش أن هناك احتمالًا كبيرًا لغزو مكة، وبدأت تترقب قدوم المسلمين، وهي لا تعرف ماذا تصنع؛ فلم يبق من أعوانها إلا بني بكر، وهم لن يغنوا عنها شيئًا.

قرر الرسول ﷺ السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر؛ حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته، فقد كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه، فكتمه عن صاحبه أبي بكر الصديق، وزوجته عائشة، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية، ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوي قتاله، وكان الرسول ﷺ قد أمر عائشة قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبوها أبوبكر الصديق، فقال: «يا بنية ما هذا الجهاز؟»، قالت: «والله ما أدري»، فقال: «والله

1- ابن هشام: في السيرة النبوية.

ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله؟»، قالت: «والله لا علم لي». [1]

كما بعث الرسول ﷺ قبل مسيرة مكة سريةً مكونةً من ثمانية رجال إلى إضم، وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لما همّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم (وهو وادي المدينة الذي يجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان، وقناة، والعقيق)، ليظن الظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا ولم يلقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خشب (وهو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة 35 ميلًا، أي 56 كيلومترًا تقريبًا)، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي ﷺ بالسّقيا (وهي موضع يقع في وادي القرى)». [2]

وأعد الرسول ﷺ جيشًا وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل، وبث رجال العسس بالدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، ثم دعا الله تعالى فقال: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة».

وعندما أكمل الرسول ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب الصحابيّ حاطب ابن أبي بَلْتَعَةَ اللخمي كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك الرسول إليهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى مكة، ويؤمن المسلمون أن الله تعالى أطلع الرسول عن طريق الوحي على هذه الرسالة فقضى على هذه المحاولة وهي في مهدها.

فأرسل عليًّا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود فأمسكوا بالمرأة في «روضة خاخ» على بعد اثني عشر ميلًا من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعي حاطب للتحقيق، فقال: «يا رسول الله، لا تعجل عليَّ،

1- السيرة النبوية لابن هشام، الروض الأنف للسهيلي أبي عبدالرحمن، البداية والنهاية لابن كثير إسماعيل.
2- المرجع السابق.

إني كنت امرأً ملصقًا (أي حليفًا) في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام».

فقال الرسول ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال الرسول ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطَّلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فنزلت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: 1].

وخرج الرسول ﷺ قاصدًا مكة في العاشر من رمضان في العام الثامن للهجرة، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري الكناني، وكان عدد الجيش عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد، فسار هو ومن معه إلى مكة يصوم ويصومون، فلما وصل الجيش منطقة الكديد (الماء الذي بين قديد وعسفان) أفطر وأفطر الناس معه، وفي منطقة الجحفة لقيه عمّه العباس بن عبد المطلب وقد خرج مهاجرًا بعياله، فسرّ الرسول ﷺ.

وخرج أبو سفيان بن الحارث الهاشمي القرشي وعبد الله بن أمية بن المغيرة المخزومي القرشي من مكة، فلقيا النبي ﷺ بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أمّ سلمة فقالت: «يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك».

فقال: «لا حاجة لي فيهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال».

فلما خرج الخبر إليهما بذلك -ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له- فقال: «والله ليأذنن رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا».

فلما بلغ ذلك الرسول رقّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره عما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل رايةً ... لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليلُه ... فهذا أوان الحق أهدي وأهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلني ... إلى الله من طرّدت كل مطرد
أفر سريعًا جاهدًا عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب لمحمد
هم عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفنّد
أريد لأرضيهم ولست بلاقط ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامرًا ... وما كان عن غير لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... توابع جاءت من سهام وسردد
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ... سيسعى لكم امرؤ غير مقدد

فلما أنشد: «إلى الله من طردت كل مطرد»، ضرب ﷺ في صدره فقال: «أنت طردتني كل مطرد»، وكان أبو سفيان بن الحارث يهجو الرسول ﷺ بشعره كثيرًا، وأما عبد الله بن أمية فقد قال للرسول محمد: «فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك».

ومع ذلك فإن الرسول ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما.

وتابع الرسول ﷺ سيره حتى أتى مر الظهران، وهو واد شمال مكة بـ 22 كيلومترًا، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب.

بعد أن نزل الرسول ﷺ مر الظهران، وأوقد الجيش عشرة آلاف نار، رأى الصحابيّ العباس بن عبد المطلب ذلك، وهذه قصة ماحدث يرويها العباس بنفسه.

فقلت: «واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر»، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: «ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا»، فقال بديل: «هذه والله خزاعة حمشتها الحرب»، فقال أبو سفيان: «خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها»، وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: «يا أبا حنظلة»، فقال: «أبو الفضل؟»، قلت: «نعم»، قال: «ما لك، فداك أبي وأمي؟».

قال العباس: قلت: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله!»، قال: «فما الحيلة فداك أبي وأمي؟»، قال: قلت: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك»، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: «من هذا؟».

فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: «عمّ رسول الله على بغلته»، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: «من هذا؟»، وقام إليَّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: «أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد»، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: «يا رسول الله، هذا أبو سفيان

قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه»، قال: قلت: «يا رسول الله، إني قد أجرته».

فلما أكثر عمر في شأنه قلت: «مهلًا يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عَدِيٍّ ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف»، فقال: «مهلًا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم»، فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، فلما أصبح غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟».

قال: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعدُ»، قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ لك أن تعلمَ أني رسول الله؟»، قال: «بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا».

فقال له العباس: «ويحك أسلم قبل أن تُضرب عنقك»، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: قلت: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا».

قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها».

قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: «يا عباس من هذه؟»، فأقول: «غفار»، فيقول: «ما لي ولغفار»، ثم تمر به القبيلة فيقول: «يا عباس من هؤلاء؟»، فأقول: «سليم»، فيقول: «ما

لي ولسليم»، ثم تمر به القبيلة فيقول: «يا عباس من هؤلاء؟»، فأقول: «مزينة»، فيقول: «يا أبا الفضل ما لي ولمزينة قد جاءتني تقعقع من شواهقها»، ثم تمر به القبيلة فيقول: «يا عباس من هؤلاء؟»، فأقول: «جهينة»، فيقول: «ما لي ولجهينة»، ثم تمر به القبيلة فيقول: «يا عباس من هؤلاء؟»، فأقول: «كنانة: بنو ليث بن بكر وبنو ضمرة بن بكر»، فيقول: «نعم، أهل شؤم والله، هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم، أما والله ما شوورت فيهم ولا علمته، ولكنه أمر حتم»، ثم تمر به القبيلة فيقول: «يا عباس من هؤلاء؟»، فأقول: «أشجع»، فيقول: «هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد»، حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: «سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟»، قال: قلت: «هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار».

قال: «ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة»، ثم قال: «والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا»، قال: قلت: «يا أبا سفيان: إنها النبوة»، قال: «فنعم إذن»، قال: قلت: «النجاء إلى قومك».

لقد تعمد الرسول ﷺ شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر الرسول بإيقاد النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق، فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب القرشيين من شدة هوله، وقد قصد الرسول ﷺ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء. [1]

نال أهل مكة عفوًا عامًّا رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، ومع قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون

1- السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي - الروض الأنف للسهيلي - السيرة النبوية، ابن هشام - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير - تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري - معجم البلدان، ياقوت الحموي - الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البغدادي - الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري.

قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟»، فقالوا: «خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم»، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم».

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة؛ لقدسيتها وحرمتها عند المسلمين.

كما أجار الرسول ﷺ رجلين من بني مخزوم، كانت أم هانئ بنت أبي طالب قد حمتهما، إذ قالت أم هانئ بنت أبي طالب: «لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إليّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل عليّ بن أبي طالب أخي، فقال: «والله لأقتلنهما»، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليّ فقال: «مرحبًا وأهلًا يا أم هانئ، ما جاء بك؟»، فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي، فقال: «قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما».

كان من أثر عفو الرسول ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم، أن دخل أهل مكة رجالًا ونساءً وأحرارًا وموالي في الإسلام طواعيةً واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في الإسلام أفواجًا، وبايع الرسول الناس جميعًا الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على «الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا».

ولما فرغ الرسول ﷺ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عُتبة امرأة

أبي سفيان متنكرة خوفًا من الرسول أن يعرفها، لما صنعت بعمه حمزة، فقال الرسول ﷺ: «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئًا»، فبايع النساء على ألا يشركن بالله شيئًا، فقال الرسول ﷺ: «ولا تسرقن»، فقالت هند: «إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟»، فقال أبو سفيان: «وما أصبت فهو لك حلال»، فضحك الرسول وعرفها.

فقال: «وإنك لهند؟».

قالت: «نعم، فاعف عما سلف يا نبيّ الله، عفا الله عنك».

فقال: «ولا يزنين»، فقالت: «أو تزني الحرة؟»، فقال: «ولا يقتلن أولادهن»، فقالت: «ربيناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم» -وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر- فضحك عمر حتى استلقى.

فتبسم الرسول فقال: «ولا يأتين ببهتان»، فقالت: «والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق»، فقال: «ولا يعصينك في معروف»، فقالت: «والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك»، ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: «كنا منك في غرور». (1)

1- السيرة النبوية (جزء من كتابه البداية والنهاية) لابن كثير والسيرة النبوية لابن هشام.

غزوة حُنَيْنٍ

وقعت تلك الغزوة في العاشر من شوال في السّنة الثامنة للهجرة بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف في وادي يسمّى حنين بين مدينة مكّة والطائف. كان قائد المعركة وسببها رجل يسمّى مالك بن عوف النّصري من قبيلة هوازن وقد سيّر جيشه حتى وصل بالقرب من مكة، وعندما وصلت الأخبار للمسلمين وجّه المسلمون جيشًا كبيرًا وكان يضم الكثير ممّن أسلموا بعد فتح مكّة وقد أعجبت كثرة الجيش وعدّته وعتاده المسلمين ووصلوا بثقتهم بالجيش إلى حد الغرور وقد قال بعض المسلمين لن نُغْلَبَ اليوم من قِلَّة.

كانت غزوة حنين من الأحداث التي تلت صلح الحديبية، وغزوة خيبر، وغزوة مؤتة، وفتح مكة، وقد جرت هذه الغزوة في فترة ازدهار وانتشار الإسلام في داخل الجزيرة العربية وخارجها، حيث كان صلح الحديبية هو السبب في هذا الازدهار والانتشار لهذا الدين، فقد تفرغ الرسول خلال مدة هذا الصلح إلى الدعوة ومراسلة الملوك في داخل الجزيرة العربية وخارجها.

بعد فتح مكة المكرمة واستسلام العديد من القبائل في الجزيرة العربية، وتسليمها بالأمر الواقع، إلا بعض القبائل القوية مثل: هوازن وثقيف ونصر وجشم، وقبائل سعد ابن بكر، فما رضيت هذه القبائل بالاستسلام والخضوع، فتحالف من تحالف معها، وقررت إعلان الحرب على المسلمين، وكان قائدهم في هذه الحرب هو مالك بن عوف النصري، وهو شاب في الثلاثين من عمره.

بعد أن مَنَّ الله على رسوله ﷺ بفتح مكة وجاءته أخبار تجمع قبائل هوازن وثقيف وحلفائهم لقتال المسلمين، توجَّه رسول الله ﷺ من مكة لست خلت من شوال، وكان وصوله إلى حنين في العاشر منه.

دارت هذه الغزوة في موضع يقال له حنين، وهو واد إلى جنب ذي المجاز بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا من جهة عرفات، فقد آثر ألاّ ينتظر بمكة. وفي ذلك حكمة كبيرة جدًّا؛ لأنه لو بقي في مكة وغزاها مالك بن عوف بجيشه، فقد يتعاون أهل مكة معه. وفي تلك الأثناء، كان أهل مكة حديثو عهد بشرك وجاهلية، وهذه كارثة؛ لأن الحرب بذلك ستصبح من الداخل والخارج، ومن ثمّ فضّل الرسول ﷺ أن يخرج بجيشه إلى مكان مكشوف بعيد عن مكة.

وكان جيش النبي ﷺ مكون من عشرة آلاف مقاتل الذين فتح بهم مكة من قبل؛ لأن أعداد هوازن ضخمة وكبيرة. وقام أيضًا بأخذ معه من داخل مكة المكرمة المسلمين الطلقاء الذين أسلموا عند الفتح، وفي ذلك بعد نظر كبير من الرسول ﷺ؛ فهؤلاء إن تركوا في مكة، قد ينقلبون إلى الكفر مرة ثانية، وقد ينفصلون بمكة عن الدولة الإسلامية، وخاصةً إذا تعرض المسلمون لهزيمة من هوازن.

ومن ناحية أخرى، لم يكتفِ الرسول بسلاح الجيش الإسلامي الذي فتح به مكة المكرمة، مع كون هذا السلاح من الأسلحة الجيدة والقوية جدًّا، بدليل انبهار أبي سفيان به عند رؤيته للجيش الإسلامي. ومع ذلك لم يكتف به، كما لم يكتف بسلاح المسلمين من الطلقاء، وإنما سعى إلى عقد صفقة عسكرية كبرى لتدعيم الجيش الإسلامي؛ فقد ذهب بنفسه ﷺ إلى تجار السلاح في مكة المكرمة، وكان على رأس هؤلاء التجار صفوان بن أمية، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وكان هذان الاثنان لا يزالان على شركهما وقتئذ، فطلب منهما السلاح على سبيل الاستعارة بالإيجار والضمان، حتى إن صفوان بن أمية سأل الرسول ﷺ وهو لم يزل على كفره: أغصب يا محمد؟

فقال: «بل عارية مضمونة». واهتم الرسول ﷺ اهتمامًا كبيرًا بالحراسة الليلية للجيش الإسلامي، لئلاّ يباغت فجأة، ووضع عليها أنس بن أبي مرثد.

كان سبب هذه الغزوة أن مالك بن عوف النضري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون، واجتمعت إليه مضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال؛ بغية محاربة المسلمين، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخرج إليهم.

لقد كان فتح مكة كما قال ابن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد:«الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله ﷺ وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين. وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء... ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا». وكان لهذا الفتح الأعظم رد فعل معاكس لدى القبائل العربية الكبيرة القريبة من مكة، وفي مقدمتها قبيلتا: هوازن، وثقيف. فقد اجتمع رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمرهم، إلى مالك بن عَوْفٍ سيد هوزان. وأجمعوا أمرَهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم».[1]

خرج النبي ﷺ ومعه اثنا عشر ألف مقاتل في جيش المسلمين، ولم يكن كل جيش المسلمين من صحابة النبي من المهاجرين والأنصار بل كان يضمُّ عددًا كبيرًا من الذين دخلوا في الإسلام حديثًا بعد فتح مكة. وقد كان عدد جيش هوازن ثلاثون ألف مقاتل بقيادة «عوف بن مالك»، وقد أمر عوف بن مالك قومه بأن يخرجوا جميعًا لملاقاة المسلمين ويأخذوا معهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم وأغنامهم وإبلهم وأبقارهم معهم في المعركة. وذلك حتى لا يفر المقاتلون من أرض المعركة.

وقد خرج في جيش هوازن أحد شيوخها وهو «دريد بن الصمة»، وقد كان عمره مائه وستون عامًا، وهو ذو دراية وخبرة بفنون الحرب وأساليب القتال. ولما علم من أمر مالك بن عوف مع قومه بأن يخرج الأبناء والنساء والأموال والماشية؛ أنكر دريد هذا الرأي وقال إن هذا لاينفعنا ولكن مالك بن عوف أصر على رأيه وخرج الجيش بما فيه فقال دريد لمالك بن عوف: «إذا لقيت محمدًا وجهًا لوجه فاعلم أنك مهزوم.

1-زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية.

فقال له عوف: «وما الرأي إذًا»، فقال دريد: «أكمن لهم فاذهب إلى حنين وأدخل بين الأشجار وعندما يصل المسلمون إلى وادي حنين اخرج عليهم وحاصرهم.

أرسل الرسول ﷺ ابن أبي حدرد [1] وقال: «اجلس بينهم وخذ أخبارهم وائتني بأعلامهم»، وهذا قبل المعركة، فجلس بينهم في الليل؛ فسمع مالك بن عوف النصري يقول: «إذا أتينا غدًا فصبحوهم واضربوهم ضربة رجل واحد».

فأخبر الرسول بذلك. وكان الرسول وقتئذ في مكة، وكان رد فعل الرسول بتبسم وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء اللّه».[2]

خرج جيش المسلمين وكان عدده اثنا عشر ألف مقاتل، لكن المسلمين اغتروا بكثرتهم فقال بعضهم لبعض لن نهزم اليوم من قلة. وأثناء سير النبي بجيش المسلمين على الجبل، نظر النبي فوجد منحدرًا كبيرًا ثم واديًا واسعًا ومساحه شاسعة من الأشجار في اليمين والشمال ووجد جيش هوازن يقف عن بعد فأيقن النبي أن جيش هوازن يكمن في هذه الأشجار فأمر النبي أحد الصحابة واسمه أنس بن أبي مرثد أن يأتي بحصان ويصعد به إلى رأس الجبل ويقف عليه حتى يراقب المكان وذلك من طلوع الشمس حتى الغروب. كما أوصاه النبي ألا يترك مكانه إلا لقضاء حاجته أو لأداء الصلاة. فامتثل أنس لأمر النبي، ثم عاد النبي فسأله النبي: «هل رأيت شيئًا؟».

قال: «لا والله»، فقال النبي: «أبشر فان لك الجنة ما ضرك ما فعلت بعد اليوم».

بعدما تأكد النبي بعدم وجود كمائن بين الأشجار بدأ النبي يصف الجيش فكانت أول كتيبة بقيادة خالد بن الوليد، والثانية الزبير والثالثه بقيادة على بن أبي طالب.

ثم بدأت أول كتيبه بقيادة خالد بن الوليد تنزل إلى هذا المنحدر وعند نزولها بدأت كمائن جيش هوازن تخرج من بين الأشجار؛ فارتبك جيش المسلمين. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

1- هو الصحابي عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه.
2- زاد المعاد في هَدْيِ خير العباد ﷺ لابن قيم الجوزية.

تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ [التوبة: 25].

تذكر كتب السير والتاريخ أن بعض من كان بجيش المسلمين من كان يجري إلى مكة لا يلتفت إلى الوراء لضراوة المعركة، ولم يبق مع النبي إلا قله من أصحابه وبدأ النبي ينادي ويقول: «إليّ عباد الله أنا رسول الله فكان أول من أجاب النبي عمه العباس ففرح النبي لأن العباس كان صوته عاليًا. فقال له النبي: «ناد عليهم يا عباس»، فقال: «ماذا أقول؟».

قال النبي: «قل يا أصحاب بدر»، فبدأ المسلمون يتجمعون حول النبي ﷺ.

ثم بدأ القتال يشتد ويقول العباس من شدة القتال نزل النبي من على فرسه وركب بغلته وتوجه بها في اتجاه جيش هوازن وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب». ثم أخذ الرسول قبضة من التراب بيده وألقاها في اتجاه جيش هوازن، وقال شاهت الوجوه اللهم نصرك الذي وعدت يقول العباس فمارأيت أحدًا من هوازن إلا يفرك عينيه أو فمه واشتد القتال ولجأ الصحابة إلى الله عزوجل. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: 26].

فقد أنزل الله سيدنا جبريل ومعه كتائب من الملائكة من السماء يراهم المؤمنون على هيئة نمل أسود صغير على أجساد الكافرين ويراهم الكافرون فرسانًا بيضًا. في هذه الأثناء، كان خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين ملقى على الأرض وجسده كله طعنات فجاء النبي، وتفل في يده ومسح على جسد خالد بن الوليد حتى برأ.

ثم لحقت الهزيمة بهوازن وفرَّ الجيش من ميدان المعركة تاركًا وراءه عشرات الآلاف من الأبقار والأغنام والإبل.

وجاء أبو سفيان للنبي ليأخذ نصيبه من الغنائم فأعطاه النبي مائة أوقية من الذهب

ومثلها من الفضة وطلب لأبنائه فأعطاه النبي. وجاء صفوان بن أمية فأعطاه النبي مائة أوقية من الذهب ومثلها من الفضة ومائة ناقة.

يقول صفوان - وقد كان مازال كافرًا - فما زال محمدًا يعطيني حتى أحببته.

كان نصيب النبي ﷺ من الغنائم إبل ما بين جبلين، فنظر أحد الأعراب إلى نصيب النبي ﷺ فقال له النبي: «أتعجبك؟»، قال: «نعم»، قال: «هي لك».

فذهب إليها وهو يلتفت ثم أخذ الإبل يسوقها إلى قومه يقول يا قوم أسلموا لقد جئتكم من عند خير الناس إن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر أبدًا. فكان النبي ﷺ حريصًا على أن يجزل العطاء من الغنائم.

إنّ الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين بعد هزيمة الناس هم: علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطّلب، والفضل بن العباس بن عبد المطّلب، وربيعة بن الحارث ابن عبد المطّلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطّلب، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب، وأيمن بن عبيد، وهو ابن أمّ أيمن مولاة رسول الله وحاضنته، وقد قتل يوم حنين.

ومن المواقف المشرفة في هذه المعركة موقف الصحابية أم سليم رضي الله عنها، وكانت مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنه. وقد روت كتب الحديث والسّير بسند صحيح وقائع خبرها، فعن أنس رضي الله عنه، أن أم سليم رضي الله عنها اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله ! هذه أم سليم، معها خنجر، فقال لها رسول الله: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله يضحك، قالت: يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك، فقال رسول الله: «يا أم سليم! إن الله قد كفى وأحسن».

قتل من هوازن في ذلك اليوم خلق عظيم، وقتل دُرَيْدُ بن الصمة فأعظم الناس

ذلك، فقال رسول الله: «إلى النار وبئس المصير، إمام من أئمة الكفر، إن لم يعن بيده فإنه أعان برأيه». واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين أربعة نفر هم: أيمن بن عبيد، من بني هاشم؛ يزيد بن زمعة بن الأسود، من بني أسد؛ سراقة بن الحارث بن عدي، من الأنصار؛ أبو عامر الأشعري، من الأشعريين.

رجع رسول الله إلى الجعرانة بمن معه من الناس، وقسّم بها ما أصاب من الغنائم يوم حنين، وهي: ستّة آلاف من الذراري والنساء، ومن البهائم ما لا يحصى ولا يدرى.

سبى المسلمون من المشركين في ذلك اليوم سبايا كثيرة، بلغت عدّتهم ألف فارس، وبلغت الغنائم اثنى عشر ألف ناقة سوى الأسلاب. ثم جمعت إلى رسول الله سبايا حنين وأموالها، وكان على المغانم مسعود بن عمرو القاري، فأمرالنبي بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها.

وقد كان فيما سبي أخته الشيماء بنت حليمة السعدية، فلمّا قامت على رأسه قالت: يا محمّد أختك شيماء بنت حليمة، فنزع رسول الله برده فبسطه لها فأجلسها عليه، ثمّ أكبّ عليها يسألها، وهي التي كانت تحضنه إذ كانت أمّها ترضعه. (1)

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: 25 - 26]

1- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي.

غزوة الطائف في شوال سنة 8 هجرية

قال ابن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد:

في شوال سنة ثمان قال ابن سعد. قالوا: لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة الدوسي، يهدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف، فخرج سريعًا إلى قومه ذا الكفين وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه، ويقول:

يا ذا الكفين لستُ من عبادكا ميلادنـــا أقدم من ميلادكـــا

إني حششت النار في فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا فوافوا النبيّ ﷺ، بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق.

قال ابن سعد: ولما خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف، قدم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف قد رمموا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة، فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال وسار رسول الله ﷺ فنزل قريبًا من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا، كأنه رِجل جَراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلا، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يصلي بين القبتين مدة حصار الطائف، فحاصرهم ثمانية عشر يوما، وقال ابن إسحاق: بضعا وعشرين ليلة.

ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول ما رُمِيَ به في الإسلام.

وقال ابن سعد: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ثور بن يزيد، عن مكحول، أن النبي ﷺ (نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوما).

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشُّدْخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب

رسول الله ﷺ تحت دبابةٍ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد مُحمَّاة بالنار، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالًا، فأمر سول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون.

قال ابن سعد: فسألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم» فنادى منادي رسول الله ﷺ، أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلا، منهم أبوبكرة، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: ما ترى؟ فقال: ثعلب في جُحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ (فاغدوا على القتال)، فغدوا، فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: (إنا قافلون غدا إن شاء الله) فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك، فلما ارتحلوا واستقلوا، قال قولوا: (آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون)، وقيل يا رسول الله ادع الله على ثقيف. فقال: (اللهم اهد ثقيفا وائت بهم).

واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف جماعة، ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، ثم دخل منها محرما بعمرة فقضى عمرته، ثم رجع إلى المدينة المنورة ﷺ.

قال ابن إسحاق: [1] وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى

1- انظر له كتابه (السِّيَر والمغازي) تحقيق: الشيخ طه عبدالرؤوف سعد، الناشر: دار أخبار اليوم- القاهرة.

قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ «كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك»، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم.

وكان فيهم كذلك محببا مطاعا، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟

قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنوني معهم فدفنوه معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: (إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه).[1]

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلًا، كما أرسلوا عروة، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا عليه ذلك، فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به كما صنع بعروة، فقال: لست بفاعل حتى ترسلوا معي رجالا، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك فيكونون ستة.

فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب، وشرحبيل بن غيلان، ومن بني مالك عثمان ابن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونمير بن خرشة فخرج بهم، فلما دنوا من المدينة ونزلو قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة، فاشتد ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه فلقيه أبوبكر، فقال: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه ففعل، فدخل أبوبكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه،

1- أُسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق.

فروح الظهر معهم، وأعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون.[1]

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتبه، وكانوا لا يأكلون طعاما يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا.

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي صنم اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوه شهرا واحدا بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمًّى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها، حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيَهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله ﷺ: (أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه).

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا، أمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

فلما فرغوا من أمرهم، وتوجَّهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك عليه أبو سفيان، فقال: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بماله بذي الهدم، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول، وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب

1- السيرة النبوية لابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير.

عروة، وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس - «واها لك واها لك» فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها، أرسل إلى أبي سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع.

وقد كان أبو مليح بن عروة، وقارب بن الأسود، قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف حين قتل عروة، يريدان فراق ثقيف، وأن لا يجامعاهم على شيء أبدا فأسلما، فقال لهما رسول الله ﷺ: (توليا من شئتما) قالا: نتولى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «وخالكما أبا سفيان بن حرب» فقالا: وخالنا أبا سفيان.

فلما أسلم أهل الطائف، سأل أبو مليح رسول الله ﷺ أن يقضي عن أبيه عروة دينا كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله ﷺ: نعم، فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود (أبي) يا رسول الله فاقضه وعروة والأسود أخوان لأب وأم، فقال رسول الله ﷺ: (إن الأسود مات مشركا) فقال قارب بن الأسود: يا رسول الله لكن تصل مسلما ذا قرابة - يعني نفسه - وإنما الدين عليَّ، وأنا الذي أُطلب به، فأمر النبي ﷺ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال الطاغية، ففعل.[1]

1- زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ - لابن قيم الجوزية.

غزوة تبوك التي لم يشهدها علي رضي الله عنه عام 9 هجرية

غزوة تبوك هي الغزوة التي خرج الرسول ﷺ لها في رجب من العام التاسع الهجري بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر.

وتعد غزوة تبوك هي آخر الغزوات التي خاضها الرسول ﷺ. ولم يشهدها معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث استخلفه على المدينة.

بدأت تداعيات تلك الغزوة عندما قرر الرومان إنهاء القوة الإسلامية التي أخذت تهدد الكيان الروماني المسيطر على المنطقة؛ فخرجت جيوش الروم بقوى رومانية وعربية تقدر بأربعين ألف مقاتل قابلها ثلاثين ألفًا من الجيش الإسلامي. انتهت المعركة بلا صدام أو قتال لأن الجيش الروماني تشتت وتبدد في البلاد خوفًا من المواجهة؛ مما رسم تغيرات عسكرية في المنطقة، جعلت حلفاء الروم يتخلون عنها ويحالفون العرب كقوة أولى في المنطقة. لذلك، حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالًا فحققوا انتصارًا للمسلمين دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة أيلة (مدينة العقبة حاليا على خليج العقبة الآسيوي).

وكتب الرسول ﷺ بينه وبينهم كتابًا يحدد ما لهم وما عليهم، وقد عاتب القرآن الكريم من تخلف عن تلك الغزوة عتابًا شديدًا، وتميزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأن الله حث على الخروج فيها -وعاتب وعاقب من تخلف عنها- والآيات الكريمة جاءت بذلك، كقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي» رواه مسلم في صحيحه.

وسميت أيضًا غزوة العُسْرة لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًّا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه.

قال تعالى في سورة التوبة عن تلك الغزوة: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117] فقد كانت غزوة عسرة بمعنى الكلمة.

وللغزوة أيضًا اسمٌ ثالث هو: الفاضحة، ذكره الزرقاني في كتابه «شرح المواهب اللدنية»: «وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله ﷺ والمسلمين».

وتقع تبوك شمال الحجاز، تبعد عن المدينة 778 ميلًا حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك. (1)

ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: «وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعًا وأجلبت معهم

1- انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو عبدالله المالكي.

لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء، فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه». [1]

ورغم عدم حدوث قتال بين المسلمين والروم في تلك الغزوة حيث الروم وحلفائهم من القبائل العربية إلا أن تلك الغزوة قد حققت أهدافها من إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعًا -مسلمهم وكافرهم على السواء- لأن قوة الروم كانت في اعتقاد العرب لا تقاوم، ولا تغلب، فكان لا بد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب وإظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالميًّا، مما مهد لطرد الروم من الشام فيما بعد في عهد الخليفة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وهذه الغزوة لم يشهدها الإمام علي رضي الله عنه حيث جعله الرسول ﷺ واليًا على المدينة المنورة، كما سيأتي شرح ذلك في الحديث اللاحق.

1- غزوة تبوك دروس وعبر، أمير بن محمد المدري - دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، د.عبدالرحمن الشجاع - دار الفكر المعاصر.

استخلاف علي رضي اللّه عنه على المدينة في غزوة تبوك

أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيَّ بعدي

روى البخاري في صحيحه بسنده عن سعد قال: سمعت إبراهيم بن سعد عن أبيه قال: النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «أما ترضَى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى».

وروى البخاري أيضًا بسنده عن شعبة عن الحكم عن مصعب بن سعد عن أبيه: أن رسول الله ﷺ، خرج إلى تبوك واستخلف عليًّا، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء، قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.

وروى مسلم أيضًا بسنده عن الحكم عن مصعب بن سعد بن وقاص قال: خلف رسول الله ﷺ على بن أبي طالب في غزوة تبوك، فقال: أتخلفني في النساء والصبيان، فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي.

إن استخلاف النبي ﷺ عليًّا ليس خاصا به وحده. بل خلف على المدينة كثيرين غير علي كابن أم مكتوم وعثمان بن عفان وغيرهما. إن بعض المنافقين قال: إنما خلفه لأنه يبغضه، فقال له النبي ذلك.[1]

ومعلوم من السيرة أن هذا الاستخلاف لم يكن خاصًّا بعلي، فقد استخلف النبي ﷺ على المدينة غيره عندما كان يخرج غازيًا أو حاجًّا أو معتمرًا، فقد استخلف في غزوة بدر: عبد الله ابن أم مكتوم، واستخلف في غزوة بني سليم: سباع بن عرفطة الغفاري، أو ابن أم مكتوم على اختلاف في ذلك، واستخلف في غزوة السويق: بشير بن عبد المنذر، واستعمل على المدينة في غزوة بني المصطلق: أبا ذر الغفاري وفي غزوة الحديبية: نميلة بن عبد الله الليثي كما استعمله أيضًا في غزوة خيبر، وفي عمرة القضاء استعمل: عويف بن الأضبط الديلي، وفي فتح مكة: كلثوم بن حصين بن عتبة الغفاري، وفي حجة الوداع: أبا دجانة الساعدي ذكر هذا ابن هشام في مواطن متفرقه من السيرة.

1- تاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير.

وهذا يبطل فهم الشيعة للحديث. إذ لو كان الأمر كذلك لم يجز استخلاف أحد غيره حتى يفهم الناس أن عليًّا هو الإمام دون غيره وجوبا. [1]

استخلاف هارون يختلف عن استخلاف علي. فإن العسكر كان مع هارون وإنما ذهب موسى لوحده. أما استخلاف علي فكان على النساء والصبيان في المدينة وكان العسكر كله مع النبي ﷺ.

ألم يقل عندما أجبروه على تولي الخلافة: «دعوني والتمسوا غيري... ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ولأن أكون لكم وزيرًا خيرًا من أن أكون عليكم أميرًا». [2]

وقال لمعاوية: «بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا الغائب أن يختار،، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين». [3]

ومن المعلوم أن هارون لم يل أمر بني إسرائيل بعد موسى وإنما يوشع بن نون صاحبه في طلب الخضر مثلما ولي أمور المسلمين بعد نبينا صاحبه في الغار وهو أبوبكر الصديق.

إن هذا يبين أن عليًّا لن يكون الإمام من بعده لوجود الاستثناء (إلا أنه لا نبي بعدي). ومعلوم أن عليًّا لن يكون نبيًّا من بعده فبقي أن يكون إمامًا من بعده والواقع يشهد بخلاف ذلك وإلا لزم الطعن في كلام النبيﷺ يطعن به يهودي أو نصراني. إذ أن عليًّا لم يكن إمامًا من بعده.

فإما أن يكون هذا وعدًا من النبي ﷺ وهذا الوعد لم يتحقق ويكون علي نفسه قد أسهم في إبطال قول النبي ﷺ عمليا بمبايعته أبا بكر وعمر وعثمان. وإما أن يكون من تحميلات الشيعة للنصوص من المعاني الباطلة التي لا يحتملها النص.

1- انظر السيرة النبوية لابن هشام.

2- نهج البلاغة 3 : 7، وانظر كتاب الإرشاد للمفيد 31 ط: الأعلم]. أو 143 طبعة حيدرية.

3- نهج البلاغة 181 : 182.

هدم الإمام علي رضي الله عنه صنم الفلس عام 9 هـ

جاء في السيرة الحلبية (علي بن برهان الدين الحلبي) عن سرية الإمام علي رضي الله عنه إلى قبيلة طيء وهدم صنم الفلس.

بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا معه راية سوداء ولواء أبيض إلى هدم الفلس والغارة عليهم، فشنوا الغارة عليهم مع الفجر، فهدموا الفلس وأحرقوه، واستاقوا النعم والشاء والسبي، وكان في السبي أخت عدي ابن حاتم الطائي، واسمها سفَّانة بفتح السين المهملة وتشديد الفاء وبعد الألف نون مفتوحة ثم تاء تأنيث، والسفانة في الأصل: هي الدرة، وهذه أسلمت رضي الله تعالى عنها. قال بعضهم: ولا يعرف لحاتم بنت إلا هذه، ووجدوا في خزانة الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب، وهي: الرسوب، والمخذم، واليماني، وثلاثة أدراع. وجعل الرسوب والمخذم صفيا لرسول الله ﷺ، ثم صار إليه الثالث الذي هو اليماني.

قال: ومر النبي ﷺ بأخت عديٍّ فقامت إليه، وكانت امرأة جذلة: أي ذات وقار وعقل، وكلمته ﷺ أن يمن عليها، فمنّ عليها، فأسلمت رضي الله تعالى عنها، وخرجت إلى أخيها عدي فأشارت إليه بالقدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عليه كما سيأتي في الوفود.

ويذكر أنها قالت له ﷺ: «يا محمد أرأيت أن تخلي عنا، ولا تشمت بنا أحياء من العرب فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيىء، فقال لها النبي ﷺ: يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق».

وفي لفظ: «قالت له ﷺ: يا محمد أرأيت أن تمنّ عليّ ولا تفضحني في قومي فإني

بنت سيدهم، إن أبي كان يطعم الطعام، ويحفظ الجوار، ويرعى الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العريان، ولم يردّ طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها ﷺ: هذه مكارم الأخلاق حقا، ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق».

وفي رواية: «أنها قالت: يا رسول الله، هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك. قال: ومن وفدك؟ قالت عدي بن حاتم، قال: الفارّ من الله ورسوله».

أي لأنه هرب لما رأى الجيش كما سيأتي في الوفود «قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني حتى إذا كان من الغد قلت له كذلك وقال لي مثل ذلك، ففي اليوم الثالث أشار إليّ رجل خلفه بأن كلميه فكلمته. فقال رسول الله ﷺ: قد فعلت فلا تعجلي حتى يجيء من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك، فآذنيني أي أعلميني وسألت عن الرجل الذي أشار عليّ بكلامه، فقيل لي إنه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قالت: فصبرت حتى قدم عَليّ من أثق به، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة قالت فكساني رسول الله ﷺ، وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي». (1)

وقد استدل أهل العلم بتحريم الأصنام والصور ذوات الأرواح بالأحاديث الصحيحة الآتية:

في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم».

وفيهما عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصوِّرون».

وفيهما عن سعيد بن أبي الحسن قال: «جاء رجل إلى ابن عباس فقال إني رجل أصور هذه التصاوير فافتني فيها، فقال له: ادن مني؛ فدنا منه، ثم قال: ادن مني؛ فدنا

1- وكانت تلك السرية في شهر ربيع الأول سنة 9 هـ، وبلاد طيء هي محلة حاتم الطائي الشهير بالجود والكرم في الجاهلية وهي في شمال جزيرة العرب وكانوا يعتنقون المسيحية وتنتشر قبيلة طيء في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية من محافظة الحسكة السورية.

حتى وضع يده على رأسه، قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس تعذبه في جهنم» فإن كنت لا بد فاعلا فاجعل الشجر وما لا نفس له.

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن من أشد الناس عقابًا يوم القيامة الذي يشبهون بخلق الله».

3 الإمام علي رضي الله عنه داعيًا وقاضيًا ومفسِّرًا للقرآن الكريم وفقيهًا

- بعثة الإمام علي رضي الله عنه إلى اليمن داعيًا وقاضيًا في عصر النبي ﷺ.
- زواجه من السيدة فاطمة رضي الله عنها.
- علي رضي الله عنه مع القرآن والسنة النبوية.
- الإمام علي رضي الله عنه مفسِّرًا للقرآن الكريم.
- من فقه الإمام علي رضي الله عنه.

بعثة الإمام علي رضي اللّه عنه إلى اليمن في عهد رسول اللّه ﷺ

روى الإمام البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن قال ثم بعث عليًّا بعد ذلك مكانه فقال مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل فكنت فيمن عقب معه قال فغنمت أواقي ذات عدد زاد الإسماعيلي ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا علي وصفنا صفًّا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعًا، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدًّا، ثم رفع رأسه وقال : السلام على همدان.

يروي صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ الحافظ ابن عبدالبر أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن ليدعوهم فبقي هناك ستة أشهر فلم يجبه أحد فبعث بعلي إلى اليمن رضي الله عنه إلى اليمن فأسلمت على يديه قبيلة همدان كلها، وتتابع بعدها أهل اليمن في الدخول إلى الإسلام؛ ولم تكن هذة المرة الأخيرة التي يذهب فيها علي إلى اليمن حيث ولاه رسول الله ﷺ قضاء اليمن لما عرف عنه من عدل وحكمة في القضاء، فنصحه ودعا له، ثم أرسله إلى هناك سنة 8 هـ ومكث به عامًا واحدًا فقط. كما ساهم في فض النزاعات وتسوية الصراعات بين بعض القبائل.[1]

وأكثر المؤرخين وأهل السير ذكروا أن بعث علي رضي الله عنه، إلى اليمن كان مرتين سنة ثمان وسنة عشر وممن صرح به ابن هشام في سيرته فقال: وغزوة علي بن أبي طالب إلى اليمن غزاها مرتين؛ وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى: ثم سرية علي

1- انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ابن عبدالبر.

ابن أبي طالب إلى اليمن يقال مرتين إحداهما سنة عشر فذكرها وحدها ولم يذكر غزوة سنة ثمان وصرح به دحلان في سيرته والذي يلوح لي أن ذلك كان ثلاث مرات سنة ثمان وما بينها وبين سنة تسع وسنة عشر.

وذلك بعد فتح مكة وغزوة الطائف بعثه إلى همدان ليدعوهم إلى الإسلام فأسلمت همدان كلها في يوم واحد قال المفيد في الإرشاد: ومن ذلك ما أجمع عليه أهل السِّيَر أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام وأنفذ معه جماعة من المسلمين فيهم البراء بن عازب رضي الله عنه وأقام خالد على القوم ستة أشهر يدعوهم فلم يجبه أحد منهم فساء ذلك رسول الله ﷺ فدعا أمير المؤمنين وأمره أن يقفل خالدا ومن معه وقال له إن أراد أحد ممن مع خالد أن يعقب معك فاتركه قال البراء فكنت ممن عقب معه فلما انتهينا إلى أوائل أهل اليمن وبلغ القوم الخبر تجمعوا له فصلى بنا علي الفجر ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ على القوم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلها في يوم واحد وكتب بذلك أمير المؤمنين إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ كتابه استبشر وابتهج وخر ساجدا شكرا لله تعالى ثم رفع رأسه وجلس وقال السلام على همدان ثم تتابع بعد إسلام همدان أهل اليمن على الإسلام.

وقال ابن الأثير أنه قال السلام على همدان ثلاثا وفي السيرة الحلبية كان رسول الله ﷺ أرسل خالد بن الوليد إلى اليمن لهمدان يدعوهم إلى الإسلام قال البراء فكنت ممن خرج مع خالد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالدا ويكون مكانه فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا وصلى بنا علي ثم صفنا صفًّا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ بإسلامهم فأسلمت همدان جميعًا... الحديث.(1)

جاء في السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان الحسيني (1231 هـ / 1816م - 1304هـ / 1886م): إمام الحرمين، روينا عن أبي داود وغيره من حديث علي قال

1- الكامل في التاريخ - ابن الأثير.

بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقلت يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء فوضع يده على صدري فقال اللهم ثبت لسانه واهد قلبه وقال يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر فانك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء.

قال علي رضي الله عنه: والله ما شككتُ في قضاء بين اثنين.

وهذا يدل على أن بعثه كان للقضاء لا للغزو والحرب والفتح لقوله تبعثني إلى قوم وأنا حديث السن لا أبصر القضاء فإن هذا صريح في أنه بعثه للقضاء والدعوة.

ذكر صاحب المفيد في الإرشاد: أنه لما أراد رسول الله ﷺ تقليده قضاء اليمن وإنفاذه إليهم ليعلمهم الأحكام ويبين لهم الحلال والحكام ويحكم فيهم بأحكام القرآن قال له أمير المؤمنين تندبني يا رسول الله للقضاء وأنا شاب لا علم لي بكل القضاء.

فقال له ادن مني.

فدنا منه فضرب على صدره بيده وقال اللهم اهد قلبه وثبت لسانه.

قال: فما شككت في قضاء بين اثنين بعد ذلك المقام.

ولما استقر به المقام باليمن ونظر فيما ندبه إليه رسول الله ﷺ من القضاء والحكم بين المسلمين رفع إليه رجلان الخ فهذا صريح في أن بعثه كان للقضاء والحكم وقد رويت عنه قضايا كثيرة قضاها باليمن وذلك يدل على بقائه باليمن مدة طويلةكان يتعاطى فيها القضاء لا أنه جاء غازيًا ولم يذكروا تاريخ هذا البعث ويمكن كونه بين سنة ثمان وتسع فإنه بعد فتحها يناسب أن يبعث إليها من يعلمهم أحكام الإسلام ويقضي بينهم أما سنة عشر فقد خرج إليها غازيًا ومحاربًا ثم عاد إليها في حجة الوداع ثم حصلت وفاة النبي ﷺ

زواج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

في شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة تزوج علي رضي الله عنه من بنت ابن عمه السيدة فاطمة رضي الله عنهما، بنت النبي ﷺ ولم يتزوج بأخرى في حياتها. وأنجب منها الحسن والحسين في السنتين الثالثة والرابعة من الهجرة على التوالي، كما أنجب زينب وأم كلثوم ابنتي علي رضي الله عنهم أجمعين.

وُلدت فاطمة رضي الله عنها سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ،[1] وأنكح رسول الله ﷺ فاطمة علي بن أبي طالب بعد وقعة أحد، وكان سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصفًا، وكانت سن عليّ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر.

وكانت فاطمة رضي الله عنها أصغر بنات رسول الله ﷺ، حيث كانت زينب الأولى ثم الثانية رقية ثم الثالثة أم كلثوم ثم الرابعة فاطمة الزهراء، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا منها؛ فإن الذكور من أولاده ماتوا صغارًا، وأما البنات: فإن رقية رضي الله عنها ولدت عبد الله بن عثمان فتوفي صغيرًا، وأما أم كلثوم فلم تلد، وأما زينب رضي الله عنها فولدت عليًّا ومات صبيًّا.

والسيدة فاطمة رضي الله عنها مناقبها غزيرة، وكانت رضي الله عنها صابرة ديّنة، خيرة، قانعة، شاكرة لله عز وجل، وقد غضب لها النبي ﷺ لما بلغه أن عليًّا رضي الله عنه قد عرض عليه خطبة بنت أبي جهل.

فعن المِسور بن مخرمة قال:

«إن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحًا ابنة أبي جهل. فقام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول: (أما بعد فإني أنكحت أبا العاص بن

1- وفي رواية أخرى أنها ولدت قبل البعثة النبوية بخمس سنوات وهو الأرجح؛ وذهب ابن عبدالبر في الاستيعاب والحاكم في المستدرك أنها ولدت بعد عام من البعثة النبوية أي وعمر النبي ﷺ إحدى وأربعون سنة، انظر الذرية الطاهرة النبوية - لمحمد بن أحمد الدولابي.

الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوؤها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد، فترك علي الخطبة). أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وفي سير أعلام النبلاء، وسنن الترمذي، عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسنا وحُسينًا فجللهم بكساء، وعلي خلف ظهره فجلله بكساء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك، وأنت على خير.

وعن زيد بن أرقم، أن رسول الله ﷺ، قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين.

«أنا حرب لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم» (أخرجه الترمذي في سننه).

يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه قصة زواجه فيقول: خطبت فاطمة إلى رسول الله، فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة خُطبت إلى رسول الله؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله فيزوّجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟! فقالت: إنك إن جئت رسول الله زوّجك. فوالله ما زالت ترجّيني حتى دخلت على رسول الله، وكانت لرسول الله جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أُفحمت، فوالله ما أستطيع أن أتكلم، فقال: «ما جاء بك، ألك حاجة؟» فسكت، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» قلت: نعم. قال: «وهل عندك من شيء تستحلها به؟» فقلت: لا -والله- يا رسول الله. فقال: «ما فعلت بالدرع التي سلحتكها». فقلت: عندي والذي نفس عليّ بيده، إنها لحطمية ما ثمنها أربعمائة درهم. قال: «قد زوجتك، فابعث بها، فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله». (أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير).

كانت فاطمة -رضي الله عنها- من قلب رسول الله بمكان؛ إذ كانت من أحب الناس إليه، كيف لا وهي بنت من رزقه الله حبها، وهي خديجة رضي الله عنها، وكانت أشبه الناس بها، فلما ماتت كانت تقوم مقام أمها في تخفيف الآلام والأحزان عنه، وتساعده في شؤون حياته ومعيشته، حتى بعد زواجه وزواجها رضي الله عنها.

وكانت -رضي الله عنها- تستعين به وتستشيره في قضاء حوائجها، لعلمها بأنه سيخفف عنها ويدلها على الخير؛ وفي ذلك يروي زوجها علي فيقول: شكت فاطمة -رضي الله عنها- ما تلقى في يدها من الرَّحى، فأتت النبي تسأله خادمًا فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته.

قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت أقوم فقال: «مكانك». فجلس بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، ثم قال: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما فكبرا ثلاثًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهذا خير لكما من خادم». (1)

أورد الترمذي في سننه من كتاب الفضائل عن حذيفة، قال:

«سألتني أمي متى عهدك (تعني بالنبي ﷺ)؟ فقلت: ما لي به عهد منذ كذا وكذا. فنالت مني، فقلت لها: دعيني آتي النبي ﷺ، فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي ولك، فأتيت النبي ﷺ، فصليت معه المغرب، فصلى حتى صلى العشاء، ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي، فقال: من هذا، حذيفة؟ قلت: نعم، قال: ما حاجتك، غفر الله لك ولأمك؟ قال: إن هذا ملك، لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه أن يسلم علي، ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». (أخرجه الترمذي في سننه).

وفي الحديث الصحيح عند الترمذي، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسيا امرأة فرعون» [أخرجه الترمذي في سننه].

1- أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وفي مشهد وفاة النبي ﷺ تروي كتب السيرة النبوية، كان لها هذا الموقف المؤثر، يقول أنس: لما تغشَّى رسول الله الكرب، كان رأسه في حجر فاطمة، فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرباه يا أبتاه! فرفع رأسه وقال: «لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة».

قال كُتَّاب السيرة فيما نقل:

«إن هذه السيدة الجليلة كانت كثيرة الشبه بأبيها رسول الله ﷺ»

يعني أكثر بناته شبهًا به السيدة فاطمة رضي الله عنها.

وعن عائشة بنت طلحة، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت:

«ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلًّا، وقال الحسن حديثًا وكلامًا، ولم يذكر الحَسن السمت والهدي والدل برسول الله ﷺ من فاطمة كرم الله وجهها، كانت إذا دخلت عليه، قام إليها، فأخذ بيدها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها، قامت إليه، فأخذت بيده، فقبلته، وأجلسته في مجلسها» [أخرجه أبو داود في سننه].

وحين توفي رسول الله وجاءت تطلب إرثها؛ فعن أبي الطفيل قال: جاءت فاطمة -رضي الله عنها- إلى أبي بكر، فقالت: يا خليفة رسول الله، أنت ورثت رسول الله أم أهله؟! قال: بل أهله. قالت: فما بال سهم رسول الله؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطعم الله نبيًّا طعمة ثم قبضه جعله للذي يقوم بعده»، فرأيت أن أردّه على المسلمين. فقالت: أنت ورسول الله أعلم.

ماتت رضي الله عنها لثلاث ليال خلون من شهر رمضان بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ بستة أشهر وهي ابنة تسع وعشرين سنة وكانت أول أهله لحوقًا به، زوجها علي رضي الله عنه. (1)

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

الإمام علي رضي الله عنه مع القرآن الكريم والسنة النبوية

عاصر علي رضي الله عنه نزول القرآن الكريم منذ أول أيامه إلى آخر ما نزل على النبي ﷺ، فقد تربى كما ذكرنا في بيت النبوة وتزوج من ابنة ابن عمه فاطمة بنت النبي ﷺ، وكان يصف القرآن الكريم فيقول: كتاب الله فيه نبأ مَن قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو الحبل المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عَدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم. (1)

وكان رضي الله عنه يعلم أسباب نزول الآيات وأماكن نزولها على رسول الله ﷺ، ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته.

فقد روى عنه أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلبًا عقولًا ولسانًا صادقًا ناطقًا» (2)، وقد قال رضي الله عنه: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم نهار، وفي سهل أم في جبل» (3)، ويرى ابن عبد البر أن عليًّا رضي الله عنه كان ممن جمع القرآن الكريم على عهد رسول الله وهو حي. (4)

وقد نزلت بعض الآيات التي خلدت بعض المآثر لأمير المؤمنين وبعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

1- انظر فضائل القرآن لابن كثير.

2- الطبقات الكبرى، لابن سعد - تاريخ الخلفاء، للسيوطي. وقوله: «وعلى من نزلت، أي: سبب نزول الآية ومن تقصد».

3- الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي.

4- الاستيعاب، في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر.

منها قول تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: 19 - 23].

روى البخاري بسنده عن عليٍّ بن أبي طالب أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة»، وقال قيس بن عبادة: فيهم نزلت «هذان خصمان اختصموا في ربهم» قال: هم الذين تبارزا يوم بدر، حمزة وعليٌّ وأبو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.(1)

وهو أحد من نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

وذلك في وفد نجران حينما جادلهم النبي ﷺ في عيسى ابن مريم، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى أمه الطاهرة، فأجابته، وكذبهم في أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ودعاهم إلى الإسلام، فأبوه فدعاهم إلى المباهلة، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: ولما نزلت: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله عليًّا، وفاطمة، وحسنًا وحسينًا رضي الله عنهم فقال: «اللهم هؤلاء أهلي». (2)

وفي الصحيح أن رجلًا قال: لا أبالي ألا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، فقال على بن أبي طالب: «الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله»، فقال عمر بن الخطاب «لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، ولكن إذا قضيت

1- رواه البخاري في صحيحه.

2- رواه مسلم في صحيحه.

الصلاة سألته عن ذلك، فسأله، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ [التوبة: 19 - 22] [1].

1- الفتاوى للإمام ابن تيمية 8 / 166.

الإمام علي رضي اللّه عنه مفسّرًا للقرآن الكريم

كان رضي الله عنه من كبار علماء الصحابة وأهل زمانه، وليس هذا بالأمر المستغرب فقد تربى في بيت النبويّة صغيرًا، وتعلم من النبي ﷺ ونقل عنه كثيرًا من العلم النبوي فمما ورد عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد - مدافن أهل المدينة - فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانَها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة»، فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فيصير إلى عمل أهل الشقاوة.

فقال: «اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فسييسرون إلى عمل أهل الشقاوة»، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 5 - 10]، وفي رواية: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة سيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة سيصير إلى عمل أهل الشقاوة. (1)

فقد أخبر النبي ﷺ بما دل عليه القرآن الكريم من أن الله - سبحانه وتعالى - تقدم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاوة كما تقدم علمه وكتابه بغير ذلك من أحوال العباد وغيرهم(2)، وقد بين النبي ﷺ أن ذلك لا ينافي

1- البخاري رقم 1362 ورقم 6605.
2- الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج8.

وجود الأعمال التي بها تكون السعادة أو الشقاوة، وأن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة، وقد نهى أن يتكل الإنسان على القدر السابق ويدع العمل، ولهذا كان من اتكل على القدر السابق وترك ما أُمر به من الأعمال هو من الأخسرِين أعمالًا، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا.

ومن تفسيره لقوله: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: 29]

قال رضي الله عنه: «إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه في الأرض».

ثم قرأ ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: 29].

وسئل عن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: 2]، قال: الخشوع في القلب، وأن تلين كنفك للمرء المسلم ولا تلتفت في صلاتك. (1)

وسئل عن قول الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: 67]. قال: خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين، فبشر بالجنة فذكر خليله المؤمن، قال: فيقول: يا رب! إن خليلي فلانًا كان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر، فيأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويخبرني أني ملاقيك، فلا تضله بعدي واهده كما هداني، وأكرمه كما أكرمني، فإذا مات جمع بينهما في الجنة، ويقال لهما: ليثن كل واحد منكما على صاحبه فيقول: اللهم كان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر، فيأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويخبرني أني ملاقيك، فنعم الأخ والخليل والصاحب، قال: ثم يموت أحد الكافرين، فيبشر بالنار، فيذكر خليله، فيقول: اللهمّ خليلي فلان كان يأمرني بالشر، وينهاني عن الخير، ويأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويخبرني أني غير ملاقيك، اللهمّ فأضله كما أضلني، فإذا مات جمع بينهما في النار، فيقال ليثن كل واحد منكما على صاحبه قال فيقول: اللهمّ كان يأمرني بالشر

1- انظر كتاب الزهد: لابن المبارك.

وينهاني عن الخير ويأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويخبرني أني غير ملاقيك، فبئس الأخ والخليل والصاحب.[1]

ومن الأصول والأسس التي سار عليها أمير المؤمنين على في استنباط الأحكام من القرآن الكريم وفهم معانيه أنه كان يأخذ بظاهر الآيات فكان يقول: «إن الله لم يك نسيًّا». [2]

وكان التزامه بظاهر الآيات حيث لا يرى قرينة تقتضي صرفه عن ظاهره، فإنه كان يتوضأ لكل صلاة ويقرأ هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ...﴾ [المائدة: 6][3]؛ لأن ظاهرها يدل على الوضوء عند إرادة الصلاة كل مرة، وأوجب الصوم على المقيم إذا أدركه الصوم ثم سافر، فقال: من أدركه الصوم وهو مقيم ثم سافر لزمه الصوم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185][4].

وحمل القرآن الكريم على ظاهره في مكان آخر حيث حكم ببراءة امرأة اتُّهمت بالزنا لأنها ولدت بعد ستة أشهر من زواجها، فجمع بين قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233] وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15]. فقال: الحمل ستة أشهر والفصال أربعة وعشرون شهرًا[5]، أي أنه طرح مدة الرضاعة وهي السنتان من مجموع مدة الرضاعة والحمل وهي ثلاثون شهرًا فبقيت ستة أشهر، فجمع بين ظاهر كلتا الآيتين وحكم بهما. [6]

وكان رضي الله عنه في تفسيره القرآن أيضًا يقوم بحمل المجمَل على المفسَّر،

1- المرجع السابق.
2- مصنف عبدالرزاق.
3-تفسير القرطبي .
4- فقه الإمام علي د. أحمد محمد طه البابايساني، دار الكتب العلمية، بيروت.
5- مصنف عبدالرزاق، وفقه الإمام علي، أحمد محمد طه الباليساني.
6- فقه الإمام علي، مصدر سابق.

فالمجمل: هو ما خفي مراده بحيث لا يدرك إلا ببيان يرجى، والمفسر: هو ما ظهر المراد منه دون الحاجة إلى بيان[1]، وقد حمل مجمل القرآن في قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95] على مفسره في مواضع أخرى، حيث ورد أنه سأل رجل عليًّا عن الهدى مما هو؟ فقال: من الثمانية أزواج، فكأن الرجل شك، فقال له عليٌّ: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل سمعت قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]. قال: نعم، قال: فهل سمعته يقول: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: 28]، وقال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 142] قال: فسمعت الله يقول: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143 - 144]. قال: نعم، فهل سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]. فقال: الرجل: نعم، قال: فقتلت ظبيًا فماذا على؟ قال: هديًا بالغ الكعبة.[2]

وكذلك أخذ بقاعدة حمل المطلق على المقيَّد، فالمطلق: هو ما دل على الماهية بلا قيد، والمقيد هو ما قيد لفظا بأي قيد، [3] ولقد حمل أمير المؤمنين على مطلق القرآن على مقيده في استنباط الحكم، إذ حمل مطلق الأمر بالقطع في آية السرقة على مقيده في آية المحاربة بعدم القطع إلا مرتين، وعدم قطع أكثر من يد ورجل عند تكرار السرقة، فإذا سرق مرة قطعت يده اليمنى، وإذا سرق قطعت رجله اليسرى عند على، فإن زاد وسرق مرة ثالثة ورابعة لم يزد على ذلك، ويعزره بدل القطع لأنه حمل قوله

1- مرآة الأصول في شرح مرقاة الوصول.
2- الدر المأثور، جلال الدين السيوطي.
3- جمع الجوامع بشرح المحلى، وفقه الإمام علي.

تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: 38] على آية المحاربة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ [المائدة: 33]. وقال: إن الله لم يزد على قطع يد ورجل في آية المحاربة، ولذلك كان يعاقب مثل هذا بالسجن.(1) فعن الشعبي قال: كان عليٌّ لا يقطع إلا اليد والرجل، وإن سرق بعد ذلك سجن ونكل، وإنه كان يقول: إني لأستحي من الله أن لا أدع له يدًا يأكل بها ويستنجى. (2)

وكان رضي الله عنه على علم بالناسخ والمنسوخ في القرآن: فالنسخ، هو رفع الحكم الشرعي بخطاب متأخر، ويقول الزركشي: قال الأئمة: ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، (3) وعلى هذا المعنى يؤكد أمير المؤمنين عليُ بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندما عاتب قاصًّا بقوله: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت. (4)

ومن منهج علي رضي الله عنه في فهم القرآن الكريم النظر في لغة العرب، كما فهم من قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: 228] أن المراد بالأقراء الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، (5) لذا قال عليٌّ رضي الله عنه عن المطلقة: لا تحل لزوجها الرجعة عليه حتى تغتسل من الحيضة الثالثة(6) والقروء في كلام العرب جمع قرء، وهو الحيض، والقرء أيضًا الطهر، وأقرأت المرأة: حاضت، وأقرأت: طهرت. (7)

1- فقه الإمام علي، ومصنف عبدالرزاق.
2- المرجع السابق. وبقوله: قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى.
3- البرهان في علوم القرآن للزركشي.
4- كتاب العلم لأبو خيثمة زهير بن حرب النسائي - تحقيق الألباني وقال إسناده صحيح.
5- تفسير ابن كثير. وهذا هو مذهب الحنفية.
6- الدر المنثور، للسيوطي.
7- الصحاح، للجوهري (1 / 64) مادة قرأ.

ومن ذلك فهمه رضي الله عنه من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43]، اللمس هو الجماع فقد قال: اللمس هو الجماع، ولكن الله كنى عنه،[1] وحمل الناس المس في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: 237] على الخلوة، فقال: المراد بالمس هنا الخلوة،[2] فأوجب الصداق كله بالخلوة،[3] وقد قال: إذا أرخى سترًا على امرأته وأغلق بابًا وجب الصداق والعدة. [4]

وكان يفسر القرآنَ بالقرآنِ، ومن ذلك ما فهمه من قوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141] أن ذلك يكون يوم القيامة، اعتمادًا على قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [النساء: 141]. وذلك لما جاءه رجل يسأله كيف هذه الآية﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 5]، فقال علي رضي الله عنه: ادنه، فالله يحكم بينكم يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا[5]، ومنه ما فهمه من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: 5] بأنه السماء لما رواه ابن جرير وذكره ابن كثير عن علي ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء. قال سفيان: ثم تلا...﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32].

ومن ذلك أيضًا ما فهمه من قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، معتمدًا في ذلك على نص من حديث رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا»،[6] ومن هذا الباب أيضًا ما ورد في فهمه

1-فقه الإمام علي، والفصول في الأصول، للجصاص. وبه قال الحنفية.
2- الفصول في الأصول.
3- فقه الإمام علي.
4- مصنف ابن أبي شيبة (4/ 234)، وفقه الإمام علي.
5- تفسير ابن جرير الطبري، وإسناده صحيح.
6- صحيح مسلم.

لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31]. فعن سهل بن أبي خيثمة عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد – مسجد الكوفة– وعليٌّ رضي الله عنه يخطب الناس على المنبر يقول: يا أيها الناس، الكبائر سبع، فأصاخ الناس، فأعادها ثلاث مرات، ثم قال: لم لا تسألوني عنها؟! قالوا: يا أمير المؤمنين ما هي؟ قال: «الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعرب[1] بعد الهجرة[2]. وهذا الفهم مبني على حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «اجتنبوا السبع الموبقات»[3]. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[4]، وهذا يدخل ضمن منهج أمير المؤمنين عليّ في تفسير القرآن الكريم بالسنة.

ومن تفسير أمير المؤمنين عليّ لبعض آيات القرآن نذكر منها:

عن الثوري عن حبيب بن أبي صابت عن أبي الطفيل قال: سمعت ابن الكوّاء يسأل عليًّا بن أبي طالب عن ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ قال: الرياح، وعن ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ قال: السحاب، وعن ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ قال: السفن، وعن ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة[5]، وصححه الحاكم من وجه آخر عن أبي الطفيل.

وقد أطنب الطبري في تخريج طرقه إلى علي[6]، وأخرجه عبد الرزاق من وجه آخر

1- أن يهاجر الرجل، حتى إذا وقع سهمه في الفيء، ووجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه، فرجع أعرابيًّا كما كان.
2- تفسير الطبري.
3- الموبقات: جمع موبقة وهي: المهلكة.
4- رواه البخاري.
5- انظر: الخلافة الراشدة، ليحيى اليحيى.
6- الدر المنثور والمستدرك، وتفسير الطبري.

عن أبي الطفيل قال: شهدت عليًّا وهو يخطب وهو يقول: سلوني..وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل. فقال ابن الكواء- وأنا بينه وبين عليٍّ وهو خلفي - فقال: ما الذاريات ذروًا؟ فذكر مثله وقال فيه: ويلك سل تفقهًا ولا تسأل تعنتًا وفيه سؤال عن أشياء غير هذا. (1)

وعن تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: 15]: قال: هن الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا تُرَى. (2)

1- الخلافة الراشدة.

2- انظر: الخلافة الراشدة، ليحي اليحيى.

الإمام علي رضي اللّه عنه والسنة النبوية متبعًا وراويًا

كان رضي الله عنه شديد الحرص على الاقتداء بالنبي ﷺ، ومما دونته كتب السنة في ذلك:

عن عبد الرزاق الصنعاني: أخبرني من شهد عليًّا حين ركب، فلما وضع رجله في الركاب، قال: بسم الله، فلما استوى قال: الحمد لله، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد ثلاثًا وكبر ثلاثًا، ثم قال: اللهم لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، قال، فقيل: ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل مثل ما فعلت، وقال مثل ما قلت، ثم ضحك، فقلنا: ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: العبد - أو قال: عجبت للعبد- إذا قال: لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو. (1)

عن عطاء بن السائب عن زاذان: أن عليًّا بن أبي طالب شرب قائمًا، فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه، فقال: ما تنظرون؟ إن أشرب قائمًا، فقد رأيت النبي ﷺ يشرب قائمًا، وإن أشرب قاعدًا، فقد رأيت النبي ﷺ يشرب قاعدًا. (2)

عن عبد خير قال: علمنا عليّ وضوء رسول الله ﷺ، فصب الغلام على يديه حتى أنقاهما، ثم أدخل يده في الركوة، فمضمض واستنشق، وغسل وجهه ثلاثًا ثلاثًا، وذراعيه إلى المرفقين ثلاثًا ثلاثًا، ثم أدخل يده في الركوة فغمز أسفلها بيده ثم أخرجها فمسح بها الأخرى، ثم مسح بكفيه رأسه مرة، ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاثًا ثلاثًا، ثم اغترف هنّية من ماء بكفه فشربه، ثم قال: هكذا كان رسول الله يتوضَّأُ. (3)

1- مسند أحمد، حسن لغيره.

2- رواه أحمد في مسنده.

3- مسند أحمد صحيح لغيره، وإسناده حسن، عن عبدالملك بن سلع الهمداني عن عبد خير.

عن عبد الله بن حنين عن أبيه، قال: سمعت عليًّا بن أبي طالب يقول: نهاني رسول الله ﷺ عن تختم الذهب، وعن لبس القسي والمعصفَر، وقراءة القرآن وأنا راكع، وكساني حلة من سِيرَاءَ فخرجت فيها، فقال: يا عليُّ، إني لم أكسكها لتلبسها، قال: فرجعت بها إلى فاطمة، فأعطيتها ناحيتها فأخذت بها لتطويها معي، فشققتها بثنتين قال: فقالت: تربت يداك يا ابن أبي طالب، ماذا صنعت؟ قال: فقلت لها: نهاني رسول الله ﷺ عن لبسها، فالبس واكسي نساءك. [1]

ومن الأحاديث التي رواها الإمام علي رضي الله عنه عن رسولنا ﷺ:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب في الدنيا ذنبًا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنبًا في الدنيا فستر الله عليه، وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه». [2]

عن عليٍّ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا، وأمَّر عليهم رجلًا، فأوقد نارًا، فقال: ادخلوها! فأراد ناس أن يدخلوها، وقال آخرون: إنما فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة». وقال للآخرين قولًا حسنًا، وقال: لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»[3]، والحديث يبين بأن الطاعة للحكام مقيدة بطاعة الله ورسوله، والطاعة المطلقة ليست لأحد إلا لله ورسوله ﷺ.

دخل أبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري على عليِّ بن أبي طالب، فقال له عليٌّ: أنت الذي تقول: «لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف ممن هو حيٌّ اليوم»، والله إن رخاء هذه الأمة بعد مائة عام. [4]

1- مسند أحمد، إسناده صحيح.

2- مسند أحمد، إسناده صحيح.

3- مسند أحمد، إسناده صحيح.

4- مسند أحمد، إسناده قوي.

عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بالحرة بالسقيا التي كانت لسعد بن أبى وقاص، قال رسول الله ﷺ: «ائتوني بوَضوء»، فلما توضأ قام فاستقبل القبلة، ثم كبر، ثم قال: «اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك دعا لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة، مع البركة بركتين». [1]

عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين»[2]. والحديث يرشد إلى ضرورة التعلق بالله وحده والاعتماد عليه والالتجاء إليه، فلا يكشف الكرب إلا هو سبحانه، ولا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الذي خلقه، فلا ملجأ من الله إلا إليه، ففيه إرشاد وتعليم إلى كل مسلم بأن يعتمد على الله في كل أحواله وشأنه.

وقد ذُكر عليٌّ عند عائشة، فقالت: أما أنه أعلم من بقي في السنة،[3] ومع ذلك فقد روى عن النبي ﷺ خمسمائة وستة وثمانين حديثًا.[4]

رغم انشغاله بالقضاء والإمارة والحروب التي جعلته لا يتفرغ للفتيا وعقد حلقات الدروس التي كانت سببًا في انتشار عمل بعض الصحابة، كعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس.

وكذلك ظهور أهل الأهواء والبدع من الذين أفرطوا فيه والذين فرطوا به كان سببًا في كثرة الكذب عليه، لذلك بذل العلماء جهدهم في معرفة صحة الطرق الموصلة إليه.

وكثرة الفتن في زمانه وانشغال بعض الناس بها حال دون ثقته رضي الله عنه بمن يضع فيه علمه، إذا روي عنه أنه قال: إن هاهنا علمًا لو أصبت له حَمَلَةً.[5]

1- مسند أحمد، إسناده صحيح.
2- مسند أحمد، وهو حديث صحيح.
3- الطبقات، لابن سعد.
4- تاريخ الخلفاء، للسيوطي.
5- فقه الإمام علي، وأعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية.

وكان رضي الله عنه حذرًا في روايته للحديث ويخشى الكذب على النبي ﷺ لقوله ﷺ: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».[1]

وورد عنه أنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله،[2] وقد روى عليٌّ رضي الله عنه عن أبى بكر وعمر والمقداد بن الأسود وزوجته فاطمة.[3]

عن أبى الطُّفَيْل قال: قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله ﷺ. فقال: ما أسر إلى شيئًا كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، يعني المنار،[4] ففي قوله ﷺ: لعن الله: اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، قوله: من ذبح لغير الله: يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي أو ملك، أو جنى أو غيرهم، فلو كانت هذه الأمور هينة في دين الله لما وصلت إلى درجة يستحق فاعلها اللعن من رسول الله ﷺ.

عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». [5]

عن علي أن العباس بن عبد المطلب سأل النبي ﷺ في تعجيل صدقته قبل أن تحل فرخص له في ذلك. [6]

عن علي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله يوقظ أهله في العشر الأواخر، ويرفع المئزر. [7]

1- صحيح سنن ابن ماجه، (1 / 13) وقال الألباني: صحيح.
2- صحيح البخاري.
3- انظر: أسمى المطالب في مسيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه د. علي الصلابي.
4- مسند أحمد وإسناده قوي.
5- مسند أحمد، حديث حسن الشواهد.
6- مسند أحمد، إسناده حسن، (الصدقة، أي الزكاة المفروضة).
7- مسند أحمد، إسناده حسن، (كناية عن شدة الاهتمام بالعبادة).

وقد روى عن علي خلق كثير من الصحابة والتابعين وأهل بيته منهم:

1 - أبو أمامة إياس بن ثعلبة الأنصاري: من بنى حارثة، وهو ابن أخت أبى بردة، له عن النبي ﷺ ثلاثة أحاديث، وهو الذي أمره الرسول ﷺ أن يقيم على أمه يوم بدر. [1]

2 - أبو رافع القبطي مولى رسول الله ﷺ يقال اسمه إبراهيم، وقيل: سنان، وقيل: يسار، قال ابن عبد البر: أشهر ما قيل في اسمه أسلم، مات في عهد عليٍّ بن أبي طالب سنة 40 هـ. [2]

3 - أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة الأنصاري، خرج مع رسول الله ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة توفي سنة 74 هـ. [3]

4 - جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب الأنصاري السلمي، شهد صفين مع عليٍّ وتوفي 78 هـ، وكان من الحفاظ للسنن.

5 - جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب العامري السوائي حليف بني زهرة، وأمه خالدة بنت أبي وقاص، يُكنى: أبا عبد الله، قال: صليت مع رسول الله أكثر من ألفي مرة، نزل الكوفة وتوفي بها سنة 74 هـ. [4]

6 - زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان قيل: كنيته أبو عمر، وقيل أبو عامر، مات بالكوفة سنة66 هـ، وقيل 68 هـ.

7 - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ابن أخي علي، ولد بأرض الحبشة، وهو أول مولود في الإسلام توفي سنة 80 هـ، وهو ابن تسعين سنة.[5]

1- أي: يقيم على خدمة أمه، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبدالبر.

2- سير أعلام النبلاء، للذهبي.

3- الاستيعاب، مصدر سابق.

4- الاستيعاب، مصدر سابق.

5- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني.

8 - عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أسلم مع أبيه قبل أن يبلغ الحلم، توفي في مكة، سنة 63 هـ، وهو ابن أربع وثمانين. (1)

9 - عبد الله بن مسعود بن غافل بن وائل الهذلي من أوائل المسلمين توفي 32 هـ. (2)

10 - عمرو بن حُرَيْث بن عثمان القرشي المخزومي يكنى أبا سعيد، رأى النبيﷺ وسمع منه ومسح على رأسه ودعا له بالبركة، نزل الكوفة وكان له قدر وشرف، مات سنة 85 هـ. (3)

وروى عنه من أهل بيته كل من: ولده الحسن بن على سبط رسول الله ﷺ.

ولده الحسين بن على سبط رسول الله ﷺ قُتل يوم عاشوراء سنة 61 هـ وهو ابن 56سنة. (4)

ولده محمد بن على بن أبي طالب أبو القاسم المدني المعروف بابن الحنفية، نسبة إلى أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة، قال العجلي: تابعي ثقة كان رجلًا صالحًا يكنى أبا القاسم، ولد في ولاية عمر ومات سنة 73، وقيل 80، وقيل 81، وقيل 82، وقيل 93 هـ. (5)

وحفيده محمد بن عمر بن عليٍّ بن أبي طالب ذكره ابن حبان في الثقات. (6)

حفيده علي بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب الملقب بزين العابدين من سادات التابعين، وأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس، أرسل عن جده علي بن أبي طالب. قال العجلي: مدني تابعي ثقة، توفي سنة 94 هـ، وكان عمره ثمان وخمسين سنة. (7)

1- وفيات الأعيان لابن خِلكان.
2- الاستيعاب، مصدر سابق.
3- الاستيعاب، مصدر سابق.
4- انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني.
5- المصدر السابق.
6- المصدر السابق.
7- تهذيب التهذيب، ولسان الميزان.

وابن أخته جعدة بن هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وأمه أم هانئ بنت أبي طالب، ولد على عهد النبي ﷺ وله صحبة، ولي خراسان، وسكن الكوفة، قال العجلي: مدني تابعي ثقة روى عن علي. (1)

سريته أم موسى، قيل اسمها فاختة، وقيل حبيبة، قال الدارقطني: حديثها مستقيم، وقال العجلي: كوفية تابعية ثقة. (2)

وأشهر من روى عن عليٍّ من التابعين: أبو الأسود الدؤلي البصري، القاضي، اسمه ظالم بن عمرو بن سفيان، ويقال اسمه عمرو بن عثمان، ويقال عثمان بن عمرو، قاتل مع عليٍّ يوم الجمل، وثَّقه ابن معين والعِجلي وغيرهما، وتوفى في ولاية عبيد الله بن زياد سنة 69. (3)

وأبو بُردة بن موسى الأشعري الفقيه، واسمه الحارث، وقيل عامر، وثقه ابن سعد والعجلي وابن حبان، وقال العجلي: كان على قضاء الكوفة بعد شريح، روى عن أبيه وعلي وحذيفة وعبد الله بن سلام وعائشة وغيرهم، قيل: مات سنة 83 وقيل 104، وقيل 107 هـ. (4)

وأبو عبدالرحمن السلمي عبد الله بن حبيب بن ربيعة، أبو عبدالرحمن السلمي الكوفي القارئ، ولأبيه صحبة، وثَّقه العجلي والنسائي وأبو داود، روى عن عمر وعثمان وعلي وسعد، وخالد بن الوليد وابن مسعود وحذيفة وغيرهم، قيل مات سنة 72 هـ، وقيل 85، وهو ابن خمس وثمانين سنة، شهد مع علي صفين. (5)

وزر بن حبيش بن حباية بن أوس الأسدي أبو مريم، ويقال أبو مطرف الكوفي، ذكر ابن معين أنه ثقة، مات سنة 81 هـ، وقيل 82 وقيل83 وهو ابن مائة وعشرين. (6)

1- تهذيب التهذيب.
2- تهذيب التهذيب، مصدر سابق.
3- المصدر السابق.
4- طبقات ابن سعد.
5- طبقات ابن سعد.
6- المرجع السابق.

وزيد بن وهب الجهنى من قضاعة، يكنى أبا سليمان، من أجلة التابعين وثقاتهم متفق على الاحتجاج به، وثقه ابن معين وغيره، ومات قبل سنة تسعين أو بعدها من ولاية الحجاج. (1)

وسويد بن غَفلة بن عوسجة بن عامر يكنى أبا أمية، رحل إلى رسول الله ﷺ، وقد قبض فلم يره، صحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا، مات سنة 81 أو 82 هـ وكان عمره 128سنة. (2)

وشريح بن هانئ بن يزيد بن نهيك الحارثي المذحجي ابن المقدام الكوفي، أدرك ولم ير، وهو من كبار أصحاب عليٍّ، قتل مع أبي بكرة بسجستان سنة 78 هـ. (3)

وعامر بن شرحبيل بن عبد، وقيل عامر بن عبد الله بن شرحبيل الشعبي والحميري أبو عمرو الكوفي من شعب همدان، روى عنه أنه قال: أدركت خمسمائة من الصحابة، وعن الحسن، قال: كان والله كثير العلم، عظيم الحلم، قديم السلم من الإسلام بمكان، وعن مكحول قال: ما رأيت أفقه منه. قال ابن عيينة، كانت الناس تقول بعد الصحابة ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، ولد لست خلت من خلافة عمر ومات سنة 109 هـ. (4)

وعبد خير بن يزيد ويقال ابن بجيد بن جوى بن عبد عمرو بن عبد يعرب بن الصائد الهمداني أبو عمارة الكوفي، أدرك الجاهلية، قال العجلي: كوفي تابعي ثقة، وذكر ابن حِبان في ثقات التابعين، قيل: عاش مائة وعشرين سنة، وقُتل في صفين.(5)

1- المرجع السابق.
2- تهذيب التهذيب - مصدر سابق.
3- المصدر السابق.
4- أسمى المطالب في سيرة علي بن أبي طالب، د. علي الصلابي.
5- تهذيب التهذيب، مصدر سابق.

من فقه الإمام علي رضي اللّه عنه

قال رضي الله عنه: يُغسل من بول الجارية، وينضح من بول الغلام ما لم يطعم. والدليل على ذلك لما بال الحسين بن عليّ في حجر النبي، قالت لبابة بنت الحارث: يا رسول الله، أعطني ثوبك، والبس ثوبًا غيره، فقال: «إنّما ينضح من بول الذّكر، ويغسل من بول الأنثى».[1]

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه بسنده أن عليًّا وابن مسعود والشعبي قالوا في الرجل ينام، وهو جالس ليس عليه الوضوء ودليل على ذلك حديث رسول الله: «وكاء السّه العينان، من نام فليتوضأ».[2]

وقال: كنت رجلًا مذاءً، فأمرت رجلًا أن يسأل النبي لمكان ابنته فسأله، فقال: «توضّأ واغسل ذكرك» (البخاري ومسلم).

وقال: كان رسول الله يُقرئنا القرآن على كل حال، ما لم يكن جنبًا.

وعن عامر الشعبي قال: سمعت أبا الغريف الهمذاني يقول: شهدت عليًّا بن أبي طالب بال، ثمّ قال: اقرأوا القرآن ما لم يكن أحدكم جنبًا، فلا ولا حرفًا واحدًا.[3]

وسأل عمر عليًّا: ما ترى في رجل وقع على امرأته وهي حائض؟[4]

قال: ليس كفارة إلا أن يتوب.

وقد أجمعت الأمة على حرمة وطء الحائض دون خلاف، لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ

1- رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن.

2- وقوله وكاء هو ما يربط به الشيء يعني: الخريطة أو الحقيبة، والسّه: فتحة الدبر من الإنسان، وهي مؤخرة الإنسان ومقعدته، وهي محل خروج الفضلات، والمقصود: أن النوم ناقض الوضوء إلا إذا كان المرء جالسًا على مقعدته كما قال أهل العلم.

3- مصنف عبدالرزاق.

4- مصنف ابن أبي شيبة.

فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].

وسُئل عليّ: ما لك من امرأتك إذا كانت حائضًا؟ قال: ما فوق الإزار.

ودليله في ذلك ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضًا أمرها رسول الله فتأتزر بإزار، ثمّ يباشرها.(1)

سئل أمير المؤمنين عليّ: يا أمير المؤمنين ما ترى في امرأة لا تصلي؟

قال: من لم يصلِّ فهو كافر.

وقال عبد الله بن شقيق: لم يكن أصحاب رسول الله يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، ولأنها عبادة يدخل بها في الإسلام، فيخرج بتركها منه كالشهادة. ويؤيد هذا الحكم قول رسول الله: «بين الرّجل وبين الشِّرك والكفر ترك الصَّلاة».

ونقل ذلك عن ابن قتادة، وعن الحارث عن عليٍّ في الذي يصلي وحده، ثم يصلي في الجماعة؟

قال: صلاته الأولى. أي الثانية نافلة له، ودليله ما رواه أبو ذَرٍّ حيث قال: قال لي رسول الله: «كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يميتون الصّلاة أو يؤخّرون الصّلاة عن وقتها، فإن أدركتها معهم فصلّ، فإنّها لك نافلة».

وجه الدلالة أنه سمي التي يصليها جماعةً: نافلة.

وإذا أعاد المغرب شفعها بركعة عند عليّ، فعن الحارث عن علي إذا أعاد المغرب شفع بركعة.(2)

من فاتته صلاة يجب عليه قضاؤها، ويستحب أن يقضيَها على الفور عند عليّ، وقد قال عليّ: إذا نام الرجل عن صلاة أو نسي، فليصّل إذا استيقظ أو ذكر. وعلى هذا إجماع المسلمين دون خلاف، والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ:

1- صحيح مسلم.

2- مصنف ابن أبي شيبة، كنز العمال للهندي، المغني لابن قدامة، شرح صحيح مسلم.

إذا رقد أحدكم عن الصّلاة، أو غفل عنها فليصلّها إذا ذكرها، فإنّ اللّه يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14].[1]

وعن إسماعيل بن زياد قال: مرّ عليّ على المساجد، وفيها القناديل في شهر رمضان، فقال: نوّر الله على عمر قبره، كما نوّر علينا مساجدنا.[2]

وعلى هذا إجماع مذاهب أهل السنة، والحجة في ذلك ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه» (صحيح مسلم).

ووجه الدلالة أن التراويح من القيام، فهو سنة، والجماعة في التراويح أفضل عند عليّ، وكان هو يصليها جماعة ويجعل للرجال إمامًا، وللنساء إمامًا، فعن عرفجة الثقفي قال: كان علّي بن أبي طالب يأمر الناس بقيام شهر رمضان، ويجعل للرجال إمامًا وللنساء إمامًا، قال عرفجة: فكنت أنا إمام النساء.

لما تولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخلافة، وصار بالكوفة وكان الخلق بها كثيرًا، قالوا: يا أمير المؤمنين، إن بالمدينة شيوخًا وضعفاء يشق عليهم الخروج إلى الصحراء، فاستخلف عليّ رجلا يصلي بالناس العيد في المسجد، وهو يصلي بالناس خارج الصحراء، ولم يكن هذا يفعل قبل ذلك.

وعليّ من الخلفاء الراشدين، وقد قال النبي: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي».

فمن تمسك بسنة لخلفاء الراشدين فقد أطاع الله ورسوله.

ومن فقه الإمام أنه يجوز للرجل أن يغسِّل زوجته عند عليّ، إذ إنه غسّل زوجته فاطمة رضي الله عنها.

1- مصنف ابن أبي شيبة، فقه الإمام علي بن أبي طالب - مصدر سابق.
2- انظر المغني لابن قدامة.

فعن أسماء بنت عميس قالت: أوصت فاطمة إذا ماتت ألا يغسلها إلا أنا وعليّ، قالت: فغسّلتها أنا وعليّ.

وحكي إجماع الصحابة على ذلك، لأن ذلك اشتهر فيهم ولم ينكروه، وبه قال جمهور العلماء، والحجة لهم لقول رسول الله لعائشة: «ما ضرّك لو متّ قبلي، فغسّلتك وكفّنتك، ثمّ صلّيت عليك ودفنتك». [1]

1- موقع قصة الإسلام على الإنترنت: نقلًا عن كتب فقه الإمام علي رضي الله عنه - مصدر سابق.

4 الإمام علي رضي اللّه عنه والخلفاء الراشدون أبوبكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم

- بيعة علي رضي الله عنه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة.
- الإمام علي رضي الله عنه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
- بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه والسيدة فاطمة رضي الله عنها.
- أبوبكر الصديق رضي الله عنه وآل البيت النبوي.
- علي رضي الله عنه في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- الإمام علي رضي الله عنه والخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- علي رضي الله عنه ومقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه.
- موقف الصحابة من مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه.

بيعة علي رضي اللّه عنه لأبي بكر الصديق رضي اللّه عنه بالخلافة

لم تكن علاقة علي رضي الله عنه بالخلفاء الراشدين السابقين عليه من كبار الصحابة علاقة تنافسية عدائية على الحكم والخلافة وهذا ما أوضحت مواقف الإمام علي رضي الله عنه منهم وخاصة بعد توليهم أمر الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن أباها أبا بكر رضي الله عنه دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن دعاه: (فتشهد علي فقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيرًا ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيبًا».

حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما تكلم أبوبكر قال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال: فلم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته.

فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبوبكر الظهر رقي عليٌّ المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر، وتشهد علي، فعظم حق أبي بكر، وحدث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسةً على أبي بكر، ولا إنكارًا للذي فضله الله به، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصيبًا، فاستبد علينا، فوجدنا في أنفسنا، فسر بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى علي قريبًا حين راجع الأمر المعروف) رواه البخاري (3998) ومسلم (1759)

وفي رواية أخرى لمسلم في صحيحه:

(ثم قام علي فعظَّم من حق أبي بكر وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر

فبايعه، فأقبل الناس إلى علي فقالوا: أصبت وأحسنت فكان الناس قريبًا إلى علي حين قارب الأمر المعروف).

قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم: «أما تأخر علي رضي الله عنه عن البيعة: فقد ذكره علي في هذا الحديث، واعتذر أبوبكر رضي الله عنه».

ومع هذا: فتأخره ليس بقادح في البيعة، ولا فيه: وأما البيعة: فقد اتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من العلماء، والرؤساء، ووجوه الناس.

وأما عدم القدح فيه: فلأنه لا يجب على كل واحد أن يأتي إلى الإمام فيضع يده في يده ويبايعه، وإنما يلزمه إذا عقد أهل الحل والعقد للإمام الانقياد له، وأن لا يظهر خلافًا، ولا يشق العَصا.

وهكذا كان شأن علي رضي الله عنه في تلك المدة التي قبل بيعته، فإنه لم يظهر على أبي بكر خلافًا، ولا شق العصا، ولكنه تأخر عن الحضور عنده للعذر المذكور في الحديث، ولم يكن انعقاد البيعة وإبرامها متوقفًا على حضوره، فلم يجب عليه الحضور لذلك، ولا لغيره، فلما لم يجب: لم يحضر.

وما نقل عنه قدح في البيعة، ولا مخالفة، ولكن بقي في نفسه عُتْبٌ، فتأخر حضوره إلى أن زال العتب.

وكان سبب العتب: أنه مع وجاهته، وفضيلته في نفسه في كل شيء، وقربه من النبي ﷺ، وغير ذلك: رأى أنه لا يستبد بأمر إلا بمشورته، وحضوره، وكان عذر أبي بكر وعمر وسائر الصحابة واضحًا؛ لأنهم رأوا المبادرة بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف ونزاع تترتب عليه مفاسد عظيمة، ولهذا أخروا دفنَ النبي ﷺ حتى عقدوا البيعة؛ لكونها كانت أهم الأمور، كيلا يقع

نزاع في مدفنه، أو كفنه، أو غسله، أو الصلاة عليه، أو غير ذلك، وليس لهم من يفصل الأمور، فرأوا تقدم البيعة أهم الأشياء». [1]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في موسوعته فتح الباري في شرح صحيح البخاري:

«وكأنهم كانوا يعذرونه في التخلف عن أبي بكر في مدة حياة فاطمة، لشغله بها وتمريضها، وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ؛ ولأنها لما غضبت من رد أبي بكر عليها فيما سألته من الميراث: رأى علي أن يوافقها في الانقطاع عنه». انتهى

ومما جاء في اجتماع سقيفة بني ساعدة التي اجتمع فيها كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار والتي تم فيها اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه كأول خليفة للمسلمين عقب وفاة النبي ﷺ:

«لما توفي رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار، فجعل الرجل منهم يقول: يا معشر المهاجرين! إن رسول الله ﷺ كان إذا بعث رجلًا منكم قرنه رجلًا منَّا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان، رجل منكم ورجل منا».

قال: وتتابعت خطباء الأنصار على ذلك.

فقام زيد بن ثابت فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإنما يكون الإمام من المـهاجرين، ونحن أنصاره، كما كنا أنصار رسول الله ﷺ.

فقام أبوبكر، فقال: جزاكم الله خيرًا من حي يا معشر الأنصار وثبت قائلكم، أما والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم.

ثم أخذ زيد بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه. ثم انطلقوا

فلما قعد أبوبكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير عليًّا، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبوبكر: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه، أردت أن تشق عصا المسلمين!

1- شرح مسلم: (12/77-78).

فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه.

ثم لم ير الزبير، فسأل عنه حتى جاؤوا به، فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين! فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه. (1)

فبيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت إكراها فهي دعوى زائفة باطلة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب منهاج السنة:

«علم بالتواتر أنه لم يتخلف عن بيعته - يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه - إلا سعد بن عبادة، وأما علي وبنو هاشم فكلهم بايعه باتفاق الناس، لم يمت أحد منهم إلا وهو مبايع له، لكن قيل: علي تأخرت بيعته ستة أشهر، وقيل: بل بايعه ثاني يوم، وبكل حال، فقد بايعوه من غير إكراه». انتهى

ويقول: د. علي الصلابي في كتابه أسمى المطالب في سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وردت أخبار كثيرة في شأن تأخّر علي عن مبايعة الصديق، وكذا تأخّر الزبير بن العوام، وجلّ هذه الأخبار ليست بصحيحة، وقد جاءت روايات صحيحة السند تفيد بأن عليًّا والزبير رضي الله عنهما بايعا الصديق في أول الأمر، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار.. فذكر بيعة السقيفة، ثم قال: ثم انطلقوا، فلما قعد أبوبكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير عليًّا، فسأل عنه، فقام أناس من الأنصار، فأتوا به، فقال أبوبكر: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين؟! فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، فبايعه، ثم لم يرَ الزبير بن العوام، فسأل عنه حتى جاؤوا به، فقال: ابن عمّة رسول الله ﷺ

1- رواه جعفر بن محمد بن شاكر عن عفان على هذا الوجه المطوَّل، كذلك أخرجه الحاكم في (المستدرك على الصحيحين)، وعنه وعن شيخه أبي محمد المقرئ رواه البيهقي في (السنن الكبرى)، قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) وسكت عليه الذهبي في التلخيص.

وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟! فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه».

ومما يدل على أهمية حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الصحيح أن الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الجامع الصحيح -الذي هو أصح الكتب الحديثية بعد صحيح البخاري- ذهب إلى شيخه الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب صحيح ابن خزيمة- فسأله عن هذا الحديث، فكتب له ابن خزيمة الحديث، وقرأه عليه، فقال مسلم لشيخه ابن خزيمة: «هذا الحديث يساوي بدنة»، فقال ابن خزيمة: «هذا الحديث لا يساوي بدنة فقط، إنه يساوي بدرة مال»، وعلق على هذا الحديث ابن كثير رحمه الله فقال: «هذا إسناد صحيح محفوظ، وفيه فائدة جليلة، وهي مبايعة علي ابن أبي طالب، إما في أول يوم، أو في الثاني من الوفاة، وهذان حق، فإن عليًّا بنَ أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عن صلاة من الصلوات خلفه»، وفي رواية حبيب بن أبي ثابت، حيث قال: «كان علي بن أبي طالب في بيته، فأتاه رجل، فقال له: قد جلس أبوبكر للبيعة، فخرج عليّ إلى المسجد في قميص له، ما عليه إزار ولا رداء، وهو متعجّل، كراهة أن يبطئ عن البيعة، فبايع أبا بكر، ثم جلس، وبعث إلى ردائه فجاؤوه به، فلبسه فوق قميصه».

وقد سأل عمرو بن حريث سعيد بن زيد رضي الله عنه فقال له: «متى بويع أبوبكر»؟ قال سعيد: «يوم مات رسول الله ﷺ كره المسلمون أن يبقوا بعض يوم، وليسوا في جماعة».

قال: «هل خالف أحد أبا بكر»؟ قال سعيد: «لا، لم يخالف إلاّ مرتد، أو كاد أن يرتد، وقد أنقذ الله الأنصار، فجمعهم عليه وبايعوه».

قال: «هل قعد أحد من المهاجرين عن بيعته»؟

قال سعيد: «لا، لقد تتابع المهاجرون على بيعته»، وكان مما قال علي رضي الله

عنه لابن الكواء وقيس بن عباد حينما قدم البصرة وسألاه عن مسيره قال: «لو كان عندي من النبي ﷺ ما تركت أخا بني تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ولقاتلتهما ولو لم أجد إلاّ بردي هذا، ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل قتلًا ولم يمت فجأة، مكث في مرضه أيامًا وليالي يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال: «أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلّ بالناس»، فلما قبض الله نبيه ونظرنا في أمورنا، فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله، وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي أعظم الأمور وقوام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلًا، ولم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراءة، فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي».

وكان مما قال في خطبته على منبر الكوفة في ثنائه على أبي بكر وعمر: «فأعطى المسلمون البيعة طائعين، فكان أول من سبق في ذلك من ولد عبد المطلب أنا»، وجاءت روايات أشارت إلى مبايعة علي لأبي بكر رضي الله عنهما في أول الأمر وإن لم تصرح بذلك، فعن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أنه قال: «إن عبدالرحمن بن عوف كان مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم قام أبوبكر فخطب الناس، واعتذر إليهم وقال: والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله عز وجل في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قُلِّدت أمرًا عظيمًا ما لي به من طاقة ولا بدّ إلاّ بتقوية الله عز وجل، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم».

قال علي رضي الله عنه والزبير: «ما غضبنا إلاّ لأنا قد أخرنا عن المشاورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعلم بشرفه، وكبره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي».

وعن قيس العبدي قال: «شهدت خطبة علي يوم البصرة قال: فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي ﷺ وما عالج من الناس، ثم قبضه الله عز وجل إليه، ثم رأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر رضي الله عنه فبايعوا وعاهدوا وسلموا، وبايعت وعاهدت وسلمت، ورضوا ورضيت، وفعل من الخير وجاهد حتى قبضه الله عز وجل، رحمة الله عليه».

أضف إلى ذلك أن عليًّا رضي الله عنه لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات، وكان يشاركه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين.

ويرى ابن كثير ومجموعة من أهل العلم أن عليًّا جدّد بيعته بعد ستة أشهر من البيعة الأولى، أي بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها، وجاءت في هذه البيعة روايات صحيحة. ولكن لما وقعت البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن عليًّا لم يبايع قبلها، فنفى ذلك والمثبت مقدم على النافي.

الإمام علي رضي اله عنه إبَّانَ خلافة أبي بكر رضي اللّه عنه

كان علي رضي الله عنه مساندًا للخليفة أبي بكر رضي الله عنه ناصحًا له، مرجِّحًا لما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين حريصًا على لَمِّ شمل المسلمين مؤيدًا للخليفة في محاربة المرتدين، وقيادته للتحركات العسكرية ضدهم بنفسه، وما كان في ذلك من مخاطرة وخطر على الوجود الإسلامي، وقوله لأبي بكر حين خرج يقود الجيوش لمحاربة المرتدين: «أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «لمّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة»، فو الله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدًا»، فرجع.

وكان رأي علي رضي الله عنه مقاتلة المرتدين، فقال لأبي بكر لما سأله: «ما تقول يا أبا الحسن»؟ قال: «أقول: إنك إن تركت شيئًا مما كان أخذه منهم رسول الله، فأنت على خلاف سنة الرسول»، فقال: «أما لئن قلت ذاك لأقاتلنهم وإن منعوني عقالًا».

وقد تواترت الأخبار عن علي رضي الله عنه في تفضيله وتقديمه لأبي بكر رضي الله عنه لمعرفة فضله في الإسلام وحب الرسول ﷺ له.[1]

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد تواترت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: خير الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر، وقد روي هذا عنه من طرق كثيرة قيل إنها تبلغ ثمانين طريقًا، وعنه أنه يقول: لا أوتى بأحد يفضِّلني على أبي بكر وعمر إلاّ جلدته حد المفتري.

عن محمد ابن الحنفية قال: «قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبوبكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلاّ رجل من المسلمين».[2]

1- تاريخ الخلفاء للسيوطي، والبداية والنهاية لابن كثير.
2- صحيح البخاري - كتاب فضائل الصحابة، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني.

عن علي رضي الله عنه قال: «ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها: أبوبكر. ثم قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر: عمر».

أخرج الحاكم في المستدرك عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا تستخلف علينا؟ قال: ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم».

وعن صِلَةَ بن زفر العبسي قال: «كان أبوبكر إذا ذُكر عند علي قال: السبّاق تذكرون، والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلاّ سبقنا إليه أبوبكر»، وعن محمد بن عقيل ابن أبي طالب قال: «خطبنا علي فقال: أيها الناس، من أشجع الناس؟ قلنا: أنت يا أمير المؤمنين. قال ذاك أبوبكر الصديق، إنه لما كان في يوم بدر وضعنا لرسول الله العريش فقلنا: من يقم عنده لا يدنو إليه أحد من المشركين؟ فما قام عليه إلاّ أبوبكر، وإنه كان شاهرًا السيف على رأسه كلما دنا إليه أحد هوى إليه أبوبكر بالسيف، ولقد رأيت رسول الله وأخذته قريش عند الكعبة فجعلوا يتعتعونه ويترترونه، ويقول: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فو الله ما دنا إليه إلاّ أبوبكر ولأبي بكر يومئذ ضفيرتان، فأقبل يجأ هذا، ويدفع هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.. وقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر، فقال علي لأصحابه: ناشدتكم الله أي الرجلين خير: مؤمن آل فرعون أم أبوبكر؟ فأمسك القوم، فقال علي: والله ليوم من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون، ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه، وهذا أبوبكر بذل نفسه ودمه لله».[1]

لقد كان عليٌّ رضي الله عنه راضيًا بخلافة الصديق، ومشاركًا له في معاملاته وقضاياه، قابلًا منه الهدايا رافعًا إليه الشكاوى، مصليًا خلفه، محبًّا له، مبغضًا من بغضه، وشهد بذلك أكبر خصوم الخلفاء الراشدين، وأصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بهديهم، وسلك مسلكهم، ونهج منهجهم، فهذا اليعقوبي الشيعي الغالي في تاريخه

1- انظر: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي الصلابي.

يذكر أيام خلافة الصديق فيقول: «وأراد أبوبكر أن يغزو الروم فشاور جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقدموا وأخروا فاستشار علي بن أبي طالب فأشار أن يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت؟ فقال: بشرت بخير، فقام أبوبكر في الناس خطيبًا، وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم، وفي رواية: سأل الصديق عليًّا كيف ومن أين تبشر؟ قال: من النبي ﷺ حيث سمعته يبشر بتلك البشارة، فقال أبوبكر: سررتني بما أسمعتني من رسول الله يا أبا الحسن، سرّك الله». [1]

ويقول اليعقوبي أيضًا: «وكان ممن يؤخذ عنهم الفقه في أيام أبي بكر علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، فقدم عليًّا على جميع أصحابه»، وهذا دليل واضح على تعاملهم مع بعضهم وتقديمهم عليًّا في المشورة والقضاء، فعندما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر بقوله له: «إنه وجد رجلًا في بعض نواحي العرب يُنكح كما تنكح المرأة»، فجمع أبوبكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي، فقال علي: «إن هذا ذنب لم يعمل به إلاّ أمة واحدة، ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فأمر به أبوبكر أن يحرق بالنار، وكان علي رضي الله عنه يمتثل أوامر الصديق؛ فعندما جاء وفد من الكفار إلى المدينة، ورأوا بالمسلمين ضعفًا وقلة لذهابهم إلى الجهات المختلفة للجهاد واستئصال شأفة المرتدين والبغاة الطغاة، وأحس منهم الصديق خطرًا على عاصمة الإسلام والمسلمين، أمر الصديق بحراسة المدينة، وجعل الحرس على أنقابها يبيتون بالجيوش، وأمر عليًّا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود أن يرأسوا هؤلاء الحُراس، وبقوا كذلك حتى أمنوا منهم.[2]

ووردت روايات عديدة في قبوله هو وأولاده الهدايا المالية، والخمس، وأموال

1- انظر: أَسْمَى المطالب في سيرة علي بن أبي طالب - د. علي الصلابي.
2- تاريخ اليعقوبي.

الفيء من الصديق رضي الله عنهم أجمعين، وكان علي هو القاسم والمتولي في عهده على الخمس والفيء، وكانت هذه الأموال بيد علي، ثم كانت بيد الحسن ثم بيد الحسين، ثم الحسن بن الحسن ثم زيد بن الحسن، وكان علي رضي الله عنه يؤدي الصلوات الخمس في المسجد خلف الصديق، راضيًا بإمامته، ومظهرًا للناس اتفاقه ووئامه معه، وكان علي رضي الله عنه يروى عن أبي بكر بعض أحاديث رسول الله ﷺ، فعن أسماء بنت الحكم الفزاري قالت: «سمعت عليًّا رضي الله عنه يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله علمًا نفعني الله به، وكان إذا حدثني عنه غيري استحلفته فإذا حلف صدقته، وحدثني أبوبكر وصدق أبوبكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يذنب ذنبًا ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له».

ولما قُبض رسول الله ﷺ اختلف أصحابه فقالوا: ادفنوه في البقيع، وقال آخرون: ادفنوه في موضع الجنائز، وقال آخرون: ادفنوه في مقابل أصحابه، فقال أبوبكر: أخّروا فإنه لا ينبغي رفع الصوت عند النبي حيًّا ولا ميتًا، فقال علي رضي الله عنه: أبوبكر مؤتمن على ما جاء به. قال أبوبكر: عهد إليّ رسول الله أنه ليس من نبي يموت إلاّ دفن حيث يُقبض»، وشهد علي رضي الله عنه للصديق عن عظيم أجره في المصاحف، فعن عبد خير قال: سمعت عليًّا يقول: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف: أبوبكر الصديق، هو أول من جمع بين اللوحين».[1]

1- البداية والنهاية لابن كثير والموطأ للإمام مالك بن أنس، السيرة النبوية لابن هشام، الخصائص الكبرى للسيوطي.

علاقة أبي بكر رضي اللّه عنه والسيدة فاطمة رضي اللّه عنها (ميراث النبي ﷺ)

وأما عن علاقة السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إن فاطمة والعباس رضي الله عنهما أتيا أبا بكر رضي الله عنه يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما يطلبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبوبكر: إني سمعت رسول الله يقول: «لا نُورَّثُ، ما تركنا صدقة»، إنما يأكل آل رسول الله ﷺ من هذا المال»، وفي رواية قال أبوبكر رضي الله عنه: «.... لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلاّ عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أزواج النبي ﷺ، حين توفي رسول الله، أردن أن يبعثن عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أبي بكر، ليسألنه ميراثهن من النبي ﷺ، فقالت عائشة رضي الله عنها لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورّث، ما تركناه صدقة»؟!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتسم ورثتي دينارًا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة».

وهذا ما فعله أبوبكر الصديق رضي الله عنه مع فاطمة رضي الله عنها امتثالًا لقوله ﷺ، لذلك قال الصديق: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلاّ عملت به» وقال: «والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلاّ صنعته».

وقد تركت فاطمة رضي الله عنها منازعته بعد احتجاجه بالحديث وبيانه لها، وفيه دليل على قبولها الحق وإذعانها لقوله ﷺ.

قال ابن قتيبة:

«وأما منازعة فاطمة أبا بكر رضي الله عنها في ميراث النبي ﷺ فليس بمنكر؛ لأنها لم تعلم ما قاله رسول الله ﷺ وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد آباءهم، فلما أخبرها بقوله كفّت، وقد غلا الرافضة في قصة ميراث النبي غلوًّا مفرطًا، مجانبين الحق والصواب، معرضين متجاهلين ما ورد من نصوص صحيحة في أنه ﷺ لا يورّث، وجعلوا ذلك من أصول الخلاف بين الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم أجمعين وامتدادًا لأمر الخلافة، فاتهموا الصحابة رضوان الله عليهم بإيقاع الظلم والجور على آل البيت، ولا سيما أبوبكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما اللذان غصبا الخلافة من آل البيت كما في زعمهم، وأضافوا إلى ذلك غصب أموال آل البيت، وغصب ما فرض الله لهم من حقوق مالية، ويعتبر الرافضة قضية فدك، ومنع فاطمة من إرثها من أهم القضايا، التي تواطأ عليها الصحابة بعد غصب الصديق رضي الله عنه للخلافة منهم على حد تعبيرهم، وذلك حتى لا يميل الناس إلى آل البيت بسبب هذا المال فيجتمعوا عليه ويخلعوه من الخلافة». (1)

وقال ابن كثير بعد ذكره لمن روى الحديث: «وأن هذا الزعم من الرافضة باطل، ولو تفرد بروايته الصديق رضي الله عنه لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته والانقياد له في ذلك»، وقد قال الدكتور سليمان بن رجاء السحيمي صاحب الكتاب القيم «العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط»: «ويؤيد هذا ما جاء من كتب الرافضة عن الإمام جعفر الصادق الإمام الخامس المعصوم عندهم فيما رواه الكليني والصفار، والمفيد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: من سلك طريقًا يطلب منه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، والعلماء أمناء، والأتقياء حصون، والأوصياء سادة، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وأن العلماء ورثة الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكن ورَّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر. وفي

1- المصدر السابق.

رواية: إن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم. وما أرث منك يا رسول الله؟ قال: ما أورث النبيون».

وزعمهم أن هذا الحديث مخالف لقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ [النساء: 11] ، وقالوا: ولم يجعل الله ذلك خاصًا بالأمة دونه ﷺ.

والحقيقة أن الخطاب شامل للمقصودين بالخطاب، وليس فيه ما يوجب كون النبي ﷺ من المخاطَبين بها، فهو ﷺ لا يقاس بأحد من البشر، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولأن الله حرم عليه صدقة الفرض والتطوع، وخُصّ بأشياء لم يخص بها أحد غيره ﷺ، ومما خصه الله به، هو وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام كونهم لا يورثون، وذلك صيانة من الله لهم لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وخلفوها لورثتهم، أما بقية البشر فلا نبوة لهم يقدح فيها بمثل ذلك، كما صان الله تعالى نبينا ﷺ عن الخط والشعر صيانة لنبوته عن الشبهة، وإن كان غيره لم يحتج إلى هذه الصيانة.

وقال ابن كثير في رده على استدلال الرافضة بالآية: «إن رسول الله ﷺ قد خُصَّ من بين الأنبياء بأحكام لا يشاركونه فيها.. فلو قدر أن غيره من الأنبياء يورثون، وليس الأمر كذلك، لكان ما رواه الصحابة، وعلى رأسهم أبوبكر، مبينًا لتخصصه بهذا الحكم دون من سواه. وبهذا يتبين بطلان استدلالهم بمخالفة الحديث».

وزعمهم أن منع الإرث والاستدلال بهذا الحديث مخالف لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: من الآية: 16]، ومخالف لما حكاه الله عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ ﴾ [مريم: 5 - 6].

حيث قالوا: إن الميراث يقتضي الأموال وما في معناها، وليس لأحد أن يقول إن المراد بالآية العلم دون المال. (1)

1- المصدر السابق.

ويرد على ذلك: إن الإرث اسم جنس يدخل تحته أنواع، فيستعمل في إرث العلم والنبوة والملك وغير ذلك من أنواع الانتقال. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: من الآية 32]، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون: 10 11] وغير ذلك من الآيات الواردة في هذا الشأن، وإذا كان كذلك فقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وقوله: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ إنما يدل على جنس الإرث، ولا يدل على إرث المال، وذلك أن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرون غير سليمان فلا يختص سليمان بماله، فدل على أن المراد بهذا الإرث إرث العلم والنبوة ونحو ذلك، لا إرث المال، والآية سيقت في بيان مدح سليمان وما خصه الله به من النعمة، وحصر الإرث في المال لا مدح فيه؛ إذ إن إرث المال من الأمور العادية المشتركة بين الناس، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ليس المراد به إرث المال؛ لأنه لا يرث آل يعقوب شيئًا من أموالهم، وإنما يرث ذلك منهم أولادهم وسائر ورثتهم لو ورثوا.

كما أن قوله: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [مريم: من الآية: 5]، لا يدل على أن الإرث إرث مال؛ لأن زكريا لم يخف أن يأخذوا ماله من بعده إذا مات، فإن هذا ليس بمخوف، وزكريا عليه السلام لم يُعرف له مال، بل كان تاجرًا يأكل من كسب يده كما في صحيح مسلم، ولم يكن ليدخر منها فوق قوته حتى يسأل الله ولدًا يرث عنه ماله، فدل على أن المراد بالوراثة في هاتين الآيتين وراثة النبوة، والقيام مقامه.

يقول القرطبي في تفسيره للآية: «وعليه فلم يسل من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تورث، وهذا هو الصحيح من القولين في تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء لا نورّث، ما تركنا صدقة»، وهذا الحديث يدخل في التفسير المسند لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وعبارة عن قول زكريا: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾، وتخصيص للعموم في ذلك، وإن سليمان لم يرث من داود مالًا خلّفه داود بعده. وإنما ورث منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب، وهكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرافضة خالفوا ما استدلوا به على وجوب الميراث، وذلك أنهم حصروا ميراثه ﷺ في فاطمة رضي الله عنه فزعموا أنه لم يرث النبي ﷺ إلاّ هي، فأخرجوا أزواجه وعصبته مخالفين عموم الآيات التي استدلوا بها، فقد روى الصدوق بسنده عن أبي جعفر الباقر قوله: «لا والله ما ورث رسول الله ﷺ العباس ولا علي، ولا ورثته إلاّ فاطمة عليها السلام، وما كان أخذ علي عليه السلام السلاح وغيره إلاّ أنه قضى عنه دينه».

وروى الكليني والصدوق والطوسي بأسانيدهم إلى الباقر أيضًا قوله: «وورث علي عليه السلام من رسول الله ﷺ علمه، وورثت فاطمة عليها السلام تركته»، بل وأخرجوا فاطمة من ذلك، حيث زعموا أن النساء لا يرثن العقار، فقد بوب الكليني في كتابه الكافي بابًا بعنوان: «إن النساء لا يرثن من العقار شيئًا»، وساق تحته روايات منها: «عن أبي جعفر الصادق إنه قال: النساء لا يرثن من الأرض ولا من العقار شيئًا».

روى الصدوق بسنده إلى ميسر قال: «سألته -يقصد الصادق- عن النساء ما لهن في الميراث؟ فقال: أما الأرض والعقارات فلا ميراث فيه»، وبهذا يتبين عدم استحقاق فاطمة رضي الله عنها شيئًا من الميراث، بدون الاستدلال بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث»، فما دامت المرأة لا ترث العقار والأرض، فكيف كان لفاطمة أن تسأل فدك -على حسب قولهم-، وهي عقار لا ريب فيه، وهذا دليل كذبهم وتناقضهم فضلًا عن جهلهم.

إن السنة والإجماع قد دلّا على أن النبي ﷺ لا يورث، قال ابن تيمية: «كون النبي ﷺ لا يورث ثبت بالسنة المقطوع بها، وبإجماع الصحابة، وكل منها دليلٌ

قطعيٌّ، فلا يعارض ذلك بما يظن أنه عموم، وإن كان عمومًا فهو مخصوص؛ لأن ذلك لو كان دليلًا لما كان إلاّ ظنيًّا فلا يعارض القطعي؛ إذ الظني لا يعارض القطعي، وذلك أن هذا الخبر رواه غير واحد من الصحابة في أوقات ومجالس، وليس فيهم من ينكره، بل كلهم تلقاه بالقبول والتصديق، ولهذا لم يصر أحد من أزواجه على طلب الميراث، ولا أصرّ العمّ على طلب الميراث، بل لما طلب من ذلك شيئًا فأُخبر بقول النبي ﷺ رجع عن طلبه، واستمر الأمر على ذلك على عهد الخلفاء الراشدين إلى علي، فلم يغير شيئًا ولا قسم له تركة».

قال الإمام ابن تيمية يرحمه الله: «قد تولى الخلافة (عليٌّ) بعد ذي النورين عثمان، وصار فدك وغيرها تحت حكمه، ولم يعط منها شيئًا لأحد من أولاد فاطمة، ولا من زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس، فلو كان ظلمًا وقدر على إزالته لكان هذا أهون عليه من قتال معاوية وجيوشه، أفتراه يقاتل معاوية مع ما جرى في ذلك من الشر العظيم، ولا يعطي هؤلاء قليلًا من المال، وأمره أهون بكثير»؟!

وبإجماع الخلفاء الراشدين على ذلك احتج الخليفة العباسي أبو العباس السفاح على بعض مناظريه في هذه المسألة على ما نقل ابن الجوزي في تلبيس إبليس قال: «وقد روينا عن السفاح أنه خطب يومًا فقام رجل من آل علي رضي الله عنه قال: إنا من أولاد علي رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، أعني على من ظلمني. قال: ومن ظلمك؟ قال: أنا من أولاد علي رضي الله عنه والذي ظلمني أبوبكر رضي الله عنه حين أخذ فدك من فاطمة، وقال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ قال: عمر رضي الله عنه قال: ودام على ظلمكم. قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ قال عثمان رضي الله عنه قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ فجعل يلتفت كذا وكذا ينظر مكانًا يهرب منه».

وبتصويب أبي بكر رضي الله عنه في اجتهاده صرّح بعض أولاد علي من فاطمة رضي الله عنهما على ما روى البيهقي بسنده عن فضيل بن مرزوق قال: «قال زيد

ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: أما لو كنت مكان أبي بكر، لحكمت بما حكم به أبوبكر في فدك»، كما نقل أبو العباس القرطبي اتفاق أهل البيت بدءًا بعلي رضي الله عنه ومن جاء بعده من أولاده، ثم أولاد العباس الذين كانت بأيديهم صدقة رسول الله، إنهم ما كانوا يرون تملكها، إنما كانوا ينفقونها في سبيل الله، قال رحمه الله: «إن عليًّا لما ولي الخلافة ولم يغيرها عما عمل فيها في عهد أبي بكر وعمر، وعثمان، ولم يتعرض لتملكها، ولا لقسمة شيء منها، بل كان يصرفها في الوجوه التي كان من قبله يصرفها فيها، ثم كانت بيد حسن بن علي، ثم بيد حسين بن علي، ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد الحسين بن الحسن، ثم بيد زيد بن الحسين، ثم بيد عبد الله ابن الحسين، ثم تولاها بنو العباس على ما ذكره أبوبكر البرقاني في صحيحه، وهؤلاء كبراء أهل البيت رضي الله عنهم وهم معتمدون عند الشيعة وأئمتهم، لم يرو عن واحد منهم أنه تملكها ولا ورثها ولا ورثت عنه، فلو كان ما يقوله الشيعة حقًّا لأخذها علي أو أحد من أهل بيته لما ظفروا بها».

وقال ابن كثير: «وقد تكلمت الرافضة في هذا المقام بجهل، وتكلفوا ما لا علم لهم به، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، وأدخلوا أنفسهم فيما لا يعنيهم، فلو تفهموا الأمور على ما هي عليه لعرفوا للصديق فضله، وقبلوا منه عذره الذي يجب على كل أحد قبوله، ولكنهم طائفة مخذولة، وفرقة مرذولة، يتمسكون بالمتشابهة، ويتركون الأمور المقررة عند أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين من بعدهم من العلماء المعتبرين في سائر الأعصار والأمصار، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين».

وقد ثبت عن فاطمة رضي الله عنها أنها رضيَت عن أبي بكر بعد ذلك، وماتت وهي راضية عنه، على ما روى البيهقي بسنده عن الشعبي أنه قال: «لما مرضت فاطمة أتاها أبوبكر الصديق فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة، هذا أبوبكر يستأذن عليك؟ فقالت: أتحبّ أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار والمال، والأهل والعشيرة، إلاّ ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله،

ومرضاتكم أهل البيت، ثم ترضّاها حتى رضيت». قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي، والظاهر أن عامر الشعبي سمعه من عليٍّ، أو ممن سمعه من علي».

وبهذا فإن كانت السيدة فاطمة رضي الله عنها قد غضبت على أبى بكر في بداية الأمر فقد رضيت عنه بعد ذلك، وماتت وهي راضية عنه، ولا يسع أحدًا صادقًا في محبته لها، إلاّ أن يرضى عمن رضيت عنه، ولا يعارض هذا ما ثبت في حديث عائشة: «إنما يأكل آل رسول الله ﷺ من هذا المال، وإني والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ، فأبى أبوبكر أن يدفع لفاطمة منها شيئًا، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت».

فإن هذا بحسب علم عائشة رضي الله عنها راوية الحديث، وفي حديث الشعبي زيادة علم، وثبوت زيارة أبي بكر لها وكلامها له ورضاها عنه، فعائشة رضي الله عنها نفت والشعبي أثبت، ومعلوم لدى العلماء أن قول المثبت مقدم على قول النافي؛ لأن احتمال الثبوت حصل بغير علم النافي، خصوصًا في مثل هذه المسألة، فإن عيادة أبي بكر لفاطمة رضي الله عنها ليست من الأحداث الكبيرة التي تشيع في الناس، ويطّلع عليها الجميع، وإنما هي من الأمور العادية التي تخفى على من لم يشهدها، والتي لا يعبأ بنقلها لعدم الحاجة لذكرها، على أن الذي ذكره العلماء أن فاطمة رضي الله عنها لم تتعمد هجر أبي بكر رضي الله عنه أصلًا، ومثلها ينزه عن ذلك لنهي النبي ﷺ عن الهجر فوق ثلاث، وإنما لم تكلمه لعدم الحاجة لذلك، قال القرطبي صاحب المفهم في سياق شرحه لحديث عائشة المتقدم: «ثم إنها -أي فاطمة- لم تلتق بأبي بكر لشغلها بمصيبتها برسول الله ﷺ ولملازمتها بيتها، فعبر الراوي عن ذلك بالهجران، وإلاّ فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»، وهي أعلم الناس بما يحل من ذلك ويحرم، وأبعد الناس عن مخالفة رسول الله ﷺ، وكيف لا تكون كذلك وهي بضعة من رسول الله ﷺ وسيدة نساء أهل الجنة»؟!

وقال النووي: «وأما ما ذكر من هجران فاطمة أبا بكر رضي الله عنه فمعناه انقباضها عن لقائه، وليس هذا من الهجران المحرَّم، الذي هو ترك السلام والإعراض عند اللقاء، وقوله في هذا الحديث: (فلم تكلمه) يعني في هذا الأمر، أو لانقباضها لم تطلب منه حاجة ولا اضطرت إلى لقائه فتكلمه، ولم ينقل قط أنهما التقيا فلم تسلم عليه ولا كلمته، لقد انشغلت فاطمة رضي الله عنها عن كل شيء بحزنها لفقدها أكرم الخلق، وهي مصيبة تزري بكل المصائب، كما أنها انشغلت بمرضها الذي ألزمها الفراش عن أية مشاركة في أي شأن من الشؤون، فضلًا عن لقاء خليفة المسلمين المشغول لكل لحظة من لحظاته بشؤون الأمة، وحروب الردة وغيرها، كما أنها كانت تعلم بقرب لحوقها بأبيها، فقد أخبرها رسول الله ﷺ بأنها أول من يلحق به من أهله، ومن كان في مثل علمها لا يخطر بباله أمور الدنيا، وما أحسن قول المهلب الذي نقله العيني: ولم يرو أحد أنهما التقيا وامتنعا عن التسليم، إنما لازمت بيتها، فعبر الراوي عن ذلك بالهجران».

ومما يدل على أن العلاقة كانت وطيدة بين الصدِّيق والسيدة فاطمة إلى حد أن زوجة أبي بكر أسماء بنت عميس هي التي كانت تمرِّض فاطمة بنت النبي ﷺ، ورضي الله عنها، في مرض موتها، وكانت معها حتى الأنفاس الأخيرة، وشاركت في غسلها وترحيلها إلى مثواها، وكان علي رضي الله عنه يمرضها بنفسه وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وقد وصتها بوصايا في كفنها ودفنها وتشييع جنازتها، فعملت أسماء بها، فقد قالت السيدة فاطمة لأسماء: «إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها»، فقالت أسماء: «يا بنت رسول الله ﷺ، ألا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوبًا»، فقالت فاطمة: «ما أحسن هذا وأجمله! به لاتعرف المرأة من الرجال».

وعن ابن عبد البر: «أن فاطمة رضي الله عنها أول من غُطِّي نعشُها في الإسلام، ثم زينب بنت جحش»، وكان الصديق دائم الاتصال بعلي من ناحية ليسأله عن أحوال

بنت النبي ﷺ خلاف ما يزعمه القوم، فمرضت -أي فاطمة رضي الله عنها- وكان علي يصلي في المسجد الصلوات الخمس، فلما صلى قال له أبوبكر وعمر: «كيف بنت رسول الله»؟ ومن ناحية أخرى من زوجه أسماء حيث كانت هي المشرفة والممرضة الحقيقية لها، ولما قبضت فاطمة من يومها فارتجت المدينة بالبكاء من الرجال والنساء، ودهش الناس كيوم قبض فيه رسول الله ﷺ، فأقبل أبوبكر وعمر يعزيان عليًّا ويقولان: «يا أبا الحسن، لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله»، وقد توفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة، روى ابن مالك بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين، قال: «ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء فحضرها أبوبكر وعمر وعثمان والزبير وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم فلما وضعت ليصلَّى عليها، قال علي: تقدّم يا أبا بكر، قال أبوبكر رضي الله عنه: وأنت يا أبا الحسن؟ قال: نعم، فوالله لا يصلِّي عليها غيرك، فصلّى عليها أبوبكر رضي الله عنه ودفنت ليلًا».

وجاء في رواية: «صلى أبوبكر رضي الله عنه على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكبّر عليها أربعًا»، وفي رواية مسلم: «صلّى عليها علي بن أبي طالب» وهي الرواية الراجحة.[1]

1- انظر: البداية والنهاية - لابن كثير، والاستيعاب لابن عبدالبر.

بينَ الصديق وأهل البيت النبوي

كانت صلة سيدنا أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ بأعضاء أهل البيت، صلة ودية تقديرية تليق به وبهم، كانت هذه المودة والثقة متبادلة، وكانت من المتانة بحيث لا يتصوّر معها التباعد والاختلاف مهما نسج المسامرون الأساطير والأباطيل؛ فالصديقة عائشة بنت الصديق بنت أبي بكر كانت زوجة النبي ﷺ، ومن أحب الناس إليه مهما احترق الحساد ونقم المخالفون، فإنها حقيقة ثابتة وهي طاهرة مطهرة بشهادة القرآن مهما جحدها المبطلون وأنكرها المنكرون، ثم أسماء بنت عميس التي كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب شقيق علي، فمات عنها وتزوجها الصديق، وولدت له ولدًا سماه محمدًا الذي ولاّه على مصر، ولما مات أبوبكر تزوجها علي بن أبي طالب فولدت له ولدًا سماه يحيى.

وحفيدة الصديق كانت متزوجة من محمد الباقر -الإمام الخامس عند الروافض وحفيد علي رضي الله عنه-، وقد نقل الأستاذ إحسان إلهي ظهير من كتب الروافض ما يثبت التلاحم والمصاهرة بين بيت النبوة وبيت الصديق.

فقد أثبت أن قاسم بن محمد بن أبي بكر حفيد أبي بكر، وعلي بن الحسين بن علي أبي طالب حفيد علي كانا ابني خالة، فأم قاسم بن محمد وعلي بن الحسين هما بنتا يزدجرد بن شهريار بن كسرى -اللتان كانتا من سبي الفرس في عهد عمر رضي الله عنه-، وتوسع إحسان إلهي ظهير في إثبات المصاهرات وعلاقات المودة والتراحم المتبادل بين أهل البيت وبيت الصديق، وكان من حب أهل البيت للصديق والتوادّ ما بينهم أنهم سموا أبناءهم بأسماء أبي بكر رضي الله عنه، فأولهم علي بن أبي طالب حيث سمّى أحد أبنائه أبا بكر، وهذا دليل على حب ومؤاخاة وإعظام وتقدير عليٍّ للصديق رضي الله عنهما.

ومما يذكر أنه ولد له هذا الولد بعد تولية الصديق الخلافة والإمامة، بل وبعد وفاته كما هو معروف بداهة، وهل يوجد في الشيعة اليوم المتزعمين حب علي وأولاده رجل يسمّى بهذا الاسم، وهل هم موالون له أم مخالفون؟ وعلي رضي الله عنه لم يسم بهذا ابنه إلاّ تيمنًا بالصديق وإظهارًا له المحبة والوفاء وحتى بعد وفاته، وإلاّ فلا يوجد في بني هاشم رجل قبل علي سمى ابنه بهذا الاسم، ثم لم يقتصر عليّ بهذا التيمن والتبرك وإظهار المحبة والصداقة للصديق بل بعده بنوه أيضًا مشوا مشيه ونهجوا نهجه، فالحسن والحسين، سمّى كل واحد منهما أحد أولادهما بأبي بكر، فقد ذكر ذلك اليعقوبي والمسعودي وهما من مؤرخي الروافض، واستمر أهل البيت يسمون من أسماء أولادهم بأبي بكر، فقد سمّى ابن أخي علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب فإنه سمّى أحد أبنائه باسم أبي بكر، وهذه من إحدى علامات الحب والود بين القوم، خلاف ما يزعمه الروافض اليوم من العداوة والبغضاء والقتال الشديد والجدال الدائم بينهم.

وكان علي رضي الله عنه من ضمن من استشارهم الصديق فيمن يتولى الخلافة من بعده، وكان رأي علي أن يتولى الخلافة بعد الصديق الفاروق.(1)

ولما حان الرحيل ونزل الموت بأبي بكر، كان آخر ما تكلم به الصديق في هذه الدنيا قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

وحين أعلن نبأ وفاة أبي بكر رضي الله عنه في المدينة وقف عَلِيٌّ عَلَى البيت الذي فيه أبوبكر فقال:

«رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله ﷺ وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم يقينًا، وأشدهم لله تقوى، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله هديًا وسمتًا، وأشرفهم منزلة،

1- الكامل في التاريخ لابن الأثير، المختصر من كتاب الموافقة للزمخشري.

وأرفعهم عنده، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء، صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سمّاك الله في تنزيله صديقًا فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 33]، واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة، ثاني اثنين صاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وأمته، أحسن الخلافة حين ارتدوا، فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ وهنوا، وكنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله، متواضعًا في نفسك عظيمًا عند الله تعالى، جليلًا في أعين الناس كبيرًا في أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز، ولا لقائل فيك مهمز، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف عندك قوي عزيز حتى تأخذ بحقه، القريب والبعيد عندك سواء، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم... شأنك الحق والصدق، والرفق، قولك حكم وحتم، أمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، اعتدل بك الدين، وقوي بك الإيمان، وظهر أمر الله، فسبقت والله سبقًا بعيدًا، وأتعبت من بعدك إتعابًا شديدًا، وفزت بالخير فوزًا مبينًا، فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: من الآية 156]، رضينا عن الله عز وجل قضاءه وسلّمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدًا، كنت للدين عزًّا، وحرزًا وكهفًا، فألحقك الله عز وجل بنبيك رسول الله ﷺ ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك»، فسكت الناس حتى قضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا: «صدقت».(1)

وجاء في رواية: إن عليًّا قال عندما دخل على أبي بكر بعدما سجّي: «ما أحد أحب أن ألقى الله بصحيفته أحب إليّ من هذا المسجّى». (2)

وهذا قليل من كثير عن محبة الإمام علي رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه.

1- كتاب أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. علي بن أبي طالب.
2- المصدر السابق.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه

يقول صاحب كتاب عمر والتشيع / حسن العلوي عن عمر رضي الله عنه:

يوصف عمر بن الخطاب بأنه ضخم جسيم، مديد القامة، تعلو هامتُه هاماتِ الجمع كلها. فإذا كانت أعلى قامة في المعدل تزيد على المائة والتسعين سنتيمترًا في قياساتنا فإن هامة تعلو هامات الجمع كلها ستربو على المترين إلاّ قليلًا. وسيكون تقدير وزنه، مابين مائة وعشرة كيلوغرامات إلى مائة وخمسة وعشرين تقريبًا وهذا ظن لا نقطع به.

يروى أن الناس جمعوا في مكة على صعيد واحد، فإذا رجل قد علاهم جميعًا فكان هو عمر بن الخطاب، وفي رواية لابن سعد في الطبقات أنه علاهم بثلاثة أذرع! وهذا من المبالغة غير المعقولة.

يقول محمد حسين هيكل في كتابه الفاروق عمر: «لقد بلغ من إكبار المؤرخين لسيرته أن أضافوا أمورًا أدنى إلى المعجزات التي خُصَّ بها الأنبياء، وإن ذكروا ما لا يستطيع المؤرخ إثباته، وعمر في غير حاجة إلى شيء من ذلك يضاف إلى سيرته، ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق إلى عمر لأغنوا من جاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها ولجنّبوهم الاختلاف على مبلغ صحتها. ولما طفف ذلك من قدر عمر.

هل وأد ابنته؟ أصحيح أنه وأد ابنته على طريقة بعض قبائل العرب في بعض أماكنهم والمجهول من أزمانهم..؟.

لعلها فرية كبرى أراد بها أتباعه ومحبوه أن يبرهنوا على ما أحدثه فيه الإسلام من انعطاف وما كان هو عليه في جاهليته من جهل وقسوة تكون ذِروتها أن يدفن الأب

ابنته حيّة وكأنها ظاهرة يومية وعرف لا تحيد عنه، فيما يروى أن عمه عمرو بن نفيل كان بسبب إحساسه الإنساني ونبذه لتلك العادة التي فرضت أخبارها علينا يدفع ثمن من يراد وأدها فيتبناها أو أن يترك لأهلها مالًا يعيلون به الموءودة.

فلماذا لم يدفع لابن أخيه جملًا أو جملين ثمنًا لشراء ابنته لتبقى حية؟ إذا كان عمر لا يجد في قبيلته من يعيل طفلة؟ كما يقول العقاد.

ولماذا لم يئد ابنته حفصة التي ولدت قبل البعثة النبوية، وهل عرف عن بني عدي أنهم يئدون بناتهم، أم أن المعروف والسائد في الروايات أن زعماءهم كانوا على سنة عمرو بن نفيل.؟

عندما أمر على هذه الرواية أتذكر المرحوم حندش ابن عمة والدتي محمد بن محمود وهو دليمي من قرية الكرابلة هذه التي صارت اسمًا يتداوله صحافيو العالم لرفضها الوجود الأمريكي، أقول أتذكر حندش بطيبته وفطرته ونقائه يبارك لصديقه الحاج مهدي عودته من أداء فريضة الحج قائلًا بين حشد من أهل الكرادة: سبحان الله سبحان الله، كيف يتغير الإنسان بالحج وماذا يفعل الإيمان، أتذكر يا حاج مهدي قبل ثلاثة شهور كيف كنت تسرق الدجاج من بيت جوري؟؟.

إن المؤرخين الذين يتحدثون عن وأد عمر لابنته، لا يختلفون عن رأي حندش بالحجي مهدي.

إن التشهير بعمر الجاهلي، لا يخدم عمر الإسلامي، وخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام.

أما حياة عمر بأسلوب الحياة الجاهلية، فهو لا ينتقص منه مثلما لا ينتقص من أي صحابي قادم إلى الإسلام من العصر الجاهلي.

ويضيف: تاريخيًّا وبإجماع لم يخرج عليه مؤرخ، أن عمر بن الخطاب هو ناشر الإسلام العراقي ومؤسس العراق العربي الأول.

ولو كان عمر من أباطرة الأمم والشعوب، التي مرت على العراق فأقامت أو زحلت، لكان «العمريون» هو الاسم الذي يتسمى به سكان الرافدين، بدلًا من لقبهم الوطني حاليًا، مثلما نمى أهل تلك البلاد بالسومريين والآشوريين والبابليين ثم العثمانيين.

وتاريخ العراق العمري يبدأ في العام الثاني عشر للهجرة بقرار بناء مدينة البصرة، ثم الكوفة من بعدها، لتشكل هاتان المدينتان الجِذر المزروع لحضارة عربية إسلامية، ستنشأ وتربو وتهيء لأبي جعفر المنصور بناء المدينة الثالثة التي استعصم فيها، فصارت بغداد مركز تلك الحضارة، والبصرة والكوفة جناحيها اللذين طارت بهما من الصين إلى أبواب فرنسا.

ويقول عباس محمود العقاد في عبقرية عمر:

«إن طبيعة الجندي في صفتها المثلى، هي أصدق مفتاح للشخصية العمرية في أهم الخصائص التي تجتمع لطبيعة الجندي في صفتها المثلى، كالشجاعة والحزم والصرامة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز في حدود التبعات أو المسؤوليات.

هذه الخصائص تتجمع في ألوف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش، حتى عرف الناس أخيرًا أنها لازمة للجندي في أمثل حالاته، وكل هذه الخصائص عمرية لا شك فيها. وعمر وحده واضح بين أمثاله في جميع هذه الخصائص». (1)

وقد أتى عمر رضي الله عنه إلى الخلافة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنهما وبوصية منه وكان حال الإمام عليٍّ رضي الله عنه معه كما كان الحال مع من سبقه الخليفة الأول من الحب والتعاون فقد كان علي رضي الله عنه هو المستشار الأول، فقد كان عمر رضي الله عنه يعرف لعلي فضله، وفقهه، وحكمته، وكان رأيه فيه حسنًا، فقد ثبت قوله فيه: أقضانا عليٌّ، وقال ابن الجوزي: كان أبوبكر وعمر يشاورانه، وكان

1- عمر والتشيع - حسن العلوي.

عمر يقول: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن، وقال مسروق: كان الناس يأخذون عن ستة: عمر وعليّ وعبد الله وأبي موسى وزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب وقال: شاممت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة نفر: عمر، وعليّ، وعبد الله، وأبي الدرداء، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين منهم: إلى علي، وعبد الله، وقال أيضًا: انتهى العلم إلى ثلاثة: عالم بالمدينة، وعالم بالشام، وعالم بالعراق. فعالم المدينة علي بن أبي طالب، وعالم الكوفة عبد الله بن مسعود، وعالم الشام أبو الدرداء، فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق، عالم المدينة ولم يسألهما، فكان عليّ من هؤلاء المقربين، يشدّ من أزر أخيه، ولا يبخل عليه برأيه، ويجتهد معه في إيجاد حلول للقضايا، التي لم يرد فيها نصّ، وفي تنظيم أمور الدولة الفتية.

ويذكر د. علي الصلابي حفظه الله بعضًا من تلك الشواهد الدالة علَى تعاون الإمام علي رضي الله عنه مع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فيقول:

أولًا: في الأمور القضائية:

1 - **امرأة تعتريها نوبات من الجنون:** عن أبي ظبيان الجنبي: أن عمر بن الخطاب أُتي بامرأة قد زنت، فأمر برجمها، فذهبوا بها ليرجموها، فلقيهم علي -رضي الله عنه- فقال: ما هذه؟ قالوا: زنت فأمر عمر برجمها، فانتزعها عليّ من أيديهم وردّهم، فرجعوا إلى عمر، فقال: ما ردّكم؟ قالوا: ردنا عليّ، قال: ما فعل هذا عليّ إلاّ لشيء قد علمه، فأرسل إلى عليّ، فجاء وهو شبه المغضب، فقال: مالك رددت هؤلاء؟ قال: أما سمعت النبي ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقل؟» قال: بلى، قال عليّ: فإن هذه مبتلاة بني فلان، فلعله أتاها وهو بها، فقال عمر: لا أدري، فلم يرجمها، فقد كان عمر لا يعلم أنها مجنونة.

2 - **مضاعفة الحد لمن شرب الخمر**: أخذ عمر برأي علي -رضي الله عنهما- في مضاعفة الحد لمن شرب الخمر، وذلك لانتشار شرب الخمر وخاصة في البلاد المفتوحة، وهي حديثة العهد بالإسلام، فأشار عليّ على عمر -رضي الله عنهما- بأن يجلد فيها ثمانين، كأخف الحدود، وعلّل ذلك بقوله: نراه إذا سكر هذى وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون، وقد ثبت عن عليّ -رضي الله عنه- أنه قال: ما كنت أقيم حدًّا على أحد، فيموت، وأجد في نفسي، إلاّ صاحب الخمر، فإنه لو مات وديته، وذلك لأن رسول الله ﷺ لم يسنّه. وأول البيهقي قوله: (لم يسنّه) زيادة على الأربعين، أو لم يسنّه بالسياط وقد سنّه بالنعال وأطراف الثياب مقدار أربعين والله أعلم، وقد استنبط الفقهاء من أفعال الخلفاء الراشدين مقدار الحد في الخمر، على قول مالك والثوري وأبي حنيفة ومن تبعهم ثمانون، لإجماع الصحابة، ومن قال إن الحد أربعون: أبوبكر، والشافعي، وقول لأحمد، وتحمل الزيادة على ذلك من عمر-رضي الله عنه- على أنها تعزير يجوز فعله إذا رآه الإمام، وهذا هو القول الصحيح للشافعي، وهذا الرأي مال إليه ابن تيمية أيضًا وقال:.. فأما مع قلة الشاربين وقرب أمر الشارب، فتكفي الأربعون.

3 - **لا سلطان لك على ما في بطنها**: أُتي عمر -رضي الله عنه- بامرأة حامل فسألها عمر فاعترفت بالفجور، فأمر بها عمر تُرْجم، فلقيها عليّ فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر بها أمير المؤمنين أن ترجم، فردها علي فقال: أأمرت بها أن ترجم؟ قال: نعم، اعترفت عندي بالفجور! قال: هذا سلطانك عليها، فما سلطانك على ما في بطنها؟ قال علي: فلعلك انتهرتها، أو أخفتها؟ قال: قد كان ذاك، قال: أو ما سمعت النبي ﷺ يقول: «لا حد على معترف بعد بلاء، أنه من قيدت أو حبست أو تهددت فلا إقرار له» فخلى عمر سبيلها، ثم قال: عجزت النساء أن تلد مثل علي بن أبي طالب، لو لا علي لهلك عمر.[1]

1- انظر: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - مصدر سابق.

وقد علق ابن تيمية على هذه القصة: إن هذه القصة إن كانت صحيحة، فلا تخلو من أن يكون عمر لم يعلم أنها حامل، فأخبره عليٌّ بحملها، ولا ريب أن الأصل عدم العلم، والإمام إذا لم يعلم أن المستحقة للقتل أو الرجم حامل، فعرّفه بعض الناس بحالها، كان هذا من جملة إخباره بأحوال الناس... إلى أن قال عن عمر، يعطي الحقوق، ويقيم الحدود، ويحكم بين الناس كلهم، وفي زمنه انتشر الإسلام، وظهر ظهورًا لم يكن قبله مثله، وهو دائمًا يقضي، ويفتي ولولا كثرة علمه لم يطق ذلك، فإذا خفيت عليه قضية من مائة ألف قضية ثم عرفها أو كان نسيها فذكرها فأي عيب في ذلك؟ وكان رده هذا في سياق رده على الروافض.

4 - **ردوا الجهالاتِ إلى السنة:** أتي عمر بامرأة أنكحت في عدتها، ففرق بينهما، وجعل صداقها في بيت المال وقال: لا أجيز مهرًا ردّ نكاحه، وقال: لا تجتمعان أبدًا، فبلغ ذلك عليًّا فقال: وإن كانوا جهلوا السنة لها المهر بما استحل من فرجها ويفرق بينهما، فإذا انقضت عدتها فهو خاطب من الخطاب، فخطب عمر الناس فقال: ردوا الجهالات إلى السنة، ورجع عمر إلى قول عليّ.

5 - **هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي:** قال جعفر بن محمد: أُتي عمر بن الخطاب بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار وكانت تهواه، فلما لم يساعدها احتالت عليه، فأخذت بيضة، فألقت صفارها، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها ثم جاءت إلى عمر صارخة، فقالت: هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي، وهذا أثر فعاله، فسأل عمر النساء فقلن له: إن ببدنها وثوبها أثر المني، فهمّ بعقوبة الشاب، فجعل يستغيث ويقول: يا أمير المؤمنين تثبّت في أمري، فو الله ما أتيت فاحشة وما هممت بها، فقد راودتني عن نفسي فاعتصمت، فقال عمر: يا أبا الحسن ما ترى في أمرهما؟ فنظر علي إلى ما على الثوب، ثم دعا بماء حار شديد الغليان، فصبّ على الثوب فجمد ذلك البياض ثم أخذه واشتمه، وذاقه، فعرف طعم البيض، وزجر المرأة فاعترفت.[1]

1- المصدر السابق.

ونستخلص من هذه الواقعة بعض الدروس:

(أ) أن وسائل الإثبات في القضاء الإسلامي كانت تشمل الإقرار والشهادة واليمين والنكول.. وتتسع لتشمل الأمارات والفراسة.

(ب) اهتمام عمر بمشاورة كبار الصحابة في النوازل، وعلى الخصوص عليٍّ- رضي الله عنهما- الذي كانت منزلته عنده متميزة.

ثانيًا: علي -رضي الله عنه- والتنظيمات المالية والإدارية العُمرية:

1 - في الأمور المالية:

(أ) **نفقات الخليفة:** لما ولي عمر بن الخطاب أمر المسلمين بعد أبي بكر مكث زمانًا، لا يأكل من بيت المال شيئًا حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، ولم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته؛ لأنه اشتغل عنها بأمور الرعية، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم في ذلك فقال: قد شغلت نفسي في هذا الأمر، فما يصلح لي فيه؟ فقال عثمان بن عفان: كل وأطعم، وقال ذلك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقال عمر لعلي: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداء وعشاء، فأخذ عمر بذلك، وقد بين عمر حظه من بيت المال فقال: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة قيم اليتيم، إن استغنيت عنه تركت، وإن افتقرت إليه أكلت بالمعروف.

(ب) **رأي علي في أرض السواد بالعراق:** لما فُتحت أرض السواد بالعراق عنوة، أشار عدد من الصحابة - رضوان الله عليهم- على عمر بتقسيمها بين الفاتحين، ولكن لسعة الأرض وجودتها، ونظرة عمر البعيدة لمن سيأتي بعد ذلك، لم يطمئن عمر لتقسيمها، فاستشار عليًّا في ذلك فكان رأيه موافقًا لرأي الخليفة عمر ألاّ تقسّم فأخذ برأيه وقال: لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلاّ قسمتها بين أهلها، كما قسم النبي ﷺ خيبر.[1]

1- انظر: خلافة علي بن أبي طالب - عبدالحميد علي، كُتاب الأموال - القاسم بن سلام.

(ج) **لا جرم لتقسمنه:** أُتي عمر بمال فقسمه بين المسلمين، وفضلت منه فضلة، فاستشار فيها الصحابة، فقالوا له: لو تركته لنائبة إن كانت، وفي القوم علي ساكت، فأراد عمر أن يسمع رأي علي في ذلك، فذكّره علي بحديث مال البحرين حين جاء إلى النبي ﷺ وأنه قسمه كله، فقال عمر لعلي: لا جرم لتقسمنه، فقسمه علي، ويبدو أن هذا كان قبل تقسيم الدواوين.[1]

2 - علي -رضي الله عنه- والأمور الإدارية:

عندما احتاج عمر -رضي الله عنه- أن يضع تاريخًا رسميًّا ثابتًا لتنظيم أمور الدولة وضبطها، جمع الناس وسألهم: من أي يوم نكتب التاريخ؟ فقال علي رضي الله عنه: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك، ففعله عمر، وقد كان عمر -رضي الله عنه- يراه من أفضل من يقود الناس فقد ورد عنه أنه كان يناجي رجلًا من الأنصار، فقال: من تحدثون أنه يستخلف من بعدي؟ فعد الأنصاري المهاجرين ولم يذكر عليًّا، فقال عمر: فأين أنتم من علي؟ فو الله لو استخلفتموه، لأقامكم على الحق وإن كرهتموه. وقال لابنه عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما - بعد أن طعن: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق.[2]

3 - استخلف عمر عليًّا على المدينة مرارًا:

(أ) استخلافه حين خرج عمر إلى ماء صراء فعسكر فيه: وذلك قبيل القادسية، وكان الفرس قد حشدوا للمسلمين، فجمع عمر الناس فاستشارهم فكلهم أشار عليه بالميسر.[3]

(ب) استخلافه عند نزول عمر بالجابية: وذلك حين نزل عمرو بن العاص أجنادين، فكتب إليه أرطبون الروم، والله لا تفتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع

1- مسند الإمام أحمد، خلافة علي بن أبي طالب - عبدالحميد علي.
2- خلافة علي بن أبي طالب - عبدالحميد علي - مسند الحارث. والأجلح: الحيوان الذي لا قرن له.
3- المنتظم لابن الجوزي - والميسر: أي: الأسهل.

لا تغر، وإنما صاحب الفتح رجل اسمه على ثلاثة أحرف، فعلم عمرو أنه عمر، فكتب يعلمه أن الفتح مدخر له، فنادى له الناس، واستخلف علي بن أبي طالب.

(ج) استخلاف علي حين حج عمر بأزواج النبي ﷺ: وهى آخر حجة حجها بالناس كانت سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وكان مع أمهات المؤمنين أولياؤهن ممن لا يحتجبن منه، وخلف على المدينة علي بن أبي طالب.

ثالثًا: استشارة عمر لعليٍّ -رضي الله عنهما- في أمور الجهاد وشؤون الدولة:

كان علي -رضي الله عنه- المستشار الأول لعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وكان عمر يستشيره في الأمور الكبيرة منها والصغيرة، وقد استشاره حين فتح المسلمون بيت المقدس، وحين فتحت المدائن، وعندما أراد عمر التوجه إلى نهاوند وقتال الفرس، وحين أراد أن يخرج لقتال الروم، وفي وضع التقويم الهجري وغير ذلك من الأمور، وكان علي -رضي الله عنه- طيلة حياة عمر مستشارًا ناصحًا لعمر، محبًّا له خائفًا عليه، وكان عمر يحب عليًّا، وكانت بينهما مودة ومحبة وثقة متبادلة، ومع ذلك يأبي أعداء الإسلام إلاّ أن يزوِّروا التاريخ، ويقصوا بعض الروايات التي تناسب أمزجتهم ومشاربهم ليصوروا لنا فترة الخلفاء الراشدين عبارة عن أن كل واحد منهم كان يتربص بالآخر الدوائر لينقضّ عليه، وكل أمورهم كانت تجري من وراء الكواليس.

إن من أبرز ما يلاحظه المتأمل في خلافة عمر تلك الخصوصية في العلاقة، وذلك التعاون المتميز الصافي، بين عمر وعلي-رضي الله عنهما- فقد كان علي هو المستشار الأول لعمر في سائر القضايا والمشكلات، وما اقترح على عمر رأيًا إلاّ واتجه عمر إلى تنفيذه عن قناعة، وكان علي -رضي الله عنه- يمحِّضه النصح في كل شؤونه وأحواله، فمثلًا عندما تجمّع الفرس بنهاوند في جمع عظيم لحرب المسلمين جمع عمر- رضي الله عنه - الناس واستشارهم في المسير إليهم بنفسه، فأشار عليه عامة الناس بذلك، فقام إليه علي - رضي الله عنه- فقال: أما بعد، يا

أمير المؤمنين، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإنك إن أشخصت أهل اليمن إلى ذراريهم من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات، أقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة، فليتفرقوا ثلاث فرق: فرقة في حرمهم وذراريهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددًا لهم. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا قالوا: هذا أمير العرب وأصلها، فكان ذلك أشد لكلبهم عليك، وأما ما ذكرت من مسير القوم، فإن الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر، فقال عمر: هذا هو الرأي كنت أحب أن أتابَع عليه.

كانت نصيحة علي نصيحة المحب لعمر الغيور عليه، والضنين ألاّ يذهب، وأن يدير رحى الحرب بمن دونه من العرب وهو في مكانه، وحذّره من أنه إذا ذهب، فلسوف ينشأ وراءه من الثغرات ما هو أخطر من العدو الذي سيواجهه، أرأيت لو أن رسول الله ﷺ أعلن أن الخلافة من بعده لعلي، أفكان لعلي أن يرغب عن أمر رسول الله ﷺ هذا، وأن يؤيد المستلبين لحقه بل لواجبه في الخلافة بمثل هذا التعاون المخلص البنّاء؟ بل أفكان للصحابة -رضوان الله عليهم- كلهم أن يضيعوا أمر رسول الله ﷺ؟

بل أفكان من المتصوّر أن يجمعوا وفي مقدمتهم علي -رضوان الله عليه- على ذلك؟ بوسعنا أن نعلم إذن بكل بداهة، أن المسلمين إلى هذا العهد - نهاية عهد عمر - بل إلى نهاية عهد علي كانوا جماعة واحدة، ولم يكن في ذهن أي من المسلمين أي إشكال بشأن الخلافة، أو شأن من هو أحق بها.

إن كثرة مشاورة عمر لعلي- رضي الله عنهما- وغيره من الصحابة، لا يعني هذا أنه دونهم في الفقه والعلم، فقد بينت الأحاديث الصحيحة التي تدل على علوِّ علمه، واكتمال دينه، ولكن إيمانه وحبه للشورى، وتعويده للحكام فيما بعد على المشاورة، وعدم الاستبداد بالأمر والرأي، وإلا فإن عليًّا -رضي الله عنه- كان كثيرًا ما يرجع

عن رأيه إلى رأي عمر، فقد جاء عن عائشة- رضي الله عنها- في معرض حديثها عن عمر قولها: وقد كان علي -رضي الله عنه- يتابع عمر بن الخطاب، فيما يذهب إليه ويراه، مع كثرة استشارته عليًّا، حتى قال علي -رضي الله عنه-: يشاورني عمر في كذا، فرأيت كذا، ورأى هو كذا، فلم أر إلاّ متابعة عمر.(1)

ومن دلائل حب علي رضيَ الله عنه لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه زوجه من ابنته فاطمة بنت النبي ﷺ من الفاروق حينما سأله زواجها منه -رضي الله عنه- بما يطلب، وثقة فيه وإقرارًا لفضله ومناقبه، واعترافًا بمحاسنه وجمال سيرته، وإظهارًا بأن بينهما من العلاقات الوطيدة الطيبة والصلات المحكمة المباركة ما يحرق قلوب الحساد من أعداء الأمة المجيدة، ويرغم أنوفهم، فقد كان عمر يكن لأهل البيت محبة خاصة لا يكنّها لغيرهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ ولما أوصى به رسول الله ﷺ من إكرام أهل البيت ورعاية حقوقهم، فمن هذا الباعث خطب عمر أم كلثوم ابنة علي وفاطمة -رضوان الله عليهم- وتودّد إليه في ذلك قائلًا: فو الله ما على الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد، فقال علي: قد فعلت، فأقبل عمر إلى المهاجرين، وهو مسرور قائلًا: رفئوني.. ثم ذكر أن سبب زواجه منها ما سمعه من النبي ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلاّ ما كان من سببي ونسبي»، فأحببت أن يكون بيني وبين رسول الله ﷺ سبب، ولقد أقر بهذا الزواج كل أهل التاريخ والأنساب وجميع محدثي الشيعة وفقهائهم ومكابريهم ومجادليهم وأئمتهم المعصومين حسب زعمهم، ولقد أورد الشيخ إحسان إلهي ظهير روايات بخصوص ذلك في كتابه الشيعة والسنة، ولقد ذكر هذا الزواج علماء أهل السنة في التاريخ، وأجمعت مصادرهم عليه، ومن العلماء الذين ذكروا هذا الزواج: الطبري، وابن كثير، والذهبي، وابن الجوزي والديار بكرى، وقد ذكر هذا الزواج في كتب التراجم، كابن حجر، وابن سعد، وأسد الغابة.

وقد ولدت أم كلثوم بنتُ علي من عمر -رضي الله عنه- ابنة سمّيت (رقية)

1- المختصر من كتاب الموافقة - إسماعيل بن علي السمان وفقه السيرة - للبوطي.

وولدًا سمته زيدًا، وقد روى أصحاب زيد أن زيدًا بن عمر حضر مشاجرة في قوم من بني عدي بن كعب ليلًا فخرج إليهم زيد بن عمر ليصلحهم فأصابته ضربة شجت رأسه ومات من فوره، وحزنت أمه لقتله، ووقعت مغشيًّا عليها من الحزن فماتت من ساعتها، ودفنت أم كلثوم وابنها زيد بن عمر في وقت واحد، وصلى عليهما عبد الله ابنُ عمر بنِ الخطاب، قدمه الحسن بن علي بن أبي طالب، وصلى خلفه.

عن أسلم العدوي قال: لما بويع لأبي بكر بعد النبي ﷺ كان علي والزبير بن العوام يدخلان على فاطمة فيشاورانها، فبلغ عمر، فدخل على فاطمة فقال: يا بنت رسول الله، ما أحد من الخلق أحب إلينا من أبيك، وما أحد من الخلق بعد أبيك أحب إلينا منك، وكلّمها، فدخل علي والزبير على فاطمة فقالت: انصرفا راشدين، فما رجعا إليها حتى بايعا، وهذا هو الثابت الصحيح والذي مع صحة سنده ينسجم مع روح ذلك الجيل وتزكية الله له. وقد زاد الروافض في هذه الرواية واختلقوا إفكا وبهتانًا وزورًا، وقالوا إن عمر قال: إذا اجتمع عندك هؤلاء النفران لأحرقن عليهم هذا البيت؛ لأنهم أرادوا شق عصا المسلمين بتأخرهم عن البيعة، ثم خرج عنها، فلم يلبث أن عادوا إليها، فقالت لهم: تعلمون أن عمر جاءني وحلف بالله لئن أنتم عدتم إلى هذا البيت ليحرقنه عليكم، وايم الله، إنه ليصدقن فيما حلف عليه، فانصرفوا عني فلا ترجعوا إليّ ففعلوا ذلك، ولم يرجعوا إليها إلاّ بعدما بايعوا.

يقول د. علي الصلابي: وهذه القصة لم تثبت عن عمر -رضي الله عنه- ودعوى أن عمر -رضي الله عنه- همّ بإحراق بيت فاطمة، من أكاذيب الرافضة، أعداء صحابة رسول الله، وقد أوردها مع أكاذيب أخرى الطبري الطبرسي في كتابه دلائل الإمامة، عن جابر الجعفي، وهو رافضي كذاب باتفاق أئمة الحديث كما في الميزان للذهبي، وتهذيب التهذيب، وزعم بعض الروافض أن عمر ضرب فاطمة حتى أسقط ولدها محسنًا وهو في بطنها، وهذه من الأكاذيب الرافضة التي لا أساس لها من الصحة، وما علموا أنهم يطعنون في علي -رضي الله عنه- وذلك باتهامه بالجبن والسكوت عن عمر، وهو من

أشجع أصحاب النبي ﷺ بل إن بعض كتب الروافض أنكر صحة هذا الهذيان والزور، علمًا بأن محسنًا ولد في حياة النبي ﷺ كما ثبت ذلك بالرواية الصحيحة.

الخلاف بين العباس وعلي وحكم عمر -رضي الله عنهم- بينهما:

قال مالك بن أوس: بينما أنا جالس في أهلي حين متع النهار، إذا رسول عمر بن الخطاب يأتيني، فقال: أجب أمير المؤمنين، فانطلقت معه حتى دخلت على عمر، فإذا هو جالس على رمال سرير ليس بينه وبينه فراش، متكئ على وسادة من أدم، فسلّمت عليه ثم جلست، فقال: يا مالك، إنه قدم علينا من قومك أهل أبيات، وقد أمرت فيهم برضخ، فاقبضه فاقسمه بينهم، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أمرت به غيري، قال: اقبضه أيها المرء، فبينما أنا جالس عنده أتاه حاجبه يرفأ.

فقال: هل لك في عثمان وعبدالرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص، يستأذنونك؟ قال: نعم، فأذن لهم فدخلوا فسلموا وجلسوا، ثم جلس يرفأ يسيرًا، ثم قال: هل لك في عليّ وعباس؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلا فسلّما فجلسا، فقال عباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا، وهما يختصمان فيما أفاء الله على رسوله ﷺ من مال بني النضير، فقال الرهط - عثمان وأصحابه-: يا أمير المؤمنين، اقض بينهما، وأرح أحدهما من الآخر.

قال عمر: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه؟

قال الرهط: قد قال ذلك، فأقبل عمر على عليّ، وعباس، فقال: أنشدكما بالله، أتعلمان أن رسول الله ﷺ قد قال ذلك؟ قالا: قد قال ذلك، قال عمر: فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله قد خصّ رسوله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: 6].

فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ووالله ما احتازها دونكم، ولا أستأثر بها عليكم، قد أعطاكموها، وبثها فيكم، حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي، فيجعله مالَ الله، فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته، أنشدكما بالله، هل تعلمان ذلك؟

قال عمر: ثم تَوَفَّى الله نبيه ﷺ فقال أبوبكر: أنا وليّ رسول الله ﷺ والله يعلم أنه فيها لصادق بار راشد تابع للحق، ثم توفى الله أبا بكر، فكنت أنا وليّ أبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي، أعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ، وما عمل فيها أبوبكر، والله يعلم أني فيها لصادق بار راشد تابع للحق، ثم جئتماني تكلماني وكلمتكما واحدة وأمركم واحد، جئتني يا عباس، تسألني نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا «يريد عليًّا» يريد نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما: إن رسول الله قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة» فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت: إن شئتما دفعتها إليكما، على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ وما عمل أبوبكر، وبما عملت فيها منذ وليتها، فقلتما: ادفعها إلينا، فبذلك دفعتها إليكما، فأنشدكم بالله هل دفعتها إليهما بذلك؟ قال الرهط: نعم، ثم أقبل على عليّ وعباس فقال: أنشدكم بالله، هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالا: نعم، قال: فتلتمسان مني غير ذلك، فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، لا أقضي فيها قضاء غير ذلك، فإن عجزتما عنها فادفعاها إليّ، فإني أكفيكماها (صحيح البخاري).

لما طُعن عمرُ -رضي الله عنه- وظن أنه سيفارق الحياة، وأخذ المسلمون يدخلون عليه، ويقولون له: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط- الذين توفّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمّى عليًّا، وعثمان، والزبير وطلحة وسعدًا وعبدالرحمن، ثم دعا خاصتهم، وهم: عبدالرحمن، وعثمان، وعلي فوعظهم. إن عمر -رضي الله عنه- إمام وعليه أن يستخلف الأصلح للمسلمين، فاجتهد في ذلك ورأى أن الستة الذين تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وهو عنهم

راض أحق من غيرهم، وهو كما رأى، فإنه لم يقل أحد أن غيرهم أحق منهم، وجعل التعيين إليهم خوفًا أن يعين واحدًا منهم، ويكون غيره أصلح لهم، فإنه ظهر له رجحان الستة دون رجحان التعيين، وقال: الأمر في التعيين إلى الستة يعينون أحدًا منهم، وهذا اجتهاد إمام عادل ناصح لا هوى له رضي الله عنه، وهو نموذج واقعي لتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، فكان ما فعله من الشورى مصلحة.

روى البخاريُّ في صحيحه عن ابن عباس رضي الله أنه قال: وُضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون، قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يرعني إلاّ رجل آخذ منكبي، إذا علي بن أبي طالب، فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدًا أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كنت كثيرًا ما أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبوبكر وعمر، ودخلت أنا وأبوبكر وعمر، وخرجت أنا وأبوبكر وعمر.[1]

ومن دلالة محبة أهل البيت الفاروقَ - رضي الله عنه - تسمية أبنائهم باسمه، حبًّا وإعجابًا بشخصيته، وتقديرًا لما أُتى به من الأفعال الطيبة والمكارم العظيمة، ولما قدم إلى الإسلام من الخدمات الجليلة، وإقرارًا بالصلات الودية الوطيدة التي تربطه بأهل بيت النبوة والرحم، والصهر القائم بينه وبينهم؛ فأوّل من سمى ابنه باسمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، سمّى ابنه من أم حبيب بنت ربيعة البكرية عمر، وقد جاء في كتاب صاحب الفضول، حتى ذكر أولاد علي بن أبي طالب: وعمر من التغلبية، وهى الصهباء بنت ربيعة من السبي الذي أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر، وعُمر عمر هذا حتى بلغ خمسًا وثمانين سنة، فحاز نصف ميراث علي رضي الله عنه، وذلك أن جميع إخوانه وأشقائه وهم عبد الله وجعفر وعثمان قتلوا جميعهم قبله مع الحسين رضي الله عنه - يعني أنه لم يقتل معهم - فورثهم، هذا وتبعه حسن في ذلك الحب

1- انظر: البداية والنهاية - مصدر سابق.

لعمر بن الخطاب -رضي الله عنهم- فسمى أحد أبنائه عمر أيضًا، وكذلك الحسين بن علي سمّى عمر، ومن بعد الحسين ابنه علي الملقب بزين العابدين سمّى أحد أبنائه عمر.

وكذلك موسى بن جعفر الملقب بالكاظم سمّى أحد أبنائه عمر، فهؤلاء الأئمة من أهل البيت الذين ساروا على هَدْيِ النبي ﷺ ومعالم منهج أهل السنة والجماعة بسيرتهم العطرة يظهرون لعمر الفاروق ما يكنّونه في صدورهم من حبهم وولائهم له بعد وفاته بمدة، وقد جرى هذا الاسم، وكذلك أبوبكر وعثمان في ذرية أهل البيت ممن ساروا على مذهب الحق وهو منهج أهل السنة والجماعة إلى يومنا هذا، ونجد أسماء الصحابة وأمهات المؤمنين في البيوت الهاشمية التي التزمت بالكتاب والسنة، فقد سمّوا طلحة، وعبدالرحمن وعائشة وأم سلمة ونحن ندعو الشيعة اليوم إلى الاقتداء بعلي والحسن والحسين وسائر الأئمة من آل البيت، فيسمّون بعض أبنائهم وبناتهم بأسماء الخلفاء الراشدين، وأمهاتِ المؤمنين. نرجو ذلك.[1]

1- انظر: كتاب أسمى المطالب في سيرة علي بن أبي طالب، د. علي الصلابي.

الإمام علي رضي اللّه عنه والخليفة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه

كانت خلافة سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه بعد مقتل واستشهاد الخليفة العادل الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على يد اللعين أبي لؤلؤة المجوسيّ، وكانت الخلافة تنعقد للخليفة على أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بأن يتشكّل مجلس للشورى من أهل الحلّ والعقد، ويكون مناط بهم مسئولية اختيار خليفة للمسلمين، فكان رضيَ الله عنه أن اختار ستّة من كبار الصحابة حتّى يكون أهلًا للشورى وبما يسمّى بانتخاب الخليفة القادم وهؤلاء الستّة هم: عليّ بن أبي طالب، عثمان بن عفان، عبدالرحمن بن عوف، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص، طلحة ابن عبيد الله، وأمرهم أن يجتمعوا ومعهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وقد أوضح الخليفة عمر بن الخطّاب رضيّ الله عنه وهو في نزعه الأخير، أن يحضر ابنه عبد الله التحكيم وليسّ له من أمر الخلافة من شيء، فكانت الشورى تدور بين هؤلاء الستّة حتّى وقع الإختيار على خليفة للمسلمين وهو ذو النورين عثمان بن عفّان رضي الله عن وأرضاه.

وبعد اجتماع هؤلاء فوَّض سعد ما له في ذلك إلى عبدالرحمن بن عوف، والزبير إلى علي، وطلحة إلى عثمان.

فقال عبدالرحمن بن عوف لعلي وعثمان: أيكما يبرأ من هذا الأمر، فنفوض الأمر إليه ليولي أفضل الرجلين الباقيين، فسكت عثمان وعلي فقال عبدالرحمن: إني أترك حقي في ذلك، وسأجتهد فأولي أولاكما بالحق، فقالا: نعم، ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق، لئن ولاه ليعدلن، ولئن ولى عليه ليسمعن وليطيعن، فقال كل منهما: نعم.

ثم تفرقوا، ثم نهض عبدالرحمن يستشير الناس فيهما، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعًا وأشتاتا، مثنى وفرادى ومجتمعين، سرًّا وجهرًا، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان بن عفان، إلا من نقل عن عمار والمقداد أنهما أشارا بعلي ابن أبي طالب.

فلما كانت الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة وعثمان فقال المسور: فقلت: بأيهما أبدأ؟

فقال: بأيهما شئت.

فذهب المِسْوَرُ بن مخرمة إلى علي ثم إلى عثمان، فأحضرهما، ثم خرج بهما عبدالرحمن إلى المسجد، ونودي في الناس: الصلاة عامة، ثم صعد المنبر فوقف وقوفا طويلا، ودعا دعاء طويلا، لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس إني سألتكم سرا وجهرا بأمانيكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إما علي وإما عثمان، فقم يا علي فقام إليه، فوقف تحت المنبر فأخذ عبدالرحمن بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال: فأرسل يده، وقال: إلي يا عثمان، فأخذ بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم نعم.

قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان.

قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، وبهذا تمت خلافة عثمان على المسلمين برضا واختيار منهم.[1]

1- البداية والنهاية لابن كثير.

علي رضي اللّه عنه
ومقتل عثمان رضي اللّه عنه

قُتل الخليفة الراشد الثالث ذو النورين صهر النبي ﷺ، على اثنتين من بناته رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما، وأشد هذه الأمة حياء، جامع القرآن، الذي كان يقوم به وربما يقرؤه كله في ركعة واحدة من الليل، أمير المؤمنين المقتول ظلمًا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان مقتله في 18 من ذي الحجة 35هـ على أيدي جماعة مارقة قارب عددهم الألفين، اختلفت أغراضهم وأهواؤهم غير أنهم اتفقوا جميعًا على عزله أولًا ثم على قتله بعد ذلك وكلهم قتلة له.

غير أن الذين باشروا قتله هم: كنانة بن بشر التجيبي وهو الذي ذبحه: وقيل سودان ابن حمران السكوني بعد أن طعنه قتيرة السكوني تسع طعنات من خنجر، وكان الذي ابتدأ ضربه، بعد أن هاب الناس ذلك لكونه كان يقرأ القرآن هو الغافقي بن حرب العكي، ضربه بالسيف وركل المصحف برجله فسقط في حجره، وسقطت قطرة دم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 137].

وهؤلاء المذكورون من أهل مصر، وشاركتهم جماعة من أهل البصرة كحرقوص ابن زهير السَّعدي وحكيم بن جبلة، ومن أهل الكوفة جماعة مثل الأشتر مالك بن الحارث النخعي.

وقد كفى الله تعالى عثمان رضي الله عنه كل من شارك في قتله فمات مقتولًا حتى قتل آخر رجلين منهم بعد أربعين سنة من ذلك قتلهما الحجاج بن يوسف الثقفي من أجل قتلهما عثمان وهما: عمير بن ضابئ البرجمي، وكميل بن زياد النخعي. ومن القتلة المباشرين قتل اثنان فور مقتله، قتلهما عبيد عثمان وهما قتيرة السكوني وقيل الآخر هو سودان بن حمران السكوني.

وقُتل كنانة النخعي مخذولًا في الحرب بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص وقتل محمد بن أبي بكر بعدها، ومات الأشتر النخعي من شربة عسل مسمومة بالسويس، وقتل حكيم بن جبلة اللص في معركة البصرة قتلته جماعة عائشة وطلحة والزبير.[1]

وكان قتل أكثرهم بأمر طلحة والزبير رضي الله عنهما بعد معارك بالبصرة فقتلوا كل من شارك من أهل البصرة وكانوا نحو ستمائة رجل ولم ينج منهم إلا حرقوص بن زهير السعدي قتل بعد ذلك بمدة وكانت قد منعته قبيلته.

ولم يقتل علي رضي الله عنه هؤلاء ولم يمكنه قتلهم لأنه كان يرى أن تتم البيعة له أولًا وتستقر وتهدأ الأمور ثم يحاكمهم ويقتص منهم، ولم يمكنه ذلك لعدم مبايعة كثير من الصحابة له وعلى رأسهم عائشة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وخروج كثير من البلاد عليه وقيام الثورات الداخلية والفتن.. وأَضف إلى ذلك اختلاط هؤلاء القتلة بالناس بعد استيلائهم على المدينة وكانوا هم الغالبين وبيدهم السلاح ثم اختلاطهم بجيشه، حتى أعلن بعد صلحه أولًا مع طلحة والزبير ألا يرجع معه للمدينة أحد شارك في قتل عثمان، ثم حدثت بعد ذلك الفتنة بسبب هؤلاء بأن هجموا على كلا المعسكرين معسكر علي ومعسكر طلحة والزبير ليلًا وأوقعوا فيهم القتل وظن كل معسكر أن الآخر هو الذي هجم عليه، فكانت بينهم واقعة الجمل، ثم انفرط عقد الأمورمن يد علي فاستقل معاوية بالشام وأعلن نفسه خليفة، وخرجت مصر واليمن ومكة والمدينة نفسها والبصرة ولم يبق لعلي إلا الكوفة وهي لا تستقر وفيها معه عدد كبير من هؤلاء القتلة، وكان قد خرج عليه الخوارج وما زالوا ينازعونه الأمر حتى قتلوه مظلومًا في سنة 40 هـ فرضي الله عنه ورحمه من إمام عادل وحبر عامل.[2]

وكذلك معاوية رضي الله عنه لم يحاكم من بقيَ منهم وكان أكثرهم قد قتل قبل مبايعته بالخلافة، وأهم سبب -والله أعلم- هو الشرط الذي اشترطه عليه الحسن بن علي لما تنازل لمعاوية عن الخلافة في ربيع الأول سنة 41هـ وذلك أنه اشترط عليه

1- انظر: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - د. علي الصلابي، الشيعة وأهل البيت - لإحسان إلهي ظهير.
2- المصدر السابق.

حقن دماء المسلمين جميعًا -خاصة الذين قاتلهم معاوية من جماعة علي- وأن يرفع السيف حتى تجتمع الأمة، وتخمد الفتنة لأنه وضح للجميع أن الحروب التي كانت من أجل دم عثمان ثار منها شر مستطير وأضعفت الأمة حتى طمع فيها الأعداء من الروم وأرادوا غزو الشام، وتعطل الجهاد، وتوقفت الفتوحات.

ولا نعلم من حوكم من قتلة عثمان لا من قبل علي ولا الحسن ولا معاوية ولا من أحد بعدهم اللهم إلا من قتلهم الحجاج والمختار الثقفي.

وكان سبب مقتل عثمان رضي الله عنه أنهم نسبوا إلى عثمان رضي الله عنه زورًا جملة أمور أخذوها عليه.

وإجمالًا فقد أخذوا عليه توليته عددًا من أقاربه الولايات كمعاوية ومروان بن الحكم، وإنفاقه الأموال الضخمة على أقاربه من بني أمية.. وقد أثبت لهم أنه كان ينفق عليهم من ماله الخاص وكان أغنى أصحاب النبي ﷺ، ونقموا عليه أنه عاقب عددًا من الصحابة كأبي ذر نفاه إلى الربذة، وضرب ابن مسعود وغيره، وأخذوا عليه جمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة للقرآن، وتحريقه المصاحف، وأنه علا درجة في المنبر على درجة رسول الله ﷺ، وقد انحط أبوبكر وعمر عنها، ومنهم من كان يرى أنه خدع عليًّا وتولى مكانه وكان الأحق بالخلافة علي.

وهذه الشبهات مردود عليها في كتب العلماء وأهل السير. (1)

ثم إنه دخلت دوافع ومطامع شخصية كثيرة.. فمن هؤلاء من كان عاقبه عثمان بحد أو تعزير فنقم عليه، ومنهم من طمع في المال، ومنهم من أغراه لين عثمان ورحمته وإحسانه إليه، ومنهم من كان ناقمًا على الدين مثل عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ادعى الإسلام وهو الذي قاد هذه الفتنة من خلف الأستار، وثبت أنه جاء مع أهل مصر لقتل عثمان، وكان يرمز لنفسه بالموت الأسود، والسبئية أتباعه هم الذين كانوا سببًا في نشوب أكثر الفتن وظهور البدع والمقالات المخالفة للإسلام. (2)

1- انظر البداية والنهاية لابن كثير - وكتاب (العواصم من القواصم) للقاضي أبي بكر بن العربي.
2- انظر ابن سبأ مؤسس الماسونية في الإسلام، منصور عبدالحكيم، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

رد فعل الصحابة رضوان الله عليهم تجاه مقتل عثمان رضي الله عنه

قبل مقتل عثمان رضي الله عنه دخل عليه أبناء الصحابة للمرة الأخيرة، وطلبوا منه أن يسمح لهم بالدفاع عنه، فأقسم عثمان رضي الله عنه على كل من له عليه حق أن يكفّ يده، وأن ينطلق إلى منزله، ثم قال لغلمانه: من أغمد سيفه، فهو حرّ، فأعتق بذلك غلمانه، وقال رضي الله عنه إنه يريد أن يأخذ موقف ابن آدم الذي قال: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المائدة: 28 - 29]، فكان آخر الناس خروجًا من عند عثمان رضي الله عنه هو الحسن ابن علي رضي الله عنهم.

وبعد وصول خبر مقتله رضي الله عنه إلى الصحابة رضي الله عنهم، فقال الزبير ابن العوام رضي الله عنه: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم ترحّم على عثمان، وبلغه أن الذين قتلوه ندموا فقال: تبًّا لهم.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يس: 49 - 50].

ولما بلغ عليًّا رضي الله عنه هذا الخبر، وقيل: كان بحضرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حينما بلغه هذا الخبر، الحسن، والحسين، وعبد الله بن الزبير، ومحمد ابن طلحة بن عُبيد الله، فلطم الحسين، وضرب الحسن، في صدره، وسبّ عبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، وقال لهم: كيف يقتل، وهو بين أيديكم؟!

ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

ثم قالوا له: إنهم قد ندموا على ما فعلوا.

فقال لهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: 16].

ولما بلغ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أمر قتل عثمان رضي الله عنه استغفر له وترحم عليه، وتلا في حق الذين قتلوه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: 103 - 104].

ثم قال سعد: اللهم اندمهم ثم خذهم، ودعوته رضي الله عنه مستجابه لدعوة رسول الله ﷺ له أن يكون مستجاب الدعوة، واستجاب الله عز وجل لدعوته، فقد أقسم بعض السلف بالله: إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولا، وتأخر بعض هؤلاء القتلة إلى زمن الحجاج، وقتل على يده، ولم يفلت أحد منهم من القتل، وباءوا بشرَّيْ الدنيا والآخرة.(1)

1- البداية والنهاية - لابن كثير.

5 علي رضي الله عنه خليفة للمسلمين (٣٥ - ٤٠ هجرية)

- مبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة بعد دفن عثمان رضي الله عنه عام ٣٥ هجرية.
- مقدمات معركة الجمل.
- نشوب معركة الجمل.
- واقعة (صِفِّين) بين أهل العراق أنصار الإمام علي رضي الله عنه وأهل الشام أنصار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.
- خروج الخوارج على الإمام علي رضي الله عنه بعد لجوء طرفَيْ النزاع من صفين إلى التحكيم.
- قتال الخوارج للإمام علي رضي الله عنه.
- معركة النهروان بين الإمام علي رضي الله عنه والخارجين عليه.

دفن عثمان ومبايعة علي رضي الله عنهما بالخلافة (25 ذو الحجة عام 35 هجرية)

في يوم الجمعة 18 من ذي الحجة 35 هـ قبل صلاة المغرب؛ تقدم مجموعة من الصحابة إلى بيته وصلوا عليه في بيته بين المغرب والعشاء، وهذا على أصح الأقوال، وبعض الروايات تقول إنهم صلوا عليه في اليوم الثاني، وتقول روايات أخرى إنهم صلّوا عليه في اليوم الثالث، وأصحها القول الأول.

وحمله الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا إلى مكان خارج المدينة يسمى (حش كوكب) وهو غير المكان الذي يدفن فيه أهل المدينة موتاهم، وقد ذهب به الصحابة رضوان الله عليهم إلى هذا المكان؛ لأنهم كانوا يخشون عليه من أهل الفتنة أن يخرجوا جسده، ويمثّلوا به، أو أن يقطعوا رأسه رضي الله عنه كما حاولوا ذلك بعد قتله.

ويروى الإمام مالك رضي الله عنه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه عندما كان يمرّ على هذا المكان وهو حي (حش كوكب) كان يقول: يدفن هاهنا رجل صالح.

فغسلوه رضي الله عنه، وكفنوه، وصلوا عليه، وفي بعض الروايات أنهم لم يغسلوه، وصلى عليه أحد الصحابة، إما أبو هريرة، وإما المسوَر بن مخرمة وقيل غيرهما.

وبعد أن دفن رضي الله عنه، حمل الصحابة رضي الله عنهم الرقيقين اللذين قتلا في بيته رضي الله عنه، ودفنوهما بجواره رضي الله عنهم جميعًا.[1]

مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة:

في تلك الفترة كان على المدينة أمير أهل الفتنة الغافقي بن حرب، وقد سارع المتمردون من أهل مصر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقولون له: نبايعك على الإمارة.

1- المصدر السابق.

فسبّهم، ولعنهم، ورفض ذلك، وطردهم، وذهب إلى حائط- بستان- من حيطان المدينة، وذهب المتمردون من أهل الكوفة إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه، وطلبوا منه أن يكون أميرًا، ففعل معهم مثل ما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذهب كذلك أهل البصرة إلى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وأرضاه وطلبوا أن يكون أميرًا، فرفض ذلك وردهم، وتحيّـر أهل الفتنة فيمن يتولّى خلافة المسلمين، وحتى هذه اللحظة لم يفكّر المتمردون في تولية أحدهم أميرًا على المسلمين، وإنما جعلوا الغافقي أميرهم أميرًا على المدينة إلى أن يتم اختيار الأمير، وكان يصلّي خلفه المتمردون، وأهل المدينة، واستمر الحال على هذا الأمر خمسة أيام.

وسارع الصحابة رضوان الله عليهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقالوا له: أنت أحق الناس بهذا الأمر فامدد يدك نبايعْك.

ورفض علي رضي الله عنه هذا الأمر، وازدادت حيرة أهل الفتنة، فذهبوا إلى سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، فرفض هذا الأمر تمامًا، فقالوا له: أنت ممن رضيَ عنهم رسول الله ﷺ، ورضي عنهم عمر، ولكنه رضي الله عنه رفض.

فذهبوا إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فرفض أيضًا، فرجعوا مرة أخرى إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الصحابة رضوان الله عليهم لعلي رضي الله عنه: إن لم تكن أميرًا، فسوف يجعلون الأمير منهم، يعني أهل الفتنة، فاجتمع على علي رضي الله عنه بعض الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا، وبعض أهل الفتنة، وطلبوا منه أن يكون الأمير، وكان أول من بايعه الأشتر النخعي، وكان ممن خرج مع أهل الفتنة من الكوفة، وسبب خروجه مع أهل الفتنة شيئان متعارضان:

الأول: غلوُّه في الدين، وظنه أن ما كان يدّعى على عثمان رضي الله عنه يستوجب خلعه من الخلافة، وإلا قتله.

والثاني: أنه كان يحب الرئاسة والزعامة، وكانت له كلمة على أهل الفتنة، وعلى أهل الكوفة، وله قوم، وعشيرة.

وأمام هذا الضغط المتزايد عَلَى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قبل بالأمر، لكنه اشترط أولًا أن يبايعه بدايةً طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضي الله عنهما؛ لأنه خشي إن ولّي الأمر أن ينقلب أهل الكوفة، أو البصرة، ويطلبون طلحة، أو الزبير رضي الله عنهما ليكون أميرًا، ويحدثون فتنة أخرى، فذهبوا إلى طلحة، والزبير رضي الله عنهما فقالا: دم عثمان أولًا.

وبعد جدال ونقاش وأنه لا بدّ من تولية أحد حتى لا تتسع الفتنة أكثر من ذلك فوافقا على البيعة، فذهب طلحة بن عبيد الله، وبايع عليًّا رضي الله عنه، وهو ما زال على المنبر وكان في انتظار مبايعتهما، فبايع طلحة رضي الله عنه بيده اليمنى، وكانت شلّاء ويوجد رواية ضعيفة تشير إلى أن رجلًا ممن بالمسجد قام، فقال: والله إن هذا الأمر لا يتم أول يد تبايع يد شلّاء.

وإن صح هذا القول، فالمعنى فاسد؛ لأن هذه اليد هي من خير الأيدي الموجودة في المدينة المنورة، وقد شلّت عندما كان يدافع صاحبها عن رسول الله ﷺ يوم أحد، عندما أطلق مالك بن الربيع سهمًا على الرسول ﷺ، وكان لا يطلق سهمًا إلا أصابه، فأسرع طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ووضع يده ليردَّ بها السهم عن الرسول ﷺ فشُلَّت يده، ودافع رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ دفاعًا شديدًا في هذه الغزوة حتى طعن أكثر من أربع وعشرين طعنة، وكان الصديق أبوبكر رضي الله عنه كلما تذكر غزوة أحد يقول: والله هذا يوم طلحة.

هذه اليد التي بايعت عليًّا رضي الله عنه وأرضاه، إنما هي يد مباركة.

ثم جاء الزبير بن العوّام رضي الله عنه وأرضاه، وبايع عليًّا رضي الله عنه، وما قيل إن الزبير رضي الله عنه قال: بايعت والسيف على رقبتي. كلام باطل وهي رواية موضوعة، وليس لها أساس من الصحة.[1]

ثم قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ووقف على المنبر وأعلن قبوله لأن يكون

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

أميرًا للمؤمنين، وذلك في اليوم الخامس لاستشهاد عثمان رضي الله عنه، وخطب رضي الله عنه خطبة عصماء، ذكَّر الناس فيها بالآخرة، وبغّضهم في الدنيا، ولعن من سعى في الأرض فسادًا.

إلى هذا الوقت، وإن كان عليًّا رضي الله عنه قد أصبح خليفة للمسلمين، إلا أن الأمر لا زال بيد المتمردين الذين يحملون السلاح، وهم أكثر عددًا، وعدّة من أهل المدينة.

في هذا الوقت يذهب طلحة والزبير رضي الله عنهما إلى علي رضي الله عنه بوصفه خليفة المسلمين ويقولان له: دم عثمان، فهما رضي الله عنهما يريدان منه رضي الله عنه أن يقتل من قتل عثمان رضي الله عنه.

فقال لهما: إن هؤلاء لهم مدد وعون وأخشى إن فعلنا ذلك بهم الآن أن تنقلب علينا الدنيا.

كان تفكير علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينتظر حتى تهدأ الأمور ويتملك زمامها جيدًا، وبعدها يقتل قتلة عثمان بعد محاكمتهم بشكل عادل ويعزّر من يرى تعزيره، أما الآن، فهؤلاء القتلة لهم من القوة، والمنعة في المدينة، وفي أقوامهم في الكوفة، والبصرة، ومصر ما لو قتلهم لأحدث ذلك فتنة عظيمة، وانقلب كثير من الناس بقبليّتهم، وعصبيتهم على الدولة الإسلامية.

فلما سمع طلحة والزبير رضي الله عنهما ذلك من علي رضي الله عنه، قالا له: ائذن لنا بالعمرة، فأذن لهما، فتركا المدينة، وتوجها إلى مكة ومكثا فيها وقتًا.

بدأ الإمام علي رضي الله عنه في دراسة أحوال الدولة الإسلامية وكيفية دَرْءِ آثار الفتنة التي حدثت، وكان الأمر بيد المتمردين بشكل واضح، وكان لهم كلمة مسموعة حتى إن عليًّا رضي الله عنه اضطر- مع كراهته لهم جميعًا- أن يولّي بعضهم على بعض المهام في الدولة، كالأشتر النخعي، وذلك نظرًا لكلمتهم المسموعة، وسيطرتهم على الأمور.

كان على الكوفة وقت تولّي علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وعلى البصرة عبد الله بن عامر رضي الله عنه، وكان على مصر عبدالله ابن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه، ولكن في هذا الوقت كان قد تغلب عليها محمد ابن أبي حذيفة، وكان أحد معاوني عبد الله بن سبأ، وكان يعمل من الباطن دون أن يظهر، وكان على الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وعلى اليمن يعلى بن أمية التميمي.

رأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بدايةً تغيير هؤلاء الأمراء درءًا للفتنة التي زعم أهلها المطاعن على هؤلاء الأمراء، ورأى رضي الله عنه أن يولّى من يصلح للسيطرة على الأمور في هذا التوقيت.

أما معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقد وصله خبر قتل عثمان رضي الله عنه، ووصله القميص، وأصابع وكف السيدة نائلة، وقالت له السيدة نائلة رضي الله عنها في الرسالة التي بعثت بها إليه: إنك ولي عثمان.

وهو بالفعل وليه؛ لأنه من بني أمية، فلم يبايع معاوية رضي الله عنه عليًّا رضي الله عنه، واشترط أن يأخذ بثأر عثمان رضي الله عنه، وأن يقتص من قاتليه، وإن من لم يفعل ذلك، فقد عطّل كتاب الله، ولا تجوز ولايته، فكان هذا اجتهاده رضي الله عنه، ووافقه على هذا الاجتهاد مجموعة من كبار الصحابة، منهم قاضي قضاة الشام أبوالدرداء رضي الله عنه، وعُبادة بن الصامت وغيرهما.[1]

وهذا الأمر، وإن كان اجتهادًا، إلا أنهم قد أخطأوا في هذا الاجتهاد، وكان الحق مع علي رضي الله عنه، وكان الصواب أن يبايعوه رضي الله عنه، ثم بعد ذلك يطالبون بالثأر لعثمان رضي الله عنه بعد أن تهدأ الأمور، ويستطيع المسلمون السيطرة على الموقف، لكن معاوية رضي الله عنه كان على إصرار شديد على أن يأخذ الثأر أولًا قبل البيعة، وإن أخذ علي رضي الله عنه الثأر فلا بأس المهم أن يقتلوا، وقال رضي الله عنه: إن قتلهم علي بايعناه.

1- المصدر السابق.

وجاء عبد الله بن عباس رضي الله عنه ناصحًا لعلي رضي الله عنه ألا يغيّر أمراء الأمصار، حتى تهدأ الأمور نظرًا للفتنة القائمة، لكن عليًّا رضي الله عنه أصرّ على رأيه بتغيير الولاة، فولّى عليّ عبد الله بن عباس على اليمن، وعثمان بن حنيف رضي الله عنه على البصرة، وعمارة بن شهاب رضي الله عنه على الكوفة، وسهل بن حنيف رضي الله عنه على الشام، وقيس بن سعد رضي الله عنه على مصر.

أما عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقد ذهب إلى اليمن، وتولّى الإمارة بها، وذهب عثمان بن حنيف إلى البصرة، وفاجأ أهلها بصعود المنبر وأعلن رضي الله عنه أنه الأمير، فانقسم الناس منهم من وافقه، ومنهم من قال: لا نقبل إمارتك إلا بعد أخذ الثأر لعثمان رضي الله عنه.

لكن الأغلب كان معه وتمكنت له الأمور، واستطاع السيطرة على البصرة، أما عمارة بن شهاب فقد قابله طلحة بن خُوَيْلد على باب الكوفة، ومنعه من دخولها بالقوة، وردّه إلى علي رضي الله عنه، وتفاقم الأمر بالكوفة، ولما أرسل علي رضي الله عنه يستوثق من الأمر جاءته رسالة من أبي موسى الشعري أن جل أهل الكوفة على الطاعة له، أي لعلي رضي الله عنه.

أما سهل بن حنيف رضي الله عنه المتوجه إلى الشام، فقد قابلته خيل معاوية رضي الله عنه على أطراف الشام، فقالوا له: من أنت؟

فقال: سهل بن حنيف.

فقالوا له: ولم جئت؟

قال: جئت أميرًا.

فقالوا له: إن كنت قد جئت من طرف عثمان فأهلًا، وإن كنت قد جئت من طرف عليٍّ فارجع، وإلا دخلت الشام على دمائنا.

ورجع رضي الله عنه إلى المدينة.

أما قيس بن سعد المتوجه إلى مصر فقد وصل إليها، وتمكن من الأمور، وقد انقسم أهل مصر إلى ثلاث طوائف، كان الأغلب منهم مبايعًا لقيس بن سعد، والبعض امتنع عن إبداء الرأي، والبعض قالوا: إنهم مع من يطالب بدم عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يحثّه على مبايعته لئلا يكون خارجًا عليه، لكن معاوية رضي الله عنه يرى باجتهاده أن عدم الأخذ بثأر عثمان رضي الله عنه مخالفة لكتاب الله، وأن من خالف كتاب الله لا تجوز مبايعته، ولم يكن في تفكير معاوية رضي الله عنه خلافة، ولا إمارة كما يشاع في كتب الشيعة، بل وفي كتب بعض أهل السنة الذين ينقلون دون تمحيص أو توثيق.

أرسل علي رضي الله عنه ثلاث رسائل إلى معاوية رضي الله عنه دون أن يرد معاوية، إلا أنه أرسل لعلي رضي الله عنه رسالة فارغة، حتى إذا فتحها أهل الفتنة في الطريق لا يقتلون حاملها، ودخل حامل الرسالة على علي رضي الله عنه مشيرًا بيده أنه رافض للبيعة، فقال لعلي رضي الله عنه: أعندك أمان؟

فأمّنه عليّ رضي الله عنه.

فقال له: إن معاوية يقول لك: إنه لن يبايع إلا بعد أخذ الثأر من قتلة عثمان، تأخذه أنت، وإن لم تستطع أخذناه نحن.

فرفض ذلك علي رضي الله عنه، وقال: إن معاوية خارج عن الولاية، ومن خرج يقاتل بمن أطاع. أي أنه رضي الله عنه رأى أن يستعين بمن أطاعه على من عصاه.

فقرر رضي الله عنه أن يجمع الجيوش، ويتوجه بها إلى الشام، وإن لم يبايع معاوية رضي الله عنه يقاتَل، هذا الاجتهاد هو الصحيح في مثل هذه الموقف.

بدأ عليٌّ رضي الله عنه يستنصر بالمسلمين، فأرسل رسالة إلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، وإلى عثمان بن حنيف في البصرة، وإلى قيس بن سعد في مصر، وإلى

عبدالله بن عباس في اليمن يستمد منهم المدد لهذا الأمر، وخالفه في ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه، لكن عليًّا رضي الله عنه أصرّ وجاء إليه ابنه الحسن وقال له: يا أبت، دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم.

فلم يقبل منه علي رضي الله عنه هذا الأمر، وأصرَّ على القتال واستعد رضي الله عنه للخروج إلى الشام.

استخلف علي رضي الله عنه على المدينة ابن عمه قثم بن عباس رضي الله عنه، وجهز الجيش للخروج، فكان على الميمنة عبد الله بن عباس رضي الله عنه، ولم يمنعه الخلاف معه في الرأي أن يخرج معه، وعلى الميسرة عمرو بن أبي سلمة، وعلى المقدمة أبو ليلى بن عمرو الجرّاح، وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم وأرضاهم جميعًا.

وبينما علي رضي الله عنه خارج بجيشه من المدينة متوجِّهًا إلى الشام حدث في مكةَ أمر لم يكن متوقَّعًا فغيّر علي رضي الله عنه من خطته بالكلية.

كان بمكة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وزوجات رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين عدا السيدة أم حبيبة، فقد كانت بالمدينة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم جميعًا، وأيضًا يَعْلَى بن أمية التميمي الذي كان واليًا لعثمان رضي الله عنه على اليمن، ولما حدثت الفتنة جاء إلى مكة، ومعه ستمائة من الإبل، وستمائة ألف درهم من بيت مال اليمن، واجتمع كل هؤلاء الصحابة، وبدءوا في مدارسة الأمر وكان رأيهم جميعًا- وكانوا قد بايعوا عليًّا رضي الله عنه- أن هناك أولوية لأخذ الثأر لعثمان رضي الله عنه، وأنه لا يصح أن يؤجل هذا الأمر بأي حال من الأحوال، وقد تزعّم هذا الأمر الصحابيان طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام رضي الله عنهما.. وكان هذا الأمر مقدمةً لموقعة الجمل. كما سيأتي بيانها إن شاء الله. [1]

1-انظر البداية والنهاية لابن كثير .

قال ابن كثير في ذكر بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة:

يقال: إن أول من بايعه طلحة بيده اليمنى وكانت شلاء من يوم أحد - لما وقى بها رسول الله ﷺ - فقال بعض القوم: والله إن هذا الأمر لا يتم، وخرج علي إلى المسجد فصعد المنبر وعليه إزار وعمامة خز ونعلاه في يده، توكأ على قوسه، فبايعه عامة الناس، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

ويقال: إن طلحة والزبير إنما بايعاه بعد أن طلبهما وسألاه أن يؤمرهما على البصرة والكوفة.

فقال لهما: بل تكونا عندي أستأنس بكما، ومن الناس من يزعم أنه لم يبايعه طائفة من الأنصار، منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة، ذكره ابن جرير من طريق المدائني، عن شيخ من بني هاشم، عن عبد الله بن الحسن.

قال المدائني: حدثني من سمع الزهري يقول: هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليًّا، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة.

قلت: وهرب مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وآخرون إلى الشام.

وقال الواقدي: بايع الناس عليًّا بالمدينة، وتربص سبعة نفر لم يبايعوا، منهم ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن أبي مَسْلَمة، وسلمة ابن سلامة بن وَقَشٍ، وأسامة بن زيد، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم.

وذكر سيف بن عمر، عن جماعة من شيوخه قالوا: بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر.

والمصريون يلحون على علي وهو يهرب منهم إلى الحيطان، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا: فيما بينهم لا نولي

أحدا من هؤلاء الثلاثة، فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص، فقالوا: إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا في أمرهم.

ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم، فرجعوا إلى علي فألحوا عليه، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس، وأهل الكوفة يقولون: أول من بايعه الأشتر النخعي وذلك يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك، وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا علي، فلما كان يوم الجمعة وصعد علي المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس، وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء، فقال قائل: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم الزبير، ثم قال الزبير: إنما بايعت عليًّا واللج على عنقي والسلام، ثم راح إلى مكة فأقام أربعة أشهر، وكانت هذه البيعة يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، وكان أول خطبة خطبها أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرم حرما غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم فتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده.

فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿ **وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الأنفال: 26] الآية.

فلما فرغ من خطبته قال المصريون:

خذها إليك واحذرن أبا الحسن   إنما نمـرّ الأمر إمرار الرسـن

صــولـة آساد كـآسـاد السفــن ... بمشرفيات كغــدران اللبــن
ونطعن الملك بليــن كالشطــن ... حتى يمرن علــى غيــر عنــن

فقال علي مجيبا لهم:!

إن عـجـزت عـجـزة لا أعـتـذر ... سوف أكيس بعدهـا وأستمـر
أرفع من ذيلــي ما كنــت أجــر ... وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر ... أو يتركوني والســلاح يبتــدر

وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة وعلى الحرب القعقاع بن عمرو، وعلى الخراج جابر ابن فلان المزني، وعلى البصرة عبد الله بن عامر، وعلى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقد تغلب عليه محمد بن أبي حذيفة، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، ونوابه على حمص عبدالرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى قنسرين حبيب بن سلمة، وعلى الأردن أبو الأعور، وعلى فلسطين حكيم بن علقمة، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله البجلي، وعلى حلوان عتيبة بن النهاس، وعلى قيسارية مالك بن حبيب، وعلى همذان حبيش.

هذا ما ذكره ابنُ جرير من نواب عثمان الذين توفي وهم نواب الأمصار، وكان على بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى قضاء المدينة زيد بن ثابت، ولما قُتل عثمان ابن عفان رضي الله عنه خرج النعمان بن بشير رضي الله عنهما ومعه قميص عثمان مضمَّخ بدمه، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها، فقطعت مع بعض الكف فورد به على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه، فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله سنة، وحث بعضهم بعضا على الأخذ بثأره، واعتزل أكثر الناس النساء في هذا العام، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، ممن قتله من أولئك الخوارج.[1]

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

منهم: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة، وعمرو بن عنبسة، وغيرهم من الصحابة.

ومن التابعين: شريك بن حُباشة، وأبو مسلم الخولاني، وعبدالرحمن بن غنم، وغيرهم من التابعين.

ولما استقر أمر بيعة علي دخل عليه طلحة والزبير ورؤس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود والأخذ بدم عثمان، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي الله عنه، فقال لهما: مهلا علي، حتى أنظر في هذا الأمر.

ودخل عليه المغيرة بن شعبة على إثر ذلك فقال له: إني أرى أن تقر عمالك على البلاد، فإذا أتتك طاعتهم استبدلت بعد ذلك بمن شئت وتركت من شئت، ثم جاءه من الغد فقال له: إني أرى أن تعزلهم لتعلم من يطيعك ممن يعصيك، فعرض ذلك عَلِيٌّ عَلَى ابن عباس فقال: لقد نصحك بالأمس، وغشك اليوم، فبلغ ذلك المغيرة، فقال: نعم نصحته، فلما لم يقبل غششته.

ثم خرج المغيرة فلحق بمكة، ولحقه جماعة منهم: طلحة والزبير، وكانوا قد استأذنوا عليًّا في الاعتمار فأذن لهم.[1]

ثم إن ابن عباس أشار على علي باستمرار نوابه في البلاد إلى أن يتمكن الأمر، وأن يقر معاوية خصوصا على الشام وقال له: إني أخشى إن عزلته عنها أن يطالبك بدم عثمان ولا آمن طلحة والزبير أن يتكلما عليك بسبب ذلك، فقال علي: إني لا أرى هذا، ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتكها.[2]

1- المصدر السابق

2- نفس المصدر.

فقال ابن عباس لعلي: إني أخشى من معاوية أن يقتلني بعثمان، أو يحبسني لقرابتي منك ولكن اكتب معي إلى معاوية فمنه وعده.

فقال علي: والله إن هذا ما لا يكون أبدا، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين الحرب خدعة كما قال رسول الله ﷺ، فوالله لئن أطعتني لأوردنهم بعد صدرهم، ونهى ابن عباس عليًّا فيما أشار عليه أن يقبل من هؤلاء الذين يحسنون إليه الرحيل إلى العراق، ومفارقة المدينة، فأبى عليه ذلك كله، وطاوع أمر أولئك الأمراء من أولئك الخوارج من أهل الأمصار.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة قصد قسطنطين بن هرقل بلاد المسلمين في ألف مركب، فأرسل الله عليه قاصفا من الريح فغرقه الله بحوله وقوته، ومن معه، ولم ينج منهم أحد إلا الملك في شرذمة قليلة من قومه، فلما دخل صقلية عملوا له حماما فقتلوه فيه، وقالوا: أنت قتلت رجالنا. (1)

1- البداية والنهاية لابن كثير.

مقدمات معركة الجمل سنة 36 هجرية

بُويع علي رضي الله عنه بالخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وكان كارهًا لهذه البيعة رافضًا لها، وما قبلها إلا لإلحاح الصحابة عليه، وفي ذلك يقول رضي الله عنه: (ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجاءوني للبيعة فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قومًا قتلوا رجلًا قال له رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»، وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يُدفنْ بعدُ، فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس فسألوني البيعة، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعت، فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صدع قلبين، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى). [1]

لم يكن علي رضي الله عنه قادرًا على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان رضي الله عنه لعدم علمه بأعيانهم، ولاختلاط هؤلاء الخوارج بجيشه، مع كثرتهم واستعدادهم للقتال، وقد بلغ عددهم ألفي مقاتل كما في بعض الروايات، كما أن بعضهم ترك المدينة إلى الأمصار عقب بيعة علي رضي الله عنه. وقد كان كثير من الصحابة خارج المدينة في ذلك الوقت، ومنهم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لانشغال الجميع بالحج، وقد كان مقتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة، سنة خمسة وثلاثين على المشهور.

ولما مضت أربعة أشهر على بيعة علي دون أن ينفذ القصاص خرج طلحة والزبير إلى مكة، والتقوا بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، واتفق رأيهم على الخروج إلى البصرة، ليس لهم غرض في القتال، وذلك تمهيدًا للقبض على قتلة عثمان رضي الله عنه، وإنفاذ القصاص فيهم.

1- رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

روى الإمام أحمد في المسند والحاكم في المستدرك بسندهما: أن السيدة عائشة رضي الله عنها لما بلغت مياه بني عامر ليلًا نبحت الكلاب، قالت: أي ماء هذا؟

قالوا: ماء الحوأب، قالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله ﷺ قال لنا: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب».

فقال لها الزبير: ترجعين!! عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس. [1]

قال ابن كثير رحمه الله: وكان علي لما عَزِمَ على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرضه على الخروج معه.

فقال إنما أنا رجل من أهل المدينة إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة وقدم إلى مكة أيضًا في هذا العام يعلى بن أمية من اليمن وكان عاملا عليها لعثمان ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم وقدم لها عبد الله بن عامر من البصرة وكان نائبها لعثمان فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة وأمهات المؤمنين.

فقامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان وذكرت ما افتات به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام ولم يراقبوا جوار رسول الله ﷺ وقد سفكوا الدماء وأخذوا الأموال فاستجاب الناس لها وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة وقالوا لها حيثما ما سرت سرنا معك.

فقال قائل نذهب إلى الشام.

فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها ولو قدموها لغلبوا واجتمع الأمر كله لهم لأن أكابر الصحابة معهم.

1- صححه ابن حبان، والحاكم، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر وقال الألباني: إسناده صحيح جدًّا، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

وقال آخرون نذهب إلى المدينة فنطلب من علي أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيقتلوا.

وقال آخرون بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان.

فاتفق الرأي على ذلك وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على المسير إلى المدينة.

فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة رجعن عن ذلك وقلن لا نسير إلى غير المدينة وجهز الناس يَعْلَى بن أمية فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر أيضًا بمال كثير.

وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة فمنعها أخوها عبد الله من ذلك وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة وسار الناس صحبة عائشة في ألف فارس.

وقيل تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة وتلاحق بهم آخرون فصاروا في ثلاثة آلاف وأم المؤمنين عائشة تُحمل في هَوْدج على جمل اسمه عسكر اشتراه يعلى بن أمية من رجل من عرينة بمائتي دينار وقيل بثمانين دينارا وقيل غير ذلك.

وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عِرق ففارقنها هنالك وبكينَ للوداع وتباكى الناس وكان ذلك اليوم يسمى يوم النحيب.

وسار الناس قاصدين البصرة وكان الذي يصلي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم يؤذن للناس في أوقات الصلوات وقد مروا في مسيرهم ليلا بماء يقال له الحوأب فنبحتهم كلاب عنده فلما سمعت ذلك عائشة قالت ما اسم هذا المكان؟

قالوا: الحوأب فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظنني إلا راجعة. كما سبق ذكره.

قالوا ولِمَ؟

قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه «ليت شعري أيتكن التي تنبحها كلاب الحوأب».

ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت ردوني ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوأب.

فأناخ الناس حولها يوما وليلة.

وقال لها عبد الله بن الزبير: إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب ثم قال الناس النجا النجا هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل فارتحلوا نحو البصرة فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره من رؤوس الناس أنها قد قدمت فبعث عثمان بن حنيف عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي إليها ليعلما ما جاءت له فلما قدما عليها سلما عليها واستعلما منها ما جاءت له فذكرت لهما ما الذي جاءت له من القيام بطلب دم عثمان لأنه قُتل مظلومًا في شهر حرام وبلد حرام.

وتلت قوله تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: 114] فخرجا من عندها فجاءا إلى طلحة فقالا له ما أقدمك؟

فقال الطلب بدم عثمان.

فقالا ما بايعت عليًّا.

قال بلى والسيف على عنقي، ولا أستقبله إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان.

فذهبا إلى الزبير فقال مثل ذلك.

قال فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف فقال أبو الأسود:

يا ابن الأحنف قد أتيت فانفر ... وطاعن القوم وجالد واصبر

واخرج لهم مستلئما وشمر [1]

1- البداية والنهاية - لابن كثير.

فقال عثمان بن حنيف إنا لله وإنا إليه راجعون دارت رحا الإسلام ورب الكعبة فانظروا بأي زيفان نزيف.[1]

فقال عمران إي والله لتعركنكم عركًا طويلًا، يشير عثمان بن حنيف إلى حديث ابن مسعود مرفوعًا تدور رحا الإسلام لخمس وثلاثين.

ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين أشر علي.

فقال اعتزل فإني قاعد في منزلي أو قال قاعد على بعيري فذهب فقال عثمان بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح والاجتماع في المسجد فاجتمعوا فأمرهم بالتجهز فقام رجل وعثمان على المنبر فقال:

أيها الناس إن كان هؤلاء القوم جاؤوا خائفين فقد جاؤوا من بلد يأمن فيه الطير وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا.

فقام الأسود بن سريع السعديُّ فقال إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فحصبه الناس فعلم عثمان بن حنيف أن لقتلة عثمان بالبصرة أنصارا فكره ذلك وقدمت أم المؤمنين بمن معها من الناس فنزلوا المربد من أعلاه قريبًا من البصرة وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها وخرج عثمان بن حنيف بالجيش فاجتمعوا بالمربد فتكلم طلحة وكان على الميمنة فندب إلى الأخذ بثأر عثمان والطلب بدمه وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته فرد عليهما ناس من جيش عثمان بن حنيف وتكلمت أم المؤمنين فحرضت وحثت على القتال فتناور طوائف من أطراف الجيش فتراموا بالحجارة.

ثم تحاجز الناس ورجع كل فريق إلى حوزته وقد صارت طائفة من جيش عثمان ابن حنيف إلى جيش عائشة فكثروا وجاء حارثة بن قدامة السعدي فقال يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح إن كنت أتيتينا طائعة فارجعي من حيث جئت إلى منزلك وإن كنت أتيتينا مكرَهة فاستعيني بالناس في الرجوع.[2]

1- البداية والنهاية ج٧، ومعنى نزيف: منهك بسبب فقد الدم.
2- المصدر السابق.

وأقبل حكيم بن جبلة وكان على خيل عثمان بن حنيف فأنشب القتال وجعل أصحاب أم المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال وجعل حكيم يقتحم عليهم فاقتتلوا على فم السكة.

وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن وحجز الليل بينهم فلما كان اليوم الثاني قصدوا للقتال فاقتتلوا قتالًا شديدًا إلى أن زال النهار وقتل خلق كثير من أصحاب ابن حنيف وكثرت الجراح في الفريقين فلما عضتهم الحرب تداعوا إلى الصلح على أن يكتبوا بينهم كتابا ويبعثوا رسولا إلى أهل المدينة يسأل أهلها إن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة.

خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها وخرج طلحة والزبير عنها وأخلوها لهم وبعثوا بذلك كعب بن سور القاضي فقدم الميدنة يوم الجمعة فقام في الناس فسألهم هل بايع طلحة والزبير طائعين أو مكرهين فسكت الناس فلم يتكلم إلا أسامة بن زيد.

فقال بل كانا مكرَهين فثار إليه بعض الناس فأرادوا ضربه، فدافع عنه صُهيب وأبو أيوب وجماعة حتى خلصوه وقالوا له ما وسعك ما وسعنا من السكوت.

فقال لا والله ما كنت أرى أن الأمر ينتهي إلى هذا وكتب علي إلى عثمان بن حنيف يقول له إنهما لم يكرها على فرقة ولقد أُكْرِها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظرنا وقد كعب بن سور على عثمان بكتاب علي فقال عثمان هذا أمر آخر غير ما كنا فيه.[1]

وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف أن يخرج إليهما فأبى فجمعا الرجال في ليلة مظلمة وشهدا بهم صلاة العشاء في المسجد الجامع ولم يخرج عثمان بن حنيف

1- المصدر السابق.

تلك الليلة فصلى بالناس عبدالرحمن بن عتاب بن أسيد ووقع من رعاع الناس من أهل البصرة كلام وضرب فقتل منهم نحوا أربعين رجلا ودخل الناس على عثمان ابن حنيف قصره فأخرجوه إلى طلحة والزبير ولم يبق في وجهه شعرة إلا نتفوها فاستعظما ذلك.

وبعثا إلى عائشة فأعلماها الخبر فأمرت أن تخلي سبيله فأطلقوه وولوا على بيت المال عبدالرحمن بن أبي بكر وقسم طلحة والزبير أموال بيت المال في الناس وفضلوا أهل الطاعة وأكب عليهم الناس يأخذون أرزاقهم وأخذوا الحرس واستبدوا في الأمر بالبصرة فحمى لذلك جماعة من قوم قتلة عثمان وأنصارهم .

فركبوا في جيش قريب من ثلثمائة ومقدمهم حكيم بن جبلة وهو أحد من باشر قتل عثمان فبارزوا وقاتلوا فضرب رَجُلٌ رِجْلَ حكيم بن جبلة فقطعها فزحف حتى أخذها وضرب بها ضاربه فقتله ثم اتكأ عليه وجعل يقول:

يا ساقِ لن تراعي ... إن لـــك ذراعـــي

أحمى بها كراعي

وقال أيضًا:

ليس على أن أموت عار ... والعار في الناس هو الفرار

والمجد لا يفضحه الدمار

فمر عليه رجل وهو متكىء برأسه على ذلك الرجل فقال له: من قتلك؟

فقال له وسادتي.

ثم مات حكيم قتيلا هو ونحو من سبعين من قتلة عثمان وأنصارهم أهل المدينة فضعف جأش من خالف طلحة والزبير من أهل البصرة.

ويقال: إن أهل البصرة بايعوا طلحة والزبير وندب الزبير ألف فارس يأخذها معه

ويلتقي بها عليًّا قبل أن يجيء فلم يجبه أحد وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشرونهم بذلك وقد كانت هذه الوقعة لخمس ليال يقين من ربيع الآخرة سنة ست وثلاثين.

وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صَوْحَانَ تدعوه إلى نصرتها والقيام معها فإن لم يجئ فليكف يده وليلزم منزله أي لا يكون عليها ولا لها فقال أنا في نصرتك ما دمت في منزلك وأبى أن يطيعها في ذلك.

وقال رحم الله أم المؤمنين أمرها الله أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحق بذلك منا.

وكتبت عائشة إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك.[1]

1- المصدر السابق.

نشوب معركة الجمل عام 36 هجرية

بعد أن كان الإمام عليٌّ رضي الله عنه قد تجهز قاصدا الشام كما ذكرنا، فلما بلغه قصدُ طلحة والزبير البصرة، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البصرة ليمنع أولئك من دخولها إن أمكن، أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها، فتثاقل عنه أكثر أهل المدينة، واستجاب له بعضهم.

قال الشعبي: مما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين ليس لهم سابع، وقال غيره: أربعة.

وذكر ابن جرير وغيره قال: كان ممن استجاب له من كبار الصحابة: أبو الهيثم بن التيهان، وأبو قتادة الأنصاري، وزياد بن حنظلة، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم.

قالوا: وليس بذي الشهادتين، ذاك مات في زمن عثمان رضي الله عنه.

قال ابن كثير: وسار عليٌّ من المدينة نحوَ البصرة على تعبئته المتقدم ذكرها، غير أنه استخلف على المدينة تمام بن عباس وعلى مكة قثم بن عباس، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وخرج علي من المدينة في نحو من تسعمائة مقاتل، وقد لقي عبد الله بن سلام رضي الله عنه عليًّا وهو بالربذة فأخذ بعنان فرسه.

وقال: يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا، فسبه بعض الناس.

فقال علي: دعوه فنعم الرجل من أصحاب النبي ﷺ، وجاء الحسن بن علي إلى أبيه في الطريق.

فقال: لقد نهيتك فعصيتني تُقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك.

فقال له علي: إنك لا تزال تحن على حنين الجارية، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك؟.

فقال: ألم آمرك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلا يقتل وأنت بها، فيقول قائل: أو يتحدث متحدث، ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان حتى يبعث إليك أهل كل مصر ببيعتهم؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فعصيتني في ذلك كله؟ (1)

فقال له علي: أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان، فلقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار، فكرهت أن يضيع هذا الأمر، وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه، فتريد مني أن أكون كالضبع التي يحاط بها، ويقال: ليست هاهنا حتى يشق عرقوبها فتخرج، فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عني يا بني.

ولما انتهى إليه خبر ما صنع القوم بالبصرة من الأمر الذي قدمنا، كتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر: إني قد اخترتكم على الأمصار، فرغبت إليكم وفزعت لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد لتعودَ هذه الأمة إخوانا.

فمضيا، وأرسل إلى المدينة فأخذ ما أراد من سلاح ودواب، وقام في الناس خطيبا، فقال:

إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به، وجعلنا به إخوانا، بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحق قائم بينهم، والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، ألا وإن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن.

1- البداية والنهاية لابن كثير.

ثم عاد ثانية فقال: إنه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، شرها فرقة تحبني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم، واهتدوا بهديي فإنه هدى نبيكم، واتبعوا سنته وأعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه على الكتاب، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن حكمًا وإمامًا.

قال: فلما عزم على المسير من الربذة قام إليه ابن أبي رفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟.

فقال: أما الذي نريد وننوي، فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه.

قال: فإن لم يجيبوا إليه؟.

قال: ندعهم بغدرهم ونعطيهم الحق ونصبر.

قال: فإن لم يرضوا؟.

قال: ندعهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟.

قال: امتنعنا منهم.

قال: فنعم إذًا.

فقام إليه الحجاج بن غزية الأنصاري.

فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لينصرني الله كما سمانا أنصارًا.

قال: وأتت جماعة من طيء، وعليٌّ على الربذة.

فقيل له: هؤلاء جماعة جاؤوا من طيء منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد السلام عليك.[1]

1- المصدر السابق.

فقال: جزى الله كلًّا خيرًا، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95].

قالوا: فسار علي من الرَّبَذَةِ على تعبئته، وهو راكب ناقة حمراء يقود فرسا كميتا،(1) فلما كان بفيد جاءه جماعة من أسد وطيء، فعرضوا أنفسهم عليه.

فقال: فيمن معي كفاية، وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له: عامر بن مطر الشيباني.

فقال له علي: ما وراءك؟.

فأخبره الخبر، فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه.

فقال علي: والله ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا، وسار.

فلما اقترب من الكوفة وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جليته، من قتل ومن إخراج عثمان بن حنيف من البصرة وأخذهم أموال بيت المال، جعل يقول: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير.

فلما انتهى إلى ذي قار أتاه عثمان بن حنيف مهشما وليس في وجهه شعرة.

فقال: يا أمير المؤمنين، بعثتني إلى البصرة، وأنا ذو لحية، وقد جئتك أمردَ.

فقال: أصبت خيرًا وأجرًا.

وقال عن طلحة والزبير: اللهم احلل ما عقدا، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا - يعني: في هذا الأمر - وأقام علي بذي قار ينتظر جواب ما كتب به مع محمد بن أبي بكر، وصاحبه محمد بن جعفر - وكانا قد قدما بكتابه على أبي موسى وقاما في الناس بأمره - فلم يجابا في شيء.

فلما أمسوا دخل أناس من ذوي الحِجَى على أبي موسى يعرضون عليه الطاعة لعليٍّ، فقال: كان هذا بالأمس فغضب محمد ومحمد فقالا له قولا غليظا.

فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من

1- فرسًا كميتا: لونه ليس بالأشقر ولا أدهم، والكميت: من أسماء الخمر فيها حمرة وسواد.

قتال فلا نقاتل أحدا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ومن كانوا، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر وهو بذي قار، فقال للأشتر:

أنت صاحب أبي موسى، والمعرض في كل شيء، فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، فخرجا فقدما الكوفة وكلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من الكوفة، فقام في الناس.

فقال: أيها الناس، إن أصحاب رسول الله ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقا وأنا مؤد إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفا بسلطان الله وأن لا تجترئوا على أمره.

وهذه فتنة النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعي، فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وأووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي، فأخبراه الخبر، فأرسل الحسن وعمار بن ياسر، وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت فانطلقا حتى دخلا المسجد، فكان أول من سلم عليهما مسروق بن الأجدع.

فقال لعمار: علام قتلتم عثمان؟

فقال: على شتم أعراضنا، وضرب أبشارنا.

فقال: والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به، ولو صبرتم لكان خيرا للصابرين.

قال: وخرج أبو موسى، فلقي الحسن بن علي فضمه إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان، أعدوت على أمير المؤمنين عثمان قتلته؟.

فقال: لم أفعلْ، ولم يسؤني ذلك، فقطع عليهما الحسن بن علي.

فقال لأبي موسى: لِمَ تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء.

فقال: صدقت بأبي وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت من النبي ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب» وقد جعلنا الله إخوانًا، وحرم علينا دماءنا وأموالنا.

فغضب عمار وسبه، وقال: يا أيها الناس، إنما قال له رسول الله ﷺ وحده أنت فيها قاعدا خير منك قائمًا.

فغضب رجل من بني تميم لأبي موسى ونال من عمار، وثار آخرون وجعل أبوموسى يكفكف الناس، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وقال أبو موسى:

أيها الناس أطيعوني، وكونوا خير قوم من خير أمم العرب، يأوي إليهم المظلوم، ويأمن فيهم الخائف، وإن الفتنة إذا أقبلت شبهت، وإذ أدبرت تبينت، ثم أمر الناس بكف أيديهم، ولزوم بيوتهم.

فقام زيد بن صَوْحَان فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، سيروا إليه أجمعون.

فقام القعقاع بن عمرو فقال: إن الحق ما قاله الأمير، ولكن لا بد للناس من أمير يردع الظالم، ويعدي المظلوم، وينتظم به شمل الناس، وأمير المؤمنين علي ولي بما ولي وقد أنصف بالدعاء، وإنما يريد الإصلاح، فانفروا إليه.

وقام عبد خير، فقال: الناس أربع فرق، علي بمن معه في ظاهر الكوفة، وطلحة، والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا تقاتل ولا عناء بها.

فقال أبو موسى: أولئك خير الفرق، وهذه فتنة.

ثم تراسل الناس في الكلام ثم قام عمار، والحسن بن علي في الناس على المنبر يدعوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين، فإنه إنما يريد الإصلاح بين الناس.

وسمع عمار رجلًا يسب عائشة فقال: اسكت مقبوحًا منبوحًا، والله إنها لزوجة

رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعوه أو إياها، (رواه البخاري).[1]

وقام حُجْرُ بن عدي فقال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41] وجعل الناس كلما قام رجل فحرض الناس على النفير يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر، وعمار، والحسن معه على المنبر، حتى قال له الحسن بن علي: ويحك! اعتزلنا لا أم لك، ودع منبرنا.

ويقال: إن عليًّا بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة، وأخرجه من قصر الإمارة من تلك الليلة، واستجاب الناس للنفير، فخرج مع الحسن تسعة آلاف في البر، وفي دجلة.

ويقال: سار معه اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد، وقدموا على أمير المؤمنين فتلقاهم بذي قار إلى أثناء الطريق في جماعة، منهم: ابن عباس فرحب بهم، وقال:

يا أهل الكوفة! أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم، ولم ندع أمرا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى.

فاجتمعوا عنده بذي قار، وكان من المشهورين من رؤساء من انضاف إلى علي: القعقاع بن عمرو، وسعد بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب، وزيد بن صوحان، والأشتر، وعدي بن حاتم، والمسيب بن نجية، ويزيد بن قيس، وحُجر بن عدي وأمثالهم.

وكانت عبد القيس بكمالها بين علي وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوف، فبعث علي القعقاع رسولا إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة، ويعظم عليهما الفرقة والاختلاف.[2]

1- أورد البخاري هذا الخبر عن عمار في مناقب عائشة رضي الله عنها، وقوله ليس بمطعن على عائشة رضي الله عنها، فهو قول يمثل أي شخص، وأنه أراد أن يبين خطأها في الاجتهاد نصحًا للأمة مع بيان فضلها.
2- البداية والنهاية - مصدر سابق.

فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة أم المؤمنين فقال: أي أماه! ما أقدمك هذا البلد؟

فقالت: أي بني! الإصلاح بين الناس. (1)

فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها فحضرا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: إنما جئت للإصلاح بين الناس.

فقالا: ونحن كذلك.

قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ وعلى أي شيء يكون؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن.

قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن.

فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم.

وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم فأديلوا عليكم كان الذي حذرتم، وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه - يعني: أن الذي تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة، ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منها - وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعلي أعذر في تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة، ثم أعلمهم أن خلقا من ربيعة ومضر قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع.

فقالت له عائشة أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟

قال: أقول: إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم

1- المصدر السابق.

بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، وإدراك الثأر، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر وائتنافه كانت علامة شرٍّ، وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية تُرزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولا، ولا تعرضونا للبلاء، فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم.

وايم الله: إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف أن لا يتم، حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة.

فقالوا: قد أصبت وأحسنت، فارجع فإن قدم عَلِيٌّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر.

قال: فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، وكره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه.

وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام علي في الناس خطيبا: فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة، أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي من الله بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره.

ثم قال: ألا إني مرتحل غدا فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس.

فلما قال هذا اجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبدالله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وغلاب بن الهيثم، وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد.

فقالوا: ما هذا الرأي وعلي والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غدا يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟

فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي علي فلم نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًّا بعثمان، فرضي القوم منا بالسكوت.

فقال ابن السوداء (ابن سبأ): بئس ما رأيت، لو قتلناه قتلنا، فإنا يا معشر قتلة عثمان في ألفين وخمسمائة وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف، لا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم.

فقال غلاب بن الهيثم: دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع بها.

فقال ابن السوداء: بئس ما قلت، إذا والله كان يتخطفكم الناس.

ثم قال ابن السوداء: قبَّحه الله يا قوم، إن عيركم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس فانشبوا الحرب والقتال بين الناس ولا تدعوهم يجتمعون، فمن أنتم معه لا يجد بدا من أي يمتنع، ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما يحبون، ويأتيهم ما يكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه، وأصبح علي مرتحلا، ومر بعبد القيس فساروا من معه حتى نزلوا بالزاوية، وسار منها يريد البصرة وسار طلحة والزبير ومن معهما للقائه، فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد، ونزل الناس كل في ناحية.

وقد سبق علي جيشه وهم يتلاحقون به، فمكثوا ثلاثة أيام والرسل بينهم، فكان ذلك للنِّصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، فأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة، من قتلة عثمان فقالا: إن عليًّا أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك.

وقام عليٌّ في الناس خطيبا، فقام إليه الأعور بن نيار المنقري، فسأله عن إقدامه على أهل البصرة، فقال: الإصلاح وإطفاء الثائرة ليجتمع الناس على الخير، ويلتئم شمل هذه الأمة.

قال: فإن لم يجيبونا؟

قال: تركناهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟

قال: دفعناهم عن أنفسنا.

قال: فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا؟

قال: نعم!.

وقام إليه أبو سلام الدَّالاني فقال: هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله في ذلك؟

قال: نعم!

قال: فهل لك من حجة في تأخيرك ذلك؟

قال: نعم!

قال: فما حالنا وحالهم إن ابتُلينا غدا؟

قال: إني لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة.

وقال في خطبته: أيها الناس أمسكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم، وإياكم أن يسبقونا غدا، فإن المخصوم غدا مخصوم اليوم.

وجاء في غضون ذلك الأحنف بن قيس في جماعة فانضاف إلى عليٍّ، وكان قد منع حرقوص بن زهير من طلحة والزبير، وكان قد بايع عليًّا بالمدينة، وذلك أنه قدم المدينة وعثمان محصور، فسأل عائشة وطلحة والزبير إن قتل عثمان من أبايع؟

فقالوا: بايع عليًّا، فلما قُتل عثمان بايع عليًّا.

قال: ثم رجعت إلى قومي فجاءني بعد ذلك ما هو أفظع، حتى قال الناس: هذه عائشة جاءت لتأخذ بدم عثمان، فحرت في أمري لمن أتبع، فمنعني الله بحديث سمعته من أبي بكر قال قال رسول الله ﷺ وقد بلغه أن الفرس قد ملَّكوا عليهم ابنة كسرى فقال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

وأصل هذا الحديث في (صحيح البخاري).

والمقصود: أن الأحنف لما انحاز إلى علي ومعه ستة آلاف قوس، فقال لعلي: إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف، فقال: اكفف عنا عشرة آلاف سيف.

ثم بعث علي إلى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر، فأرسلا إليه في جواب رسالته: إنا على ما فارقنا القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس، فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث علي عبد الله بن عباس إليهم، وبعثوا إليه محمد بن طليحة السجاد، وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس، فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفي رجل فانصرف كل فريق إلى قراباتهم، فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم.

وقام الناس من منامهم إلى السلاح فقالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلا، وبيتونا وغدروا بنا، وظنوا أن هذا عن ملإ من أصحاب علي، فبلغ الأمر عليًّا فقال: ما للناس؟

فقالوا: بيتنا أهل البصرة فثار كل فريق إلى سلاحه، ولبسوا اللأمة، وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر، وكان أمر الله قدرا مقدورا، وقامت الحرب على ساق وقدم، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان فنشبت الحرب، وتوافق الفريقان، وقد اجتمع مع علي عشرون ألفا، والتفَّ على عائشة ومن معها نحو من ثلاثين ألفا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

والسابئة أصحاب ابن السوداء قبحه الله لا يفترون عن القتل، ومنادي علي ينادي: ألا كفوا إألا كفوا، فلا يسمع أحد.[1]

وجاء كعب بن سوار قاضي البصرة، فقال: يا أم المؤمنين أدركي الناس لعل الله أن يصلح بك بين الناس، فجلست في هودجها فوق بعيرها وستروا الهودج بالدروع،

1- المصدر السابق.

وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس عند حركاتهم، فتصاولوا وتجاولوا، وكان في جملة من تبارز الزبير وعمار، فجعل عمار ينخره بالرمح والزبير كاف عنه، ويقول له: أتقتلني يا أبا اليقظان؟

فيقول: لا يا أبا عبد الله، وإنما تركه الزبير لقول رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»، وإلا فالزبير أقدر عليه منه عليه، فلهذا كف عنه.

وقد كان من سنتهم في هذا اليوم أنه لا يذفف على جَريح[1]، ولا يتبع مدبر، وقد قتل مع هذا خلق كثير جدًّا، حتى جعل علي يقول لابنه الحسن: يا بني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا.

فقال له: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا.

قال سعيد بن أبي عجرة، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عبادة قال: قال علي يوم الجمل: يا حسن ليت أباك مات منذ عشرين سنة.

فقال له: يا أبه قد كنت أنهاك عن هذا.

قال: يا بني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا.

وقال مبارَك بن فضالة: عن الحسن بن أبي بكرة: لما اشتد القتال يوم الجمل، ورأى علي الرؤوس تندر، أخذ علي ابنه الحسن فضمه إلى صدره ثم قال: إنا لله يا حسن! أي: خير يرجى بعد هذا، فلما ركب الجيشان وتراءى الجمعان وطلب عليٌّ طلحة والزبير ليكلمهما فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم فيقال: إنه قال لهما إني أراكما قد جمعتما خيلًا ورجالًا وعددًا، فهل أعددتما عذرًا يوم القيامة؟ فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، ألم أكن حاكمًا في دمكما تحرمان دمي وأحرم دمكما، فهل من حديث أحل لكما دمي؟

فقال طلحة: ألَّبت على عثمان.

فقال علي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: 25].

1- يذفف على جريح: أي: يجهز عليه فيقتله.

ثم قال: لعن الله قتلة عثمان، ثم قال: يا طلحة! أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت، أما بايعتني؟

قال: بايعتك والسيف على عنقي.

وقال للزبير: ما أخرجك؟

قال: أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني.

فقال له علي: أما تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إلي وضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله ﷺ: «إنه ليس بمتمرد لتقاتلنه وأنت ظالم له».

فقال الزبير: اللهم نعم! ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، ووالله لا أقاتلك.

وفي هذا السياق كله نظر.

وأضاف: والمحفوظ منه الحديث فقد رواه الحافظ أبو يعلَى الموصلي فقال: حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الدوري، حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن محمد ابن عبد الملك بن مسلم الرقاشي، عن جده عبد الملك، عن أبي جرو المازني قال: شهدت عليًّا والزبير حين تواقفا، فقال له علي: يا زبير! أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك تقاتلني وأنت ظالم؟».

قال: نعم! لم أذكره إلا في موقفي هذا، ثم انصرف.

وقد رواه البيهقي: عن الحاكم، عن أبي الوليد الفقيه، عن الحسن بن سفيان، عن قطن بن بشير، عن جعفر بن سليمان، عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن مسلم الرقاشي، عن جده، عن أبي جرو المازني، عن علي والزبير به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: لما ولي الزبير يوم الجمل بلغ عليًّا فقال: لو كان ابن صفية يعلم أنه على حق ما ولي، وذلك أن رسول الله ﷺ لقيهما في سقيفة بني ساعدة فقال: «أتحبه يا زبير؟

فقال: وما يمنعني؟

قال: فكيف بك إذا قاتلته وأنت ظالم له؟».

قال: فيرون أنه إنما ولي لذلك.

قال البيهقي: وهذا مرسل وقد روي موصولا من وجه آخر.

أخبرنا أبوبكر محمد بن الحسن القاضي، أنا أبو عامر بن مطر، أنا أبو العباس عبدالله بن محمد بن سوار الهاشمي الكوفي، أنا منجاب بن الحارث، ثنا عبد الله بن الأجلح، ثنا أبي، عن مرثد الفقيه، عن أبيه. قال: وسمعت فضل بن فضالة يحدث، عن حرب بن أبي الأسود الدؤلي - دخل حديث أحدهما في حديث صاحبه - قال: لما دنا علي وأصحابه من طلحة والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج علي وهو على بغلة رسول الله ﷺ فنادى: ادعوا لي الزبير بن العوام فإني علي، فدعي له الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال علي: يا زبير! نشدتك الله أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا فقال: «يا زبير ألا تحب عليًّا؟

فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلَى ديني؟

فقال: يا زبير أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له؟».

فقال الزبير: بلى والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك، فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير فقال: مالك؟

فقال: ذكرني علي حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لتقاتلنه وأنت ظالم له» فقال: أو للقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفت أن لا أقاتله، قال: اعتق غلامك سرجس وقف حتى تصلح بين الناس، فأعتق غلامه ووقف، فلما اختلف أمر الناس ذهب على فرسه.

قالوا: فرجع الزبير إلى عائشة فذكر أنه قد آلى أن لا يقاتل عليًّا.

فقال له ابنه عبد الله: إنك جمعت الناس فلما تراءى بعضهم لبعض خرجت من بينهم، كفر عن يمينك واحضر.

فأعتق غلامًا، وقيل: غلامه سرجس.

وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عمارًا مع علي، وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فخشي أن يُقتل عمار في هذا اليوم.

وعندي أن الحديث الذي أوردناه إن كان صحيحًا عنه فما رجعه سواه، ويبعد أن يكفر عن يمينه ثم يحضر بعد ذلك لقتال علي والله أعلم.

قال ابن كثير: والمقصود: أن الزبير لما رجع يوم الجمل سار فنزل واديًا يقال له: وادي السباع، فاتبعه رجل يقال له: عمرو بن جرموز فجاءه وهو نائم فقتله غيلةً كما سنذكر تفصيله.

وأما طلحة: فجاءه في المعركة سهم غرب يقال: رماه به مروان بن الحكم فالله أعلم، فانتظم رجله مع فرسه فجمحت به الفرس، فجعل يقول: إليَّ عباد الله إلي عباد الله، فاتبعه مولى له فأمسكها، فقال له: ويحك! أعدل بي إلى البيوت وامتلأ خفه دمًا، فقال لغلامه: أردفني، وذلك أنه نزفه الدم وضعف، فركب وراءه وجاء به إلى بيت في البصرة فمات فيه رضي الله عنه.

وتقدمت عائشة رضي الله عنها في هودجها، وناولت كعبًا بن سوار قاضي البصرة مصحفًا وقالت: دعهم إليه - وذلك أنه حين اشتد الحرب وحمي القتال، ورجع الزبير، وقتل طلحة رضي الله عنهما - فلما تقدم كعب بن سوار بالمصحف يدعو إليه استقبله مقدمة جيش الكوفيين، وكان عبد الله بن سبأ - وهو ابن السوداء - وأتباعه بين يدي الجيش، يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة، لا يتوقفون في أحد، فلما رأوا كعبًا ابن سوار رافعًا المصحف رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه، ووصلت النبال

إلى هودج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فجعلت تنادي: الله الله! يا بني اذكروا يوم الحساب، ورفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان، فضج الناس معها بالدعاء حتى بلغت الضجة إلى علي فقال: ما هذا؟

فقالوا: أُمُّ المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم.

فقال: اللهم العن قتلة عثمان، وجعل أولئك النفر لا يقلعون عن رشق هودجها بالنبال حتى بقي مثلَ القُنفذ، وجعلت تحرض الناس على منعهم وكفهم، فحملت معه الحفيظة فطردوهم حتى وصلت الحملة إلى الموضع الذي فيه علي بن أبي طالب، فقال لابنه محمد ابن الحنفية: ويحك! تقدم بالراية فلم يستطع، فأخذها علي من يده فتقدم بها، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي، فتارة لأهل البصرة، وتارة لأهل الكوفة، وقتل خلق كثير، وجم غفير، ولم تر وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة.

وجعلت عائشة تحرض الناس على أولئك النفر من قتلة عثمان، ونظرت عن يمينها فقالت: من هؤلاء القوم؟

فقالوا: نحن بكر بن وائل.

فقالت لكم يقول القائل:

وجاؤوا إلينا بالحديد كأنهم ... من الغرة القعساء بكر بن وائل

ثم لجأ إليها بنو ناجية، ثم بنو ضبة، فقتل عنده منهم خلق كثير، ويقال: إنه قطعت يد سبعين رجلًا وهي آخذة بخطام الجمل، فلما أثخنوا تقدم بنو عدي بن عبد مناف فقاتلوا قتالًا شديدًا، ورفعوا رأس الجمل، وجعل أولئك يقصدون الجمل، وقالوا: لا يزال الحرب قائمًا ما دام هذا الجمل واقفًا، ورأس الجمل في يد عمرة بن يثربي، وقيل: أخوه عمرو بن يثربي.

ثم صمد عليه علباء بن الهيثم وكان من الشجعان المذكورين، فتقدم إليه عمرو

الجملي فقتله ابن يثربي، وقتل زيد بن صوحان، وارتث صعصعة بن صوحان، فدعاه عمار إلى البراز، فبرز له فتجاولا بين الصفين وعمارًا ابن تسعين سنة عليه فروة قد ربط وسطه بحبل ليف.

فقال الناس: إنا لله وإنا إليه راجعون الآن يلحق عمَّارٌ بأصحابه، فضربه ابن يثربي بالسيف فاتقاه عمار بدرقته، فغصّ فيها السيف ونشب، وضربه عمار فقطع رجليه، وأخذ أسيرًا إلى بين يدي علي.

فقال: استبقني يا أمير المؤمنين؟

فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم؟ ثم أمر به فقتل، واستمر زمام الجمل بعده بيد رجل كان قد استنابه فيه من بني عدي، فبرز إليه ربيعة العقيلي فتجاولا حتى قتل كل واحد صاحبه، وأخذ الزمام الحارث الضبي، فما رؤي أشد منه وجعل يقول:

نحن بنو ضبةَ أصحاب الجمل   نبـــارز القرن إذا القرن نـــزل

ننعي ابن عفان بأطراف الأسل   الموت أحلى عندنا من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجل

وقيل: إن هذه الأبيات لوسيم بن عمرو الضبي.

فكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل يقوم غيره حتى قتل منهم أربعون رجلًا.

قالت عائشة: ما زال جملي معتدلًا حتى فقدت أصوات بني ضبة، ثم أخذ الخطام سبعون رجلًا من قريش، وكل واحد يقتل بعد صاحبه، فكان منهم محمد بن طلحة المعروف: بالسجاد.

فقال لعائشة: مريني بأمرك يا أمه؟

فقالت: آمرك أن تكون كخير ابني آدم، فامتنع أن ينصرف وثبت في مكانه، وجعل يقول: حم لا ينصرون، فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه، وصار لكل واحد منهم بعد ذلك يدعي قتله، وقد طعنه بعضهم بحربة فأنفذه وقال:

وأشعث قــوام بآيـــات ربـــه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصـــه فخـر صريعـــا لليديـــن وللفـــم
يناشدني حم والمرح شاجـــــن فـهـــلا تـــلا حم قبـــل التـقـدم
على غير شيء غير أن ليس تابعـا عليًّا ومـــن لا يتبع الحـــق ينـدم

وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف، فجعل لا يدنو منه أحد إلا حطّه بالسيف، فأقبل إليه الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أمنا يا خير أم نعلم أما ترين كم شجاع يُكلم
وتجتلى هامته والمعصم

واختلفا ضربتين فقتل كل واحد صاحبه، وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف، فيقتل من قصده، ثم يقتل بعد ذلك، وقد فقأ بعضهم عين عدي بن حاتم ذلك اليوم.

ثم تقدم عبد الله بن الزبير فأخذ بخطام الجمل وهو لا يتكلم، فقيل لعائشة: إنه ابنك ابن أختك، فقالت: واثكل أسماء!

وجاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحًا شديدًا، وضربه عبد الله ضربة خفيفة، ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان، فجعل عبد الله بن الزبير يقول:

اقتلوني ومالكًا واقتلوا مالكًا معي

فجعل الناس لا يعرفون مالكًا من هو، وإنما هو معروف بالأشتر، فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما، وقد جرح عبد الله بن الزبير يوم الجمل بهذه الجراحة سبعًا وثلاثين جراحة، وجرح مروان بن الحكم أيضًا.

ثم جاء رجل فضرب الجمل على قوائمه فعقره، وسقط إلى الأرض فسمع له

عجيج ما سمع أشد ولا أنفذ منه، وآخر من كان الزمام بيده زفر بن الحارث فعُقر الجمل وهو في يده.

ويقال: إنه اتفق هو وبجير بن دلجة على عقره.

ويقال: إن الذي أشار بعقر الجمل علي.

وقيل: القعقاع بن عمرو لئلا تصاب أم المؤمنين، فإنها بقيت غرضا للرماة، ومن يمسك بالزمام برجاسا للرماح، ولينفصل هذا الموقف الذي قد تفانى فيه الناس.

ولما سقط البعير إلى الأرض انهزم من حوله من الناس، وحمل هودج عائشة وإنه لكالقنفذ من السهام، ونادى منادي علي في الناس: إنه لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح، ولا يدخلوا الدور.

وأمر علي نفرا أن يحملوا الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر وعمارا أن يضربا عليها قبة، وجاء إليها أخوها محمد، فسألها هل وصل إليك شيء من الجراح؟.

فقالت: لا! وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية.

وسلم عليها عمّار فقال: كيف أنت يا أم؟

فقالت: ليس لك بأم.

قال: بلى! وإن كرهت.

وجاء إليها علي بن أبي طالب أمير المؤمنين مسلما فقال: كيف أنت يا أمه؟

قالت: بخير.

فقال: يغفر الله لك.

وجاء وجوه الناس من الأمراء والأعيان يسلمون على أم المؤمنين رضي الله عنها، ويقال: إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في الهودج، فقالت: إليك لعنك الله.

فقال: والله ما أرى إلا حميراء.

فقالت: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدى عورتك، فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عريانا في خربة من خرابات الأزد.[1]

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

فلما كان الليل دخلت أم المؤمنين البصرة -ومعها أخوها محمد بن أبي بكر- فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي وهي أعظم دار بالبصرة على صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وهي أم طلحة الطلحات عبد الله بن خلف.

وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا البصرة، وقد طاف علي بين القتلى فجعل كلما مر برجل يعرفه ترحم عليه ويقول: يعز علي أن أرى قريشًا صرعى.

وقد مر على ما ذكر على طلحة بن عبيد الله وهو مقتول، فقال: لهفي عليك يا أبا محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كما قال الشاعر:

فتًى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وأقام علي بظاهر البصرة ثلاثًا، ثم صلى على القتلى من الفريقين، وخص قريشًا بصلاة من بينهم، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر، وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئًا هو لأهلهم فليأخذه، إلا سلاحًا كان في الخزائن عليه سمة السلطان.

وكان مجموع من قتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله، ورضي عن الصحابة منهم.[1]

وقد سأل بعض أصحاب علي عليًّا أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبى عليه فطعن فيه السبئية وقالوا: كيف يحلّ لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم؟

فبلغ ذلك عليًّا، فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟

فسكت القوم، ولهذا لما دخل البصرة فضَّ في أصحابه أموال بيت المال، فنال كل رجل منهم خمسمائة، وقال: لكم مثلها من الشام، فتكلم فيه السبئية أيضًا، ونالوا منه من وراء وراء.

ولما فرغ علي من أمر الجمل، أتاه وجوه الناس يسلمون عليه، فكان ممن جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد - وكانوا قد اعتزلوا القتال - فقال له علي: تربعت

1- المصدر السابق.

-يعني بنا- فقال: ما كنت أراني إلا قد أحسنت وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إليَّ غدا أحوج منك أمس، فاعرف إحساني، واستبق مودتي لغد، ولا تقل مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحًا.

قالوا: ثم دخل علي البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم، حتى الجرحى والمستأمنة.

وجاءه عبدالرحمن بن أبي بكرة الثقفي فبايعه، فقال له علي: أين المريض؟ -يعني: أباه -.

فقال: إنه والله مريض يا أمير المؤمنين، وإنه على مسرتك لحريص.

فقال: امش أمامي، فمضى إليه فعاده، واعتذر إليه أبو بكرة فعذره، وعرض عليه البصرة فامتنع.

وقال: رجل من أهلك يسكن إليه الناس، وأشار عليه بابن عباس فولاه على البصرة، وجعل معه زياد ابن أبيه على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع من زياد، - وكان زياد معتزلا -.

ثم جاء علي إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة فاستأذن ودخل، فسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على من قتل، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، فلما دخل علي قالت له: صفية امرأة عبد الله، أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها علي شيئا، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضًا فسكت.

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟

فقال: ويحك! إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟.

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن على الباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر علي القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجهما من ثيابهما.

وقد سألت عائشة عمن قتل معها من المسلمين، ومن قتل من عسكر علي، فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم ترحمت عليه ودعت له.

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة، بعث إليها علي رضي الله عنه بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر.

فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس، وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس، ودعت لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار.

فقال علي: صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وسار علي معها مودِّعًا ومشيعًا أميالًا، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم - وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين - وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة فأقامت بها إلى أن حجت عامها ذلك، ثم رجعت إلى المدينة رضي الله عنها.

وأما مروان بن الحكم فإنه لما فر استجار بمالك بن مسمع فأجاره ووفى له، ولهذا كان بنو مروان يكرمون مالكا ويشرفونه، ويقال: إنه نزل دار بني خلف، فلما خرجت عائشة خرج معها، فلما سارت هي إلى مكة سار إلى المدينة.

قالوا: وقد علم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة، وذلك مما كانت النسور تخطفه من الأيدي والأقدام فيسقط منها هنالك، حتى إن أهل المدينة علموا بذلك يوم الجمل قبل أن تغرب الشمس، وذلك أن نسرا مر بهم ومعه شيء فسقط، فإذا هو كف فيه خاتم نقشه عبدالرحمن بن عتاب. (1)

1- البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الطبري.

وخلاصة القول فيما سبق

كان هؤلاء الصحابةُ الأخيارُ من الصدق والوفاء والحب لله عز وجل رغم اقتتالهم، وإليك بعض النماذج الدالة على ذلك:

1 - روى ابن أبي شَيبة في مصنفه بسند صحيح عن الحسن بن علي قال: (لقد رأيته - يعني عليًّا - حين اشتد القتال يلوذ بي ويقول: يا حسن، لوددت أني مت قبل هذا بعشرين حجة أو سنة).

2 - وقد ترك الزبير القتال ونزل واديًا فتبعه عمرو بن جرموز فقتله وهو نائم غيلة، وحين جاء الخبر إلى علي رضي الله عنه قال: بشر قاتل ابن صفية بالنار. وجاء ابن جرموز معه سيف الزبير، فقال علي: إن هذا السيف طال ما فرج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ.

3 - وأما طلحة رضي الله عنه، فقد أصيب بسهم في ركبته فمات منه، وقد وقف عليه علي رضي الله عنه، فجعل يمسح عن وجهه التراب، وقال: (رحمة الله عليك أبا محمد، يعز علي أن أراك مجدولًا تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عجري وبجري، والله لوددت أني كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة). وقد روي عن علي من غير وجه أن قال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47].

4 - وقيل لعلي: إن على الباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجهما من ثيابهما.

5 - وقد سألت عائشة رضي الله عنه عمن قتل معها من المسلمين، ومن قتل من عسكر علي، فجعلت كلما ذكر لها واحدًا منهم ترحمت عليه ودعت له.

6 - ولما أرادت الخروج من البصرة، بعث إليها علي بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر - وكان في جيش علي - وسار علي معها مودعًا ومشيعًا أميالًا، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم.

7 - وودعت عائشة الناس وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار، فقال علي: صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

8 - ونادى مناد لعلي: (لا يُقتل مدبر، ولا يذفَّف على جريح، ومن أغلق باب داره فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن). وأمر علي بجمع ما وجد لأصحاب عائشة رضي الله عنها في العسكر، وأن يحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئًا هو لأهلهم فليأخذه. (1)

1- انظر كتاب: العواصم من القواصم لابن العربي - منهاج السنة لابن تيمية - البداية والنهاية لابن كثير - عصر الخلافة الراشدة للدكتور: أكرم ضياء العمري.

واقعة صفين بين أهل العراق وبين أهل الشام (36 - 37 هجرية)

روى الإمام أحمد رحمه الله في المسند: عن إسماعيل ابن عُلَيَّةَ، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، أنه قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف، فلم يحضرها منهم مائة بل لم يبلغوا ثلاثين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خلد، قال لشعبة: إن أبا شيبة روى عن الحكم، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلا، فقال كذب أبو شيبة، والله لقد ذاكرنا الحكم في ذلك فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت؟.

وقد قيل: إنه شهدها من أهل بدر سهل بن حنيف، وكذا أبو أيوب الأنصاري. ذكر ذلك ابن تيمية في كتاب (الرد على الرافضة).

وروى ابن بطة بإسناده: عن بكير بن الأشج أنه قال: أما إن رجالا من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه لما فرغ من وقعة الجمل، ودخل البصرة، وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة، سار من البصرة إلى الكوفة.

قال أبو الكنود عبدالرحمن بن عبيد: فدخلها علي يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين. فقيل له: انزل بالقصر الأبيض.

فقال: لا! إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكرهه لذلك.

فنزل في الرحبة، وصلى في الجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه.

ثم بعث إلى جرير بن عبد الله - وكان على همذان من زمان عثمان - وإلى الأشعث بن قيس - وهو على نيابة أذربيجان من زمان عثمان - أن يأخذا البيعة على من هنالك من الرعايا ثم يقبلا إليه، ففعلا ذلك.

فلما أراد علي رضي الله عنه أن يبعث إلى معاوية رضي الله عنه يدعوه إلى بيعته قال جرير بن عبدالله: أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين، فإن بيني وبينه ودّا، فآخذ لك منه البيعة. [1]

فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإني أخشى أن يكون هواه معه.

فقال علي: دعه، وبعثه وكتب معه كتابا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس.

فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله أعطاه الكتاب، فطلب معاوية عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتل قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين ألم أنهك أن تبعث جريرا، فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية بابا إلا أغلقته.

فقال له جرير: لو كنتَ ثَمَّ لقتلوك بدم عثمان.

فقال الأشتر: والله لو بعثني لم يعيني جواب معاوية، ولأعجلنه عن الفكرة، ولو أطاعني قبل لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة.

فقام جرير مُغضبا، وأقام بقرقيسيا، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وما قيل له.

فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه، وخرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من

1- المصدر السابق.

الكوفة عازما على الدخول إلى الشام، فعسكر بالنخيلة، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدري الأنصاري، وكان قد أشار عليه جماعة بأن يقيم بالكوفة، ويبعث الجنود، وأشار آخرون أن يخرج فيهم بنفسه.

وبلغ معاوية أن عليًّا قد خرج بنفسه، فاستشار عمرو بن العاص فقال له: اخرج أنت أيضًا بنفسك.

وقام عمرو بن العاص في الناس فقال: إن صناديد أهل الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبق مع علي إلا شرذمة قليلة من الناس ممن قتل.

وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلوه، وكتب إلى أجناد الشام فحضروا، وعقدت الألوية والرايات للأمراء، وتهيأ أهل الشام وتأهبوا، وخرجوا أيضًا إلى نحو الفرات من ناحية صفين -حيث يكون مقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وسار علي رضي الله عنه بمن معه من الجنود من النخيلة قاصدا أرض الشام.

وقد اجتاز في طريقه براهب فكان من أمره ما ذكره الحسين بن ويزيل في كتابه فيما رواه عن يحيى بن عبد الله الكرابيسي عن نصر بن مزاحم، عن عمر بن سعد، حدثني مسلم الأعور، عن حبة العرني قال: لما أتى علي الرقة نزل بمكان يقال له البلبخ على جانب الفرات، فنزل إليه راهب من صومعته فقال لعلي: إن عندنا كتابا توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحاب عيسى ابن مريم عليهما السلام أعرضه عليك؟

فقال علي: نعم! فقرأ الراهب الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر، وكتب فيما كتب أنه باعث في الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويدلهم على سبيل الله، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل شرف، وفي كل صعود

وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وينصره الله على كل من ناوأه، فإذا توفاه الله اختلفت أمته، ثم اجتمعت، فلبثت بذلك ما شاء الله، ثم اختلفت ثم يمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق، ولا ينكس الحكم.

الدنيا أهون عليه من الرماد أو قال التراب - في يوم عصفت فيه الريح - والموت أهون عليه من شرب الماء، يخاف الله في السر، وينصح في العلانية، ولا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة.

ثم قال لعليٍّ: فأنا أصاحبك فلا أفارقُك حتى يصيبني ما أصابك.

فبكى علي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسيا منسيا، والحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار.

فمضى الراهب معه وأسلم، فكان مع علي حتى أصيب يوم صفين، فلما خرج الناس يطلبون قتلاهم قال علي: اطلبوا الراهب، فوجدوه قتيلا، فلما وجدوه صلّى عليه ودفنه واستغفر له.

وقد بعث علي بين يديه زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف، ومعه شريح ابن هانئ، في أربعة آلاف، فساروا في طريق بينَ يديه غير طريقه، وجاء علي فقطع دجلة من جسر منبج وسارت المقدمتان.

فبلغهم أن معاوية ركب في أهل الشام ليلتقي أمير المؤمنين عليًّا فهموا بلقياه فخافوا من قلة عددهم بالنسبة إليه، فعدلوا عن طريقهم وجاؤوا ليعبروا من عانات فمنعهم أهل عانات فساروا فعبروا من هيت ثم لحقوا عليًّا - وقد سبقهم - فقال علي: مقدمتي تأتي من ورائي؟

فاعتذروا إليه بما جرى لهم، فعذرهم ثم قدمهم أمامَه إلى معاوية بعد أن عبر الفرات

فتلقاهم أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي في مقدمة أهل الشام فتواقفوا، ودعاهم زياد بن النضر أمير مقدمة أهل العراق إلى البيعة، فلم يجيبوه بشيء فكتب إلى علي بذلك فبعث إليهم عليّ الأشتر النخعي أميرًا، وعلى ميمنته زياد، وعلى ميسرته شريح.

وأمره أن لا يتقدم إليهم بقتال حتى يبدأوه بالقتال، ولكن ليدعهم إلى البَيعة مرة بعد مرة، فإن امتنعوا فلا يقاتلهم حتى يقاتلوه، ولا يقرب منهم قرب من يريد الحرب، ولا يبتعد منهم ابتعاد من يهاب الرجال، ولكن صابرهم حتى آتينك، فأنا حثيث السير وراءك إن شاء الله.

فتحاجزوا يومهم ذلك، فلما كان آخر النهار حمل عليهم أبو الأعور السلمي، وبعث معه بكتاب الإمارة على المقدمة مع الحارث بن جهمان الجعفي، فلما قدم الأشتر على المقدمة امتثل ما أمره به علي، فتواقف هو ومقدمة معاوية وعليها أبو الأعور السلمي فثبتوا له واصطبروا لهم ساعة.

ثم انصرف أهلُ الشام عند المساء، فلما كان الغد تواقفوا أيضًا وتصابروا، فحمل الأشتر فقتل عبد الله بن المنذر التنوخي - وكان من فرسان أهل الشام - قتله رجل من أهل العراق يقال له: ظبيان بن عمارة التميمي.

فعند ذلك حمل عليهم أبو الأعور بمن معه، فتقدموا إليهم وطلب الأشتر من أبي الأعور أن يبارزه فلم يجبه أبو الأعور إلى ذلك، وكأنه رآه غير كفء له في ذلك والله أعلم.

وتحاجز القوم عن القتال عند إقبال الليل من اليوم الثاني، فلما كان صباح اليوم الثالث أقبل علي رضي الله عنه في جيوشه، وجاء معاوية رضي الله عنه في جنوده فتواجه الفريقان وتقابلت الطائفتان فبالله المستعان، فتواقفوا طويلًا.

وذلك بمكان يقال له: صفين، وذلك في أوائل ذي الحجة، ثم عدل علي رضي الله عنه فارتاد لجيشه منزلًا، وقد كان معاوية سبق بجيشه فنزلوا على مشرعة الماء في

أسهل موضع وأفسحه، فلما نزل علي نزل بعيدا من الماء، وجاء سرعان أهل العراق ليردوا من الماء فمنعهم أهل الشام فوقع بينهم مقاتلة بسبب ذلك.

وقد كان معاوية وكل على الشريعة أبا الأعور السلمي، وليس هناك مشرعة سواها، فعطش أصحاب علي عطشًا شديدًا فبعث علي الأشعث بن قيس الكندي في جماعة ليصلوا إلى الماء فمنعهم أولئك وقال: موتوا عطشًا كما منعتم عثمان الماء.

فتراموا بالنبل ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كله، وأمد كل طائفة أهلها حتى جاء الأشتر النخعي من ناحية العراقيين، وعمرو بن العاص من ناحية الشاميين، واشتدت الحرب بينهم أكثر مما كانت، وقد قال رجل من أهل العراق - وهو عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي - وهو يقاتل:

خلُّوا لنا ماءَ الفرات الجاري أو أثبتوا بجحفل جرار

لكل قرم مشرب تيار مطاعن برمحه كرار

ضرَّاب هامات العدي مغوار

ثم ما زال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم وخلوا بينهم وبينه، ثم اصطلحوا على الورود حتى صاروا يزدحمون في تلك الشريعة لا يكلم أحدٌ أحدًا، ولا يؤذي إنسانٌ إنسانًا.

وفي رواية: أن معاوية لما أمر أبا الأعور بحفظ الشريعة وقف دونها برماح مشرعة، وسيوف مسللة، وسهام مفرقة، وقسي موترة، فجاء أصحاب علي عليًّا فشكوا إليه ذلك فبعث صعصعة بن صوحان إلى معاوية يقول له: إنا جئنا كافين عن قتالكم حتى نقيم عليكم الحجة، فبعثت إلينا مقدمتك فقاتلتنا قبل أن نبدأكم، ثم هذه أخرى قد منعونا الماء، فلما بلغه ذلك قال معاوية للقوم: ماذا يريدون؟

فقال عمرو: خل بينهم وبينه، فليس من النصف أن نكون ريانين وهم عطاش.

وقال الوليد: دعهم يذوقوا من العطش ما أذاقوا أمير المؤمنين عثمان حين حصروه في داره، ومنعوه طيب الماء والطعام أربعين صباحًا.

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: امنعهم الماء إلى الليل فلعلهم يرجعون إلى بلادهم.

فسكت معاوية فقال له صعصعة بن صوحان: ماذا جوابك؟

فقال: سيأتيكم رأيي بعد هذا، فلما رجع صعصعة فأخبر الخبر ركب الخيل والرجال، فما زالوا حتى أزاحوهم عن الماء ووردوه قهرًا، ثم اصطلحوا فيما بينهم على ورود الماء، ولا يمنع أحد أحدا منه.

وأقام علي يومين لا يكاتب معاوية ولا يكاتبه معاوية، ثم دعا بشيرًا بن عمرو الأنصاري، وسعيدًا بن قيس الهمذاني، وشبيث بن ربعي السهمي فقال: إيتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة، واسمعوا ما يقول لكم.

فلما دخلوا على معاوية قال له بشير بن عمرو: يا معاوية! إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، والله محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها.

فقال له معاوية: هلا أوصيت بذلك صاحبكم؟

فقال له: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك إلى مبايعته فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في آخرتك.

فقال معاوية: ويطل دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدًا.

ثم أراد سعيد بن قيس الهمداني أن يتكلم فبدره شبيث بن ربعي فتكلم قبله بكلام فيه غلظة وجفاء في حق معاوية، فزجره معاوية وزبره في افتياته على من هو أشرف منه، وكلامه بما لا علم له به.

ثم أمر بهم فأخرجوا من بين يديه، وصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قُتِلَ مظلومًا، فعند ذلك نشبت الحرب بينهم، وأمر علي بالطلائع والأمراء أن تتقدم للحرب، وجعل علي يؤمر على كل قوم من الحرب أميرًا، فمن أمرائه على الحرب

الأشتر النخعي - وهو أكبر من كان يخرج للحرب - وحجر بن عدي، وشبيث بن ربعي، وخالد بن المعتمر، وزياد بن النضر، وزياد بن حفصة، وسعيد بن قيس، ومعقل ابن قيس، وقيس بن سعد.

وكذلك كان معاوية يبعث على الحرب كل يوم أميرا، فمن أمرائه: عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلم، وذو الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السمط، وحمزة بن مالك الهمداني، وربما اقتتل الناس في اليوم مرتين، وذلك في شهر ذي الحجة بكماله.

فلما رُفعت المصاحف قال أهل العراق: نجيب إلى كتاب الله ونحيب إليه.

قال أبو مخنف: حدثني عبدالرحمن بن جندب الأزدي، عن أبيه أن عليًّا قال: عباد الله امضوا إلى حقِّكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دِين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويحكم والله إنهم ما رفعوها إنهم يقرأونها ولا يعملون بما فيها وما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة.

فقالوا له: ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله.

فقال لهم: إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم به، وتركوا عهده، ونبذوا كتابه.

فقال له مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، ثم السبائي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج: يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه غلبنا أن يعمل بكتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك.

قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم.

قالوا: فابعث إلى الأشتر فليأتك ويكف عن القتال.

فبعث إليه علي ليكف عن القتال.

وقد ذكر الهيثم بن عَدِيٍّ في كتابه الذي صنفه في الخوارج فقال قال ابن عباسْ: فحدثني محمد بن المنتشر الهمداني عن من شهد صفين وعن ناس من رؤوس الخوارج ممن لا يتهم على كذب: أن عمار بن ياسر كره ذلك وأبى وقال في علي بعض ما أكره ذكره ثم قال: من رائح إلى الله قبل أن يبتغي غير الله حكما؟ فحمل فقاتل حتى قتل رحمة الله عليه.

وكان ممن دعا إلى ذلك سادات الشاميين: عبد الله بن عمرو بن العاص قام في أهل العراق فدعاهم إلى الموادعة والكف وترك القتال والائتمار بما في القرآن وذلك عن أمر معاوية له بذلك رضي الله عنهما.

وكان ممن أشار على علي بالقبول والدخول في ذلك: الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه.

فروى أبو مِخْنف من وجه آخر: أن عليًّا لما بعث إلى الأشتر قال: قل له إنه ليس هذه ساعة ينبغي أن لا تزيلني عن موقفي فيها، إني قد رجوت أن يفتح الله عليَّ فلا تعجلني، فرجع الرسول - وهو يزيد بن هانئ - إلى علي فأخبره عن الأشتر بما قال، وصمم الأشتر على القتال لينتهز الفرصة، فارتفع الهرج وعلت الأصوات.

فقال أولئك القوم لعلي: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل.

فقال: أرأيتموني ساررته؟ ألم أبعث إليه جهرًا وأنتم تسمعون؟

فقالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك.

فقال علي ليزيد بن هانئ: ويحك!

قال له: أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فلما رجع إليه يزيد بن هانئ فأبلغه عن أمير المؤمنين أنه ينصرف عن القتال ويقبل إليه، جعل يتململ ويقول: ويحك ألا ترى إلى ما نحن فيه من النصر، ولم يبق إلا القليل؟

فقلت: أيهما أحب إليك أن تقبل أو يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان؟

ثم ماذا يغني عنك نصرتك هاهنا؟

قال: فأقبل الأشتر إلى علي وترك القتال.

فقال: يا أهل العراق! يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم، أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح.

قالوا: لا.

قال: أمهلوني عَدْوَ الفرس فإني قد طمعت في النصر.

قالوا: إذا ندخل معك في خطيئتك.

ثم أخذ الأشتر يناظر أولئك القراء الداعين إلى إجابة أهل الشام بما حاصله: إن كان أول قتالكم هؤلاء حقًّا فاستمروا عليه وإن كان باطلا فاشهدوا لقتلاكم بالنار.

فقالوا: دعنا منك فإنا لا نطيعك ولا صاحبك أبدا ونحن قاتلنا هؤلاء في الله وتركنا قتالهم لله.

فقال لهم الأشتر: خُدعتم والله فانخدعتم ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب السوء كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقا إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم بربانيين بعدها، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون.

فسبوه وسبهم فضربوا وجه دابته بسياطهم، وجرت بينهم أمور طويلة، ورغب أكثر الناس من العراقيين وأهل الشام بكمالهم إلى المصالحة والمسالمة مدة لعله يتفق أمر يكون فيه حقن لدماء المسلمين، فإن الناس تفانوا في هذه المدة، ولا سيما في هذه الثلاثة الأيام المتأخرة التي آخر أمرها ليلة الجمعة وهي ليلة الهرير.[1]

1- المصدر السابق.

كل من الجيشين فيه من الشجاعة والصبر ما ليس يوجد في الدنيا مثله، ولهذا لم يفر أحد عن أحد، بل صبروا حتى قتل من الفريقين فيما ذكره غير واحد سبعون ألفا خمسة وأربعون ألفا من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفا من أهل العراق.

قاله غير واحد منهم ابن سيرين، وسيف، وغيرهما.

وزاد أبو الحسن بن البراء - وكان من أهل العراق -خمسة وعشرون بدريا قال: وكان بينهم في هذه المدة تسعون زحفا واختلفا في مدة المقام بصفين.

فقال سيف: سبعة أشهر أو تسعة أشهر.

وقال أبو الحسن بن البراء: مائة وعشرة أيام.

قلت (أي ابن كثير): ومقتضى كلام أبي مخنف أنه كان من مستهل ذي الحجة في يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من صفر، وذلك سبعة وسبعون يوما فالله أعلم.

وقال الزهري: بلغني أنه كان يدفن في القبر الواحد خمسون نفسا هذا كله ملخص من كلام ابن جرير وابن الجوزي في كتابه المنتظم.

وقد روى البيهقي من طريق يعقوب بن سفيان، عن أبي اليمان، عن صفوان بن عمرو: كان أهل الشام ستين ألفا فقتل منهم عشرون ألفا، وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفا، فقتل منهم أربعون ألفا.

وحمل البيهقي هذه الوقعة على الحديث الذي أخرجاه في الصحيحين من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

ورواه البخاري من حديث شعيب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

ومن حديث شعيب، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة».

ورواه مجالد، عن أبي الحَواري، عن أبي سعيد مرفوعا مثله.

ورواه الثوري، عن ابن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد .. قال: قال

رسول اللهﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة فبينما هم كذلك مرق منهما مارقة تقتلهم أولى الطائفتين بالحق».

وما رواه الإمام أحمد، عن مهديٍّ، وإسحاق، عن سفيان، عن منصور، عن ربعي بن خراش، عن البراء بن ناجية الكاهلي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن رحى الإسلام ستزول لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عامًا».

فقال عمر: يا رسول الله، أم مما مضى؟ أم مما بقي؟

قال: «بل مما بقي».

وقد رواه إبراهيم بن الحسين بن ديزيل في كتاب جمعه في سيرة علي، عن أبي نعيم الفضل بن دكين، عن شريك، عن منصور به مثله.

وقال أيضًا: حدثنا أبو نعيم، ثنا شريك بن عبد الله النخعي، عن مجالد، عن عامر الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إن رحى الإسلام ستزول بعد خمس وثلاثين سنة فإن يصطلحوا فيما بينهم يأكلوا الدنيا سبعين عامًا رغدًا، وإن يقتتلوا يركبوا سنن من كان قبلهم».

وقال ابن ديزيل: حدثنا عبد الله بن عمر، ثنا عبد الله بن خراش الشيباني، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي قال: قال رسول الله ﷺ: «تدور رحى الإسلام عند قتل رجل من بني أمية» - يعني: عثمان رضي الله عنه -.

وقال أيضًا: حدثنا الحكم عن نافع، عن صفوان بن عمرو، عن الأشياخ: أن رسول الله ﷺ دُعي إلى جنازة رجل من الأنصار فقال - وهو قاعدٌ ينتظرها -: «كيف أنتم إذا راعيتم حبلَيْن كذا في الإسلام؟».

قال أبوبكر: أو يكون ذلك في أمة إلهها واحد ونبيها واحد؟

قال: «نعم».

قال: أفأدرك ذلك يا رسول الله؟

قال: «لا».

قال عمر: أفأدرك ذلك يا رسول الله؟

قال: «لا».

قال: عثمان أفأدرك ذلك يا رسول الله؟

قال: «نعم بك يُفتنون».

وقال أيضًا عمر لابن عباس: كيف يختلفون وإلههم واحد وكتابهم واحد وملتهم واحدة؟

فقال: إنه سيجيء قوم لا يفهمون القرآن كما نفهمه، فيختلفون فيه فإذا اختلفوا فيه اقتتلوا، فأقر عمر بن الخطاب بذلك.

وقال أيضًا: حدثنا أبو نعيم، ثنا سعيد بن عبدالرحمن - أخو أبي حمزة - ثنا محمد ابن سيرين قال: لما قتل عثمان قال عدي بن حاتم: لا ينتطح في قتله عنزان.

فلما كان يوم صفين فقئت عينه فقيل: لا ينتطح في قتله عنزان فقال: بلى وتفقأ عيون كثيرة.

وروي عن كعب الأحبار: أنه مر بصفين فرأى حجارتها فقال: لقد اقتتل في هذا الموضع بنو إسرائيل تسع مرات وإن العرب ستقتتل فيها العاشرة حتى يتقاذفوا بالحجارة التي تقاذف فيها بنو إسرائيل ويتفانوا كما تفانوا.

وقد ثبت في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من سواهم فيستبيح بيضتهم فأعطانيها وسألته أن لا يسلط بعضهم على بعض فمنعنيها».

قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65].

قال رسول الله: «هذا أهون».

لجوء الطرفين إلى التحكيم

قال ابن كثير: ثم تراوض الفريقان بعد مكاتبات ومراجعات يطول ذكرها على التحكيم، وهو أن يحكّم كل واحد من الأميرين - علي ومعاوية - رجلا من جهته ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة للمسلمين.

فوكل معاوية عمرو بن العاص، وأراد علي أن يوكل عبد الله بن عباس - وليته فعل - ولكنه منعه القراء ممن ذكرنا، وقالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري.

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج له: أن أول من أشار بأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه أنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال.

وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز، قال علي: فإني أجعل الأشتر حكما.

فقالوا: وهل سعر الحرب وسَعَّر الأرض إلا الأشتر؟

قال: فاصنعوا ما شئتم.

فقال الأحنف لعلي: والله لقد رميت بحجر، إنه لا يصلح هؤلاء القوم إلا رجل منهم يدنو منهم حتى يصير في أكفهم ويبتعد حتى يصير بمنزلة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانيا وثالثا، فإنه لن يعقد عقدة إلا أحلها، ولا يحل عقدة عقدتها إلا عقدت لك أخرى مثلها أو أحكم منها.

قال: فأبوا إلا أبا موسى الأشعري فذهبت الرسل إلى أبي موسى الأشعري - وكان قد اعتزل - فلما قيل له: إن الناس قد اصطلحوا.

قال: الحمد لله.

قيل له: وقد جُعلت حكما.

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أخذوه حتى أحضروه إلى علي رضي الله عنه.

وكتبوا بينهم كتابا هذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين.

فقال عَمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم وليس بأميرنا.

فقال الأحنف: لا نكتب إلا أمير المؤمنين.

فقال علي: امح أمير المؤمنين واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فامتنع المشركون من ذلك وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

فكتب الكاتب: هذا ما تقاضى عليه عليٌّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل العراق ومن معهم من شيعتهم والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله وكتابه ونحيي ما أحيا اللهُ، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله - وهما أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص - عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله، فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة.

ثم أخذ الحكمان من علي، ومعاوية، ومن الجندين، العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنهما على ما في هذه الصحيفة، وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك على تراض منهما.

وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح.[1]

1- المصدر السابق.

وقد ذكر الهيثم في كتابه في (الخوارج): أن الأشعث بن قيس لما ذهب إلى معاوية بالكتاب وفيه: هذا ما قاضى عبد الله علي أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان.

قال معاوية: لو كان أمير المؤمنين لم أقاتله، ولكن ليكتب اسمه وليبدأ به قبل اسمي لفضله وسابقته.

فرجع إلى علي فكتب كما قال معاوية.

وذكر الهيثم: أن أهل الشام أبوا أن يبدأ باسم علي قبل معاوية وباسم أهل العراق قبلهم حتى كتب كتابان كتاب لهؤلاء فيه تقديم معاوية على علي وكتاب آخر لأهل العراق بتقديم اسم علي وأهل العراق على معاوية وأهل الشام.

وهذه تسمية من شهد على هذا التحكيم من جيش علي: عبد الله بن عباس، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، وعبد الله بن الطفيل المعافري، وحجر بن يزيد الكندي، وورقاء بن سمي العجلي، وعبد الله بن بلال العجلي، وعقبة ابن زياد الأنصاري، ويزيد بن جحفة التميمي، ومالك بن كعب الهمداني، فهؤلاء عشرة.

وأما من الشاميين فعشرة آخرون وهم: أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، ومخارق بن الحارث الزبيدي، ووائل بن علقمة العدوي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، وحمزة بن مالك الهمداني، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعتبة بن أبي سفيان أخو معاوية، ويزيد بن الحر العبسي.

وخرج الأشعث بن قيس بذلك الكتاب يقرؤه على الناس، ويعرضه على الطائفتين، ثم شرع الناس في دفن قتلاهم.

قال الزهري: بلغني أنه دفن في كل قبر خمسون نفسا، وكان علي قد أسر جماعة من أهل الشام.

فلما أراد الانصراف أطلقهم، وكان مثلهم أو قريب منهم في يد معاوية وكان قد

عزم على قتلهم لظنه أنه قد قتل أسراهم، فلما جاءه أولئك الذين أطلقهم أطلق معاوية الذين في يده.

ويقال: إن رجلا يقال له عمرو بن أوس - من الأزد -كان من الأسارى فأراد معاوية قتله فقال: امنن عليّ فإنك خالي.

فقال: ويحك! من أين أنا خالك؟

فقال: إن أم حبيبة زوجَ رسول الله ﷺ، وهي أم المؤمنين وأنا ابنها وأنت أخوها وأنت خالي.

فأعجب ذلك معاوية وأطلقه.

وقال عبدالرحمن بن زياد بن أنعم - وذكر أهل صفين - فقال: كانوا عربا يعرف بعضهم بعضا في الجاهلية فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنوهم.

قال الشعبي: هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضا فلم يفر أحد من أحد.[1]

1- المصدر السابق.

ظهور أمر الخوارج عند اعتراضهم على التحكيم

كان بداية ظهور الخوارج أن الأشعث بن قيس مر على ملأ من بني تميم فقرأ عليهم الكتاب فقام إليه عروة ابن أذينة وهي أمه وهو عروة بن جرير من بني ربيعة بن حنظلة، وهو أخو أبي بلال بن مرداس بن جرير فقال: أتحكّمون في دين الله الرجال؟

ثم ضرب بسيفه عجز دابة الأشعث بن قيس، فغضب الأشعث وقومه، وجاء الأحنف بن قيس وجماعة من رؤسائهم يعتذرون إلى الأشعث بن قيس من ذلك.

قال الهيثم بن عَدِيٍّ: والخوارج يزعمون أن أول من حكم عبد الله بن وهب الراسبي.

قال ابن كثير: والصحيح الأول وقد أخذ هذه الكلمة من هذا الرجل طوائف من أصحاب علي من القراء وقالوا: لا حكم إلا لله، فسموا المحكمية وتفرق الناس إلى بلادهم من صفين، وخرج معاوية إلى دمشق بأصحابه، ورجع علي إلى الكوفة على طريق هيت فلما دخل الكوفة سمع رجلا يقول: ذهب علي ورجع في غير شيء.

فقال علي: للذين فارقناهم خير من هؤلاء وأنشأ يقول:

أخوك الذي إن أحرجتك ملمة ... من الدهر لم يبرح لبثك راحما

وليس أخوك بالذي إن تشعبت ... عليك أمور ظـل يلحاك لائما

ثم مضى فجعل يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة من الكوفة، ولما كان قد قارب دخول الكوفة اعتزل من جيشه قريب من - اثني عشر ألفا - وهم الخوارج، وأبوا أن يساكنوه في بلده، ونزلوا بمكان يقال له حروراء وأنكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها.

فبعث إليهم علي رضي الله عنه عبد الله بن عباس فناظرهم فرجع أكثرهم وبقي

بقيتهم، فقاتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه كما سيأتي بيانه وتفصيله قريبا إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن هؤلاء الخوارج هم المشار إليهم في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «تمرق مارقة على حين فرقة من الناس - وفي رواية: من المسلمين، وفي رواية: من أمتي - فيقتلها أولى الطائفتين».

وهذا الحديث له طرق متعددة، وألفاظ كثيرة، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وعفان بن القاسم بن الفضل، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد.. قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق».

رواه مسلم، عن شَيبان بن فروخ، عن القاسم بن محمد به.

وقال أحمد: حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ: «تكون أمتي فرقتين تخرج بينهما مارقة تلي قتلها أولاهما».

ورواه مسلم من حديث قتادة وداود بن أبي هند، عن أبي نَضْرَةَ به.

وقال أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن سليمان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ «ذكر قوما يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحليق هم شر الخلق - أو من شر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق».

قال أبو سعيد: فأنتم قتلتموهم يا أهل العراق.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي فرقتين فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق».

ورواه عن يحيى القطان، عن عوف وهو الأعرابي به مثله. ورواه مسلم أيضًا من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن الضحاك الشرقي، عن أبي سعيد بنحوه.

فهذا الحديث من دلائل النبوة إذ قد وقع الأمر طِبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام، من تكفيرهم أهل الشام.

وفيه: أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليًّا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدا، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علي هو الإمام فله أجران كما ثبت في (صحيح البخاري) من حديث عمرو ابن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

وقد تقدم أن عليًّا رضي الله عنه لما رجع من الشام بعد وقعة صفين وذهب إلى الكوفة، فلما دخلها انعزل عنه طائفة من جيشه، قيل: ستة عشر ألفا وقيل: اثني عشر ألفا، وقيل: أقل من ذلك، فباينوه وخرجوا عليه، وأنكروا أشياء.

فبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم فيها ورد عليهم ما توهموه شبهة، ولم يكن له حقيقة في نفس الأمر، فرجع بعضهم واستمر بعضهم على ضلالهم حتى كان منهم ما سنورده قريبا.

ويقال: إن عليًّا رضي الله عنه ذهب إليهم فناظرهم فيما نقموا عليه حتى استرجعهم عما كانوا عليه، ودخلوا معه الكوفة، ثم إنهم عاهدوا فنكثوا ما عاهدوا عليه وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام على الناس في ذلك، ثم تحيزوا إلى موضع يقال له: النهروان، وهناك قاتلهم علي رضي الله عنه. (1)

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع، حدثني يحيى بن سليم، عن عبدالله بن عثمان بن خُثيم، عن عبيد الله بن عياض بن عمرو القارئ قال: جاء عبدالله ابن شداد فدخل على عائشة ونحن عند مرجعه من العراق ليالي قتل علي، فقالت له: يا عبد الله بن شداد هل أنت صادقي عما أسالك عنه؟

1- اقرأ كتاب (الخوارج من النهروان إلى خراسان) الناشر: دار الكتاب العربي..

فحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي.

فقال: ومالي لا أصدقك؟

قالت: فحدثني عن قصتهم.

قال: فإن عليًّا لما كاتب معاوية وحكَّم الحكمان، خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس فنزلوا بأرض يقال لها: حروراء من جانب الكوفة، وأنهم عتبوا عليه فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله، واسم سمّاك به الله.

ثم انطلقت فحكمت في دين الله ولا حكم إلا لله، فلما أن بلغ عليًّا ما عتبوا عليه وفارقوه عليه، أمر فأذن مؤذن أن لا يدخل على أمير المؤمنين رجل إلا رجلا قد حمل القرآن.

فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين يديه فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف! حدث الناس، فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد؟

قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: 35].

فأمة رسول الله ﷺ أعظم دما وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا عليّ أن كاتبت معاوية كتبت علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشا، فكتب رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

قال: «كيف تكتب؟».

قال: اكتب باسمك اللهم!

فقال رسول الله ﷺ: «اكتب» فكتب.

فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله».

فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك.

فكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشا.

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].

فبعث إليهم عبد الله بن عباس فخرجت معه حتى إذا توسطت عسكرهم فقام ابن الكوا فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن هذا عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي قومه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: 58].

فردوه إلى صاحبه ولا تُواضعوه كتاب الله.

فقال بعضهم: والله لنواضعنه فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه وإن جاء بباطل لنكبتنه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكوا، حتى أدخلهم على عليّ الكوفة.

فبعث علي إلى بقيتهم فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة رسول الله ﷺ بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دما حراما، أو تقطعوا سبيلا، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: 58].

فقالت له عائشة: يا ابن شداد فقتلهم.

فقالوا: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدماء، واستحلُّوا الذمة.

فقالت: آلله.

قال: آلله لا إله إلا هو، قد كان ذلك.

قالت: فما شيء بلغني عن أهل العراق يقولون ذو الثدي وذو الثدية؟

قال: قد رأيته وكنت مع علي في القتلى فدعا الناس فقال: أتعرفون هذا؟

فما أكثر من جاء يقول: قد رأيته في مسجد بني فلان، ورأيته في مسجد بني فلان يصلي ولم يأتوا فيه بثبت يعرف إلا ذلك.

قالت: فما قول علي حيث قام عليه كما يزعم أهل العراق؟

قال: سمعته يقول: صدق الله ورسوله.

قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك؟... قال: اللهم لا!

قالت: أجل! صدق الله ورسوله، يرحم الله عليًّا إنه كان لا يرى شيئا يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله.

فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث تفرد به أحمد وإسناده صحيح، واختاره الضياء ففي هذا السياق ما يقتضي أن عدتهم كانوا ثمانية آلاف، لكن من القراء، وقد يكون واطأهم على مذهبهم آخرون من غيرهم حتى بلغوا اثني عشر ألفا، أو ستة عشر ألفا. (1)

ولما ناظرهم ابن عباس رجع منهم أربعة آلاف وبقي بقيتهم على ما هم عليه، وقد رواه يعقوب بن سفيان، عن موسى بن مسعود، عن عكرمة بن عمار، عن سماك أبي زميل، عن ابن عباس فذكر القصة وأنهم عتبوا عليه في كونه حكم الرجال، وأنه محى اسمه من الإمرة، وأنه غزا يوم الجمل فقتل الأنفس الحرام، ولم يقسم الأموال والسبي، فأجاب عن الأولين بما تقدم.

وعن الثالث بما قال: قد كان في السبي أم المؤمنين فإن قلتم ليست لكم بأم فقد كفرتم، وإن استحللتم سبي أمهاتكم فقد كفرتم.

قال: فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فتقاتلوا.

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

وذكر غيره: أن ابن عباس لبس حلة لما دخل عليهم، فناظروه في لبسه إياها، فاحتج بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: 32].

وذكر ابن جرير أن عليًّا خرج بنفسه إلى بقيتهم، فلم يزلْ يناظرهم حتى رجعوا معه إلى الكوفة، وذلك يوم عيد الفطر أو الأضحى شك الراوي في ذلك، ثم جعلوا يعرضون له في الكلام ويسمعونه شتما ويتأولون بتأويل في قوله.

قال الشافعي رحمه الله: قال رجل من الخوارج لعلي وهو في الصلاة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: 65].

فقرأ علي: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: 60].

وقد ذكر ابن جرير أن هذا كان وعلي في الخطبة.

وذكر ابن جرير أيضًا أن عليًّا بينما هو يخطب يوما إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا علي أشركت في دين الله الرجال ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل جانب لا حكم إلا لله، لا حكم إلا لله.

فجعل علي يقول: هذه كلمة حق يراد بها باطل، ثم قال: إن لكم علينا أن لا نمنعكم فيئا ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤنا.

ثم إنهم خرجوا بالكلِّية عن الكوفة وتحيزوا إلى النهروان وأن على ما سنذكره بعد حكم الحكمين.

اجتماع الحكمَيْن بدومة الجندل

قيل كان اجتماعهما في شهر رمضان، وقال الواقدي: اجتمعوا في شعبان وذلك أن عليًّا رضي الله عنه لما كان مجيء رمضان بعث أربعمائة فارس مع شريح بن هانئ، ومعهم أبو موسى، وعبد الله بن عباس، وإليه الصلاة، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام ومنهم عبد الله بن عمر، فتوافوا بدومة الجندل بأذرح - وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام، بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل - وشهد معهم جماعة من رؤوس الناس، كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وعبدالرحمن بن عبد يغوث الزهري، وأبي جهم بن حذيفة. وزعم بعض الناس أن سعد بن أبي وقاص شهدهم أيضًا، وأنكر حضوره آخرون.

وقد ذكر ابن جرير أن عمر بن سعد خرج إلى أبيه وهو على ماء لبني سليم بالبادية معتزل: فقال يا أبة: قد بلغك ما كان الناس بصفين، وقد حَكَّم الناس أبا موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، وقد شهدهم نفر من قريش، فأشهدهم فإنك صاحب رسول الله ﷺ، وأحد أصحاب الشورى ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة فاحضر إنك أحق الناس بالخلافة.

فقال: لا أفعل! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون فتنة خير الناس فيها الخفي البقي» والله لا أشهد شيئا من هذا الأمر أبدا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبوبكر الحنفي عبد الكبير بن عبد المجيد، ثنا بكر بن سمار، عن عامر بن سعد أن أخاه عمر انطلق إلى سعد في غنم له خارجا من المدينة فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب.

فلما أتاه قال: يا أبة أرضيت أن تكون أعرابيا في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟

فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»، وهكذا رواه مسلم في صحيحه.

وقال أحمد أيضًا: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا كثير بن زيد الأسلمي، عن المطلب، عن عمر بن سعد، عن أبيه أنه جاءه ابنه عامر فقال: يا أبة: الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ههنا؟

فقال: يا بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا؟ لا والله حتى أعطي سيفا إن ضربت به مؤمنا نبا عنه، وإن ضربت به كافرا قتلته، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب الغني الخفي التقي».

قال ابن كثير: والمقصود أن سعدا لم يحضر أمر التحكيم، ولا أراد ذلك، ولاهم به، وإنما حضره من ذكرنا.

فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور، ثم اتفقا على أن يعزلا عليًّا ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما.

وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال له عمرو: فولّ ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد.

فقال له أبو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن معك، وهو مع ذلك رجل صدق.

قال أبو مخنف: فحدثني محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال عمرو ابن العاص: إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم.

وكان ابن عمر فيه غفلة، فقال له ابن الزبير: افطن وانتبه.

فقال ابن عمر: لا والله لا أرشو عليها شيئا أبدا، ثم قال: يا ابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف، وتشاكت بالرماح، فلا تردنهم في فتنة مثلها أو أشد منها ثم إن عمرو بن العاص حاول أبا موسى على أن يقر معاوية

وحده على الناس فأبى عليه، ثم حاوله ليكون ابنه عبد الله بن عمرو هو الخليفة، فأبى أيضًا.

وطلب أبو موسى من عمرو أن يوليا عبد الله بن عمر فامتنع عمرو أيضًا، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعليا ويتركا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على من يختاروه لأنفسهم.

ثم جاءا إلى المجمع الذي فيه الناس - وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى بل يقدّمه في كل الأمور أدبا وإجلالا - فقال له: يا أبا موسى قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.

فخطب أبو موسى الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أمرا أصلح لها ولا ألم لشعثها، من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع عليًّا ومعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه، وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية.

ثم تنحَّى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان، والمطالِب بدمه، وهو أحقُّ الناس بمقامه - وكان عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطئ ويصيب. ويقال: إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ورد عليه عمرو بن العاص مثله. [1]

وذكر ابن جرير أن شريح بن هانئ - مقدم جيش علي - وثب على عمرو بن العاص فضربه بالسوط، وقام إليه ابن لعمر فضربه بالسوط، وتفرق الناس في كل وجه إلى بلادهم، فأما عمرو وأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بتحية الخلافة.

1- المصدر السابق.

وأما أبو موسى فاستحيا من علي فذهب إلى مكة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو، فاستضعفوا رأي أبي موسى وعرفوا أنه لا يوازن عمرو بن العاص.

فذكر أبو مخنف عن أبي جناب الكلبي أن عليًّا لما بلغه ما فعل عمرو كان يلعن في قنوته معاوية، وعمرو بن العاص، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، والضحاك ابن قيس، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، والوليد بن عتبة.

فلما بلغ ذلك معاوية كان يلعن في قنوته عليا، وحسنا وحسينا، وابن عباس، والأشتر النخعي، ولا يصح هذا والله أعلم.

وقال ابن كثير أيضًا: فأما الحديث الذي قال البيهقي في (الدلائل): عن جرير، عن زكريا بن يحيى، عن عبد الله بن يزيد وحبيب بن يسار، عن سويد بن غفلة قال: إني لأمشي مع علي بشط الفرات.

فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين، فضلا وأضلا، وإن هذه الأمة ستختلف، فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين، فيضلاّن ويضلاّن من اتبعهما».

فإنه حديث منكر ورفعه موضوع والله أعلم.

إذ لو كان هذا معلوما عند علي لم يوافق على تحكيم الحكمين حتى لا يكون سببا لإضلال الناس، كما نطق به هذا الحديث.

وآفة هذا الحديث هو: زكريا بن يحيى وهو الكِندي الحميري الأعمى، قال ابن معين: ليس بشيء. [1]

1- المصدر السابق.

الخوارج وخروجهم على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

لما بعث عليٌّ أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليٍّ وصرحوا بكفره، فجاء إليه رجلان منهم، وهما: زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي، فقالا: لا حُكم إلا لله.

فقال علي: لا حكم إلا لله.

فقال له حرقوص: تب من خطيئتك واذهب بنا إلى عدونا حتى نقاتلهم حتى نلقى ربنا.

فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهودا وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: 91].

فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه.

فقال علي: ما هو بذنب ولكنه عجز من الرأي، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه، ونهيتكم عنه.

فقال له زُرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه.

فقال علي: تبا لك ما أشقاك! كأني بك قتيلا تسفي عليك الريح.

فقال: وددت أن قد كان ذلك.

فقال له علي: إنك لو كنت محقا كان في الموت تعزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم.

فخرجا من عنده يحكمان وفشى فيهم ذلك، وجاهروا به الناس، وتعرضوا لعلي في خطبه وأسمعوه السب والشتم والتعريض بآيات من القرآن، وذلك أن عليًّا قام خطيبا في بعض الجمع فذكر أمر الخوارج فذمه وعابه.

فقام جماعة منهم كل يقول لا حكم إلا لله، وقام رجل منهم وهو واضع إصبعه في أذنيه يقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

فجعل علي يقلب يديه هكذا وهكذا وهو على المنبر ويقول: حكم الله ننتظر فيكم.

ثم قال: إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا ما لم تخرجوا علينا ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا.

وقال أبو مخنف، عن عبد الملك، عن أبي حرّة: أن عليًّا لما بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في هذه الدنيا ورغبهم في الآخرة والجنة، وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم قال: فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى جانب هذا السواد إلى بعض كور الجبال، أو بعض هذه المدائن، منكرين لهذه الأحكام الجائرة.

ثم قام حرقوص بن زهير فقال: بعد حمد الله والثناء عليه: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا يدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128].

فقال سنان بن حمزة الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم، وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلا منكم، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد، ومن راية تحفون بها وترجعون إليها.

فبعثوا إلى زيد بن حِصن الطائي - وكان من رؤوسهم - فعرضوا عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعرضوها على حمزة بن سنان فأبى، وعرضوها على شريح بن أبي أوفى العبسي فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقبلها وقال: أما والله لا أقبلها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت.

واجتمعوا أيضًا في بيت زيد بن حصن الطائي السنبسي فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلا عليهم آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26]الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44].

وكذا التي بعدها وبعدها الظالمون الفاسقون ثم قال: فأشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال، وأن جهادهم حق على المؤمنين، فبكى رجل منهم يقال له: عبد الله بن سَخْبَرة السلمي.

ثم حرض أولئك على الخروج على الناس، وقال في كلامه: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن قُتلتم فأي شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته؟

وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: 103 - 105].

لقد اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطأوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ويتحصنوا بها ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم -ممن هو على رأيهم ومذهبهم، من أهل البصرة وغيرها- فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها.

فقال لهم زيد بن حصن الطائي: إن المدائن لا تقدرون عليها، فإن بها جيشا لا تطيقونه وسيمنعونها منكم، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جوخى، ولا تخرجوا من الكوفة جماعات، ولكن اخرجوا وحدانا لئلا يفطن بكم.

قال ابن كثير: فكتبوا كتابًا عامًّا إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها، وبعثوا به إليه ليوافوهم إلى النهر ليكونوا يدًا واحدةً على الناس، ثم خرجوا يتسللون وحدانا لئلا يعلم أحد بهم فيمنعوهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأخوال والخالات وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون -بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم- أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسموات.

ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر الموبقات، والعظائم والخطيئات، وأنه مما زينه لهم إبليس الشيطان الرجيم المطرود عن السموات الذي نصب العداوة لأبينا آدم ثم لذريته ما دامت أرواحهم في أجسادهم مترددات، والله المسئول أن يعصمنا منه بحوله وقوته إنه مجيب الدعوات.

وقد تدارك جماعة من الناس بعض أولادهم وإخوانهم فردوهم وأنبوهم ووبخوهم فمنهم من استمر على الاستقامة، ومنه من فر بعد ذلك فلحق بالخوارج فخسر إلى يوم القيامة.

وذهب الباقون إلى ذلك الموضع ووافى إليهم من كانوا كتبوا إليه من أهل البصرة وغيرها، واجتمع الجميع بالنهروان، وصارت لهم شوكة ومنعة، وهم جند مستقلون وفيهم شجاعة، وعندهم أنهم متقربون بذلك. فهم لا يصطلى لهم بنار، ولا يطمع في أن يؤخذ منهم بثأر، وبالله المستعان.

وقال أبو مخنف، عن أبي رَوْقٍ، عن الشعبي: أن عليًّا لما خرجت الخوارج إلى النهروان، وهرب أبو موسى إلى مكة، ورد ابن عباس إلى البصرة، قام في الناس بالكوفة خطيبا فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدثان الجليل الكادح، وأشهد أن لا إله غيره وأن محمدا رسول الله، أما بعد.

فإن المعصية تشين وتسوء وتورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة بأمري، ونحلتكم رأيي، فأبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ثم تكلم فيما فعله الحكمان فرد عليهما ما حكما به وأنبهما، وقال ما فيه حط عليهما، ثم ندب الناس إلى الخروج إلى الجهاد في أهل الشام، وعين لهم يوم الاثنين يخرجون فيه، وندب إلى ابن عباس والي البصرة يستنفر له الناس إلى الخروج إلى أهل الشام.

وكتب إلى الخوارج يعلمهم أن الذي حكم به الحكمان مردود عليهما، وأنه قد عزم على الذهاب إلى الشام فهلموا حتى نجتمع على قتالهم.

فكتبوا إليه: أما بعد.

فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك وإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: 58].

فلما قرأ عليٌّ كتابهم يئس منهم، وعزم على الذهاب إلى أهل الشام ليناجزهم، وخرج من الكوفة إلى النخيلة في عسكر كثيف - خمسة وستين ألفا - وبعث إليه ابن عباس بثلاثة آلاف ومائتي فارس من أهل البصرة مع جارية بن قدامة ألف وخمسمائة. ومع أبي الأسود الدؤليِّ ألف وسبعمائة، فكمل جيش علي في ثمانية وستين ألف فارس ومائتي فارس وقام علي أمير المؤمنين خطيبا: فحثهم على الجهاد والصبر عند لقاء العدو، وهو عازم على الشام، فبينما هو كذلك إذ بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فسادا، وسفكوا الدماء وقطعوا السبل واستحلوا المحارم.

وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، أسروه وامرأته معه وهي حامل، فقالوا: من أنت؟

قال: أنا عبد الله بن خَبَّابٍ صاحب رسول الله ﷺ، وإنكم قد روعتموني.

فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك.

فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة القاعد فيها

خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» فاقتادوه بيده فبينما هو يسير معهم إذ لقي بعضهم خنزيرا لبعض أهل الذمة فضربه بعضهم فشق جلده.

فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟

فذهب إلى ذلك الذمي فاستحله وأرضاه وبينا هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه.

فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟

فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه، وجاؤوا إلى امرأته فقالت: إني امرأة حبلى، ألا تتقون الله؟

فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها.

فلما بلغ الناس هذا من صنيعهم خافوا إن هم ذهبوا إلى الشام واشتغلوا بقتال أهله أن يخلفهم هؤلاء في ذراريهم وديارهم بهذا الصنع، فخافوا غائلتهم، وأشاروا على علي بأن يبدأ بهؤلاء.

ثم إذا فرغ منهم ذهب إلى أهل الشام بعد ذلك والناس آمنون من شر هؤلاء فاجتمع الرأي على هذا وفيه خيرة عظيمة لهم ولأهل الشام أيضًا، فأرسل علي إلى الخوارج رسولا من جهته وهو الحارث بن مُرة العَبدي.

فقال: اخبر لي خبرهم، واعلم لي أمرهم، واكتب إليّ به على الجلية.

فلما قدم عليهم قتلوه ولم ينظروه.

فلما بلغ ذلك عليًّا عزم على الذهاب إليهم أولا قبل أهل الشام. (1)

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقتال الخوارج في النهروان سنة (39 هجرية)

نادَى منادِي أمير المؤمنين في الناس بالرحيل فعبر الجسر ثم سلك على دير عبدالرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم على شاطئ الفرات، فلقيه هنالك منجم فأشار عليه بوقت من النهار يسير فيه ولا يسير في غيره، فإنه يخشى عليه فخالفه علي فسار على خلاف ما قال فأظفره الله.

وقال علي: إنما أردت أن أبين للناس خطأه وخشيت أن يقول جاهل، إنما ظفر لكونه وافقه.

وسلك عليّ ناحية الأنبار وبعث بين يديه قيس بن سعد، وأمره أن يأتي المدائن وأن يتلقاه بنائبها سعد بن مسعود - وهو أخو عبد الله بن مسعود الثقفي - في جيش المدائن فاجتمع الناس هنالك على علي.

وبعث إلى الخوارج: أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى أقتلهم، ثم أنا تاركم وذاهب إلى العرب - يعني أهل الشام - ثم لعل الله أن يقبل بقلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه.

فبعثوا إلى عليٍّ يقولون: كلنا قتل إخوانكم ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم.

فتقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم فيما ارتكبوه من الأمر العظيم، والخطب الجسيم، فلم ينفع وكذلك أبو أيوب الأنصاري أنبهم ووبخهم فلم ينجع.

وتقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إليهم فوعظهم وخوفهم وحذرهم وأنذرهم وتوعدهم.

وقال: إنكم أنكرتم عليّ أمرا أنتم دعوتموني إليه فنهيتكم عنه فلم تقبلوا، وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه ولا ترتكبوا محارم الله، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمرا تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيما عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟

فلم يكن لهم جواب إلا أن تنادَوْا فيما بينهم أن لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيئوا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة.

وتقدموا فاصطفوا للقتال وتأهبوا للنزال فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصن الطائي السنبسي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي.

ووقفوا مقاتلين عليًّا وأصحابه.

وجعل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على ميمنته حجر بن عدي، وعلى الميسرة شبيث بن ربعي ومعقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة - وكانوا في سبعمائة - قيس ابن سعد بن عُبادة.

وأمر عليّ أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم طوائف كثيرون - وكانوا في أربعة آلاف - فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله بن وهب الراسبي.

فزحفوا إلى علي، فقدمّ علي بين يديه الخيل وقدم منهم الرماة وصف الرجاله وراء الخيالة.

وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم.

وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدّمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلهم الرماة بالنبل.

فرموا وجوههم، وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقتل أمراؤهم عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سخبرة السلمي، قبحهم الله.[1]

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

قال أبو أيوب: وطعنت رجلا من الخوارج بالرمح فأنفذته من ظهره وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار.

فقال: ستعلم أينا أولى بها صليا.

قالوا: ولم يقتل من أصحاب عليّ إلا سبعة نفر وجعل علي يمشي بين القتلى منهم ويقول: بؤسا لكم! لقد ضركم من غركم.

فقالوا: يا أمير المؤمنين ومن غرهم؟

قال: الشيطان وأنفس بالسوء أمارة، غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون.

ثم أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم، وقسم ما وجد من سلاح ومتاع لهم.

وقال الهيثم بن عدي في كتاب (الخوارج): وحدثنا محمد بن قيس الأسدي، ومنصور بن دينار، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سبرة: أن عليًّا لم يخمس ما أصاب من الخوارج يوم النهروان ولكن رده إلى أهله كله حتى كان آخر ذلك مرجل أتي به فرده.

وقال أبو مخنف: حدثني عبد الملك بن أبي حَرة: أن عليًّا خرج في طلب ذي الثدية ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو حرة والريان بن صبرة بن هوذة فوجده الرياني في حفرة على جانب النهر في أربعين أو خمسين قتيلا.

قال: فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة له حلمة عليها شعرات سود.

فإذا مدت امتدت حتى تحاذِي يده الأخرى، ثم تنزل فتعود إلى منكبه كثدي المرأة.

فلما رآه علي قال: أما والله ما كذبت لولا أن تتكلوا على العمل لأخبرتكم بما قضى الله في قتالهم عارفا للحق.

وقال الهيثم بن عدي في كتابه في (الخوارج): وحدثني محمد بن ربيعة الأخنسي؛

عن نافع بن مسلمة الأخنسي، قال: كان ذو الثدية رجلا من عرنة من بجيلة، وكان أسود شديد السواد، له ريح منتنة معروف في العسكر، وكان يرافقنا قبل ذلك وينازلنا وننازله.

قال ابن كثير: وحدثني أبو إسماعيل الحنفي عن الريان بن صيرة الحنفي. قال: شهدنا النهروان مع علي، فلما وجد المخدَّج سجد سجدة طويلة.

وحدثني سفيان الثوري، عن محمد بن قيس الهمداني، عن رجل من قومه يُكنى أبا موسى: أن عليًّا لما وجد المخدج سجد سجدة طويلة.

قال: لما أقبل أهل النهروان جعل الناس يقولون: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي قطع دابرهم.

فقال عليٌّ: وكلا والله إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، فإذا خرجوا من بين الشرايين فقل ما يلقون أحدا إلا ألبوا أن يظهروا عليه.

قال: وكان عبد الله بن وهب الراسبي قد قحلت مواضع السجود منه من شدة اجتهاده وكثرة السجود، وكان يقال له: ذو البينات.

وروى الهيثم عن بعض الخوارج أنه قال: ما كان عبد الله بن وهب من بغضه عليًّا يسميه إلا الجاحد.

وقال الهيثم بن عدي: ثنا إسماعيل، عن خالد، عن علقمة بن عامر، قال: سئل علي عن أهل النهروان أمشركون هم؟

فقال: من الشرك فروا.

قيل: أفمنافقون؟

قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا.

فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟

قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا.

فهذا ما أورده ابن جرير وغيره في هذا المقام. (1)

1- البداية والنهاية لابن كثير.

6 اغتيال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على أيدي الخوارج

- مؤامرة اغتيال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عام 40 هجرية.

- مبايعة أهل العراق الحسن بن علي رضي الله عنه بالخلافة بعد مقتل أبيه ثم تنازله عنها لمعاوية صلحًا في عام الجماعة عام 41 هجرية.

- الإمام علي رضي الله عنه ومدة خلافته ومكان دفنه، وعدد زوجاته وأبنائه.

مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في رمضان عام 40 هجرية

بعد واقعة صِفِّين وخروج بعض أنصار أمير المؤمنين عليه (الخوارج) كما ذكرنا، وقتالهم لهم ثم ما حدث في التحكيم، بل وبكل أهل العراق عن نصرته، والقتال معه، استقر علي رضي الله عنه بالكوفة عاصمة الخلافة حينها وزاد الطين بله أن أمر أهل الشام ومعاوية قد استفحل، وصالوا وجالوا يمينا وشمالا، زاعمين أن الإمرة لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين في خلعهما عليًّا وتولية عمرو بن العاص معاوية عند خلو الإمرة عن أحد، وقد كان أهل الشام بعد التحكيم يسمون معاوية الأمير.

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية:

وكلما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق، هذا وأميرهم علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان، أعبدهم وأزهدهم، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن، فكان يكثر أن يقول: ما يحبس أشقاها، أي ما ينتظر؟ ماله لا يقتل؟ ثم يقول: والله لتخضبن هذه ويشير إلى لحيته من هذه ويشير إلى هامته.

كما قال البيهقي: عن الحاكم، عن الأصم، عن محمد بن إسحاق الصنعاني، ثنا أبو الحراب الأحوص بن جواب، ثنا عمار بن زريق، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ثعلبة بن يزيد قال:

قال علي: والذي فلق الحَبة وبرأ النسمة لتخضبن هذه من هذه للحيته من رأسه فما يحبس أشقاها؟

فقال عبد الله بن سبع: والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلا فعل ذلك لأبدنا عترته.

فقال: أنشدكم بالله أن لا يُقتل بي غير قاتلي.

فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا تستخلف؟

فقال: لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ.

قالوا: فما تقول لربك إذا لقيته وقد تركتنا هملا؟.

أقول: اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم.

وروى أبو داود في سننه بسنده عن زيد بن وهب قال: جاءت الخوارج إلى علي فقالوا له: اتق الله فإنك ميت.

قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ولكن مقتول من ضربة على هذه تخضب هذه - وأشار بيده إلى لحيته - عهد معهود وقضاء مقضي، وقد خاب من افترى.

وكذلك روى الحافظ أبو يَعْلَى بسنده عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال:

قال علي: قال لي رسول الله ﷺ: «من أشقى الأولين؟».

قلت: عاقر الناقة.

قال: «صدقت فمن أشقى الآخرين؟».

قلت: لا علم لي يا رسول الله ﷺ.

قال: «الذي يضربك على هذه - وأشار بيده - على يافوخه فيخضب هذه من هذه» يعني لحيته من دم رأسه قال: فكان يقول: وددت أنه قد انبعث أشقاكم.

أيضًا روى الإمام أحمد في مسنده بسنده، عن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًّا يقول: لتخضبنَّ هذه من هذه فما ينتظر بي إلا شقي.

فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا نبد عترته.

قال: إذا تقتلون بي غير قاتلي.

وأما عن كيفية مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فتقول كتب السير والتاريخ إنه بعد معركة النهروان أواخر سنة 37هـ، أو أوائل سنة 38هـ، وهو الأصح رجع من بَقِيَ من الخوارج عن قتال جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذهبوا إلى راية الأمان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أو ذهبوا إلى البلاد القريبة، فلم يرجعوا عن اقتناع منهم بأنهم على الباطل، وإنما كان رجوعهم إما خوفًا، وإما تقيّة، وإما استعدادًا وترتيبًا لقتال آخر في وقت لاحق، وظلّوا طوال هذا العام يخرجون على عليّ رضي الله عنه واحدًا تلو الآخر، فبعد موقعة النهروان التي قتل فيها ستمائة وجرح أربعمائة خرج عليه رضي الله عنه رجل يسمّى الحارث بن راشد الناجي مع مجموعة من قومه وردد نفس المقولة: لا حكم إلا لله. وقاتلهم علي رضي الله عنه، وقتل منهم الكثير، كما خرج عليه أيضًا الأشهب بن بشر البجلي، وغيره كثير، وقاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه جميعًا، فكان أمر الخوارج هذا يقلّب الأمور على علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكوفة، ولم يكن جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه لينًا سهلًا في يده يسمع له ويطيع كما ينبغي، فكان دائم الانقلاب عليه، وكثير الاعتراض على كثير من الأمور التي يراها عليّ رضي الله عنه مع أنه خير أهل الأرض في ذلك الوقت.

كان الخوارج لا يبرحون، كل مدّة يخرجون عَلَى عَلِيٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقتل منهم الكثير، ثم يخرج عليه مرات ومرات، واستمرّت الأوضاع على هذا الاضطراب في العراق، بينما كانت الأوضاع هادئة في الشام، فقد كان أهلها يسمعون، ويطيعون لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.[1]

وكان آخر ما فعله الخوارج في هذا التوقيت أن اجتمع ثلاثة منهم؛ عبدالرحمن ابن ملجم الكندي، وكان في وجهه علامة السجود من كثرة العبادة، وكان معروفًا

1- البداية والنهاية - مصدر سابق.

بها، وآخر اسمه البَرك بن عبد الله التميمي، وآخر اسمه عمرو بن بكر التميمي، وتشاوروا فيما ينبغي أن يفعلوه، فهم غير راضين بأمر التحكيم، ويكفرون عليًّا، ومعاوية، وعمرو ابن العاص رضي الله عنهم جميعًا، ويكفرون كذلك كل من رضيَ بالتحكيم، وأخذوا يترحمون على إخوانهم الذين قتلوا في النهروان، وفي المعارك التي تلتها وقالوا: ماذا نفعل بالبقاء بعدهم، إنهم والله كانوا لا يخافون في الله لومة لائم.

ثم قالوا: فلو شرينا أنفسنا من هذه الدنيا، فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم، فأرحنا منهم البلاد، وأخذنا منهم ثأر إخواننا.

فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم أمر علي بن أبي طالب.

وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية.

وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا على ذلك، واتفقوا على ألا ينقض أحدٌ عهدَه، وأنهم سوف يذهبون لقتلهم، أو يموتون، وتواعدوا أن يقتلوهم في شهر رمضان، وكتموا الأمر عن الناس جميعًا إلا القليل، ومن هؤلاء القليل من تاب وحدّث بهذا الأمر.

ومما يُروى أن امرأة تسمّى قطام بنت الشجنة كانت فائقة الجمال، وقتل أبوها وأخوها في يوم النهروان، جاءت إلى عبدالرحمن بن ملجم، وهو يتحدث مع بعض الناس في أمر قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما رآها أراد أن يخطبها، فشرطت عليه أن يدفع ثلاثة آلاف درهم، وخادمًا، وجارية، وأن يقتل علي بن أبي طالب فقال: والله ما أتيت هذه البلدة -الكوفة- إلا لهذا الأمر.

فشجعته على هذا الأمر وتزوجها، فتجمّعت عليه النيّات.

وذهب عبدالرحمن بن ملجم لرجل آخر يسمّى شبيب بن نجدة الشجعي، وقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

فقال شبيب: وما ذاك؟

قال: قتل علي.

فقال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئًا إدًّا، كيف تقدر عليه؟

فهو يستنكر عليه أن يفكر في قتل علي رضي الله عنه؛ لأنه كان قويًّا شجاعًا يهابه الرجال، وله مواقف عظيمة في الحروب، وبطولات رائعة في القتال، ثم هو أمير المؤمنين.

فقال: أكمن له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة -الفجر- شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا، وأدركنا ثأرنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير.

فقال: ويحك، لو كان غير عليٍّ لكان أهون علي، قد عرفت سابقته في الإسلام، وقرابته من رسول الله ﷺ، فما أجدني أنشرح صدرًا لقتله.

فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان؟ نقتله بهم، وأخذ يحفزه، فوافقه على أن يساعده في هذا الأمر.

وتواعد عبدالرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر على يوم واحد يقتلون فيه الثلاثة عليًّا، ومعاوية، وعمرو بن العاص، ويخلّصون الأمة من أئمة الضلال في زعمهم.

فتواعدوا أن يقتلوا الثلاثة يوم السابع عشر من شهر رمضان، فتوجه البرك إلى دمشق حيث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وتوجه عمرو بن بكر إلى الفسطاط بمصر حيث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان عبدالرحمن بن ملجم بالكوفة حيث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

انتظر عبدالرحمن بن ملجم في فجر هذا اليوم حتى خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه من بيته لصلاة الفجر، وأخذ يمرّ على الناس يوقظهم للصلاة، وكان لا يصطحب معه حراسًا، حتى اقترب من المسجد فضربه شبيب بن نجدة ضربة

وقع منها على الأرض، لكنه لم يمت منها، فأمسك به ابن ملجم، وضربه بالسيف المسموم على رأسه، فسالت الدماء على لحيته، كما وصف الرسول ﷺ مشهد قتله قبل ذلك.

ولما فعل ذلك عبدالرحمن بن ملجم قال: يا علي الحكم ليس لك ولا حكم إلا لله.

وأخذ يتلو قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: 207].

ونادى علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عليكم به، فأمسكوا بعبدالرحمن بن ملجم، وفر شبيب في البلاد.

وقدم علي رضي الله عنه جعدة بن هبيرة رضي الله عنه ليصلّى بالناس صلاة الفجر، وحمله الناس إلى بيته، وعلم رضي الله عنه أن هذا السيف مسموم، وأنه ميّت لا محالة، وخاصّة أن هذه الضرية وقعت كما وصفها الرسول ﷺ، فاستدعى عبدالرحمن بن ملجم، وكان مكتوف الأيدي، فقال له علي رضي الله عنه: أي عدو الله ألم أحسن إليك؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا؟

قال: شحذته -أي السيف- أربعين صباحًا، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه.

فقال له علي: والله ما أراك إلا مقتولًا، وقد استجاب الله لك.

ثم قال علي رضي الله عنه: إن مت فاقتلوه، وإن عشت فأنا أعلم ماذا أفعل به.

فقال جندب بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، إن متّ نبايع الحسن؟

فقال رضي الله عنه: لا آمركم ولا أنهاكم.

وصية علي بن أبي طالب:

ولما احتضر رضي الله عنه جعل يكثر من قول لا إله إلا الله حتى تكون آخر كلامه، ثم أوصى الحسن والحسين بوصيته وكتباها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162 - 163]، أوصيك يا حسن وجميع ولدي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إنّ صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصّلاة والصّيام».

انظروا إلى ذوي أرحامكم، فصلوا؛ ليهون الله عليكم الحساب، الله الله في الأيتام، فلا تعفو أفواههم ولا يضيعن بحضرتكم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، والله الله في القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا، والله الله في شهر رمضان فإن صيامه جُنة من النار، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، والله الله في الزكاة، فإنها تطفئ غضب الرب، والله الله في ذمة نبيكم لا تظلمن بين ظهرانيكم، والله الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم، والله الله فيما ملكت أيمانكم فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «أوصيكم بالضّعيفين نسائكم وما ملكت أيمانكم».

الصلاةَ الصلاةَ، لا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيولي الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواصل والتباذل،

وإياكم والتدابر، والتقاطع، والتفرق، وتعاونوا على البر، والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ عليكم نبيكم، أستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام، ورحمة الله.

ثم لم ينطق رضي الله عنه بعد ذلك إلا بلا إله إلا الله حتى كانت آخر لحظة في حياته رضي الله عنه وأرضاه قرأ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

ولقي ربه شهيدًا رضي الله عنه وأرضاه أحد العشرة المبشرين بالجنة، وزوج ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمه، وغسّله ابناه الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وصلّى عليه ابنه الحسن رضي الله عنه، ثم جاءوا بعبدالرحمن بن ملجم وأقاموا عليه الحدّ فقتلوه بسيفه.

أما معاوية رضي الله عنه، فقد انتظره البرك بن عبد الله الذي تعهد بقتله في نفس التوقيت، وضربه بالسيف المسموم فتجنّبه معاوية رضي الله عنه فأصاب فخذه، فحمله الناس إلى بيته، وقبضوا على البرك بن عبد الله، وداوى الناس معاوية رضي الله عنه فشفاه الله، ولم يمت من هذه الضربة.

أما عمرو بن العاص، فذهب إليه عمرو بن بكر المتعهد بقتله، وانتظر خروجه لصلاة الصبح، ولكنه -سبحان الله- كان مريضًا في هذا اليوم، فعهد بالصلاة إلى نائبه خارجة، فما خرج إلى الصلاة ظنّه الرجل عمرو بن العاص، فذهب إليه وقتله، فأمسكوا به وقتلوه به، ونجّى الله عمرو بن العاص منه.

وقال الناس: أراد عمرًا وأراد الله خارجة.

بعد مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أصبح المسلمون بلا خليفة، وبدأ المسلمون يفكرون في اختيار خليفة لهم، فوقع اختيارهم على ابنه الحسن رضي الله عنه.. فكان مقتله رضي الله عنه في 21 رمضان عام 40 هجرية وقد بويع بالخلافة عام 35 هجرية.[1]

1- المصدر السابق.

الحسن بن علي رضي اللّه عنهما وعام الجماعة سنة 41 هجرية

بعد أن استشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه اجتمع أهل العراق، وبايعوا الحسن بن علي رضي الله عنه وأرضاه؛ ليكون خليفةً للمسلمين، وهو اختيار موفّق فالحسن رضي الله عنه كان ورعًا تقيًّا عالمًا مجاهدًا، وهو ريحانة رسول الله ﷺ، وقال عنه الرسول ﷺ أنه بسيّد وكان يلقّب بسيّد المسلمين، والأحاديث التي تدل على مكانة الحسن والحسين عند رسول الله ﷺ وحبه لهما كثيرة.

فاجتمع أهل العراق على مبايعته، وجاء قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه وكان تحت إمرته على أذربيجان أربعون ألف مقاتل كلهم قد بايع عليًّا رضي الله عنه على الموت قبل استشهاده، فجاء رضي الله عنه، يقول للحسن رضي الله عنه: امدد يدك نبايعك.

فلم يردّ عليه الحسن، ولم يرض بهذا الأمر، ولم يكن يريده؛ لأنه يعلم أن وراءه الدماء الكثيرة، ولكن مع إصرار قيس بن سعد بن عبادة قبل رضي الله عنه البيعة، وكان هذا يوم 17 رمضان سنة 40 هـ، وهو يوم وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بُويع الحسن رضي الله عنه في العراق، وكانت العراق تدير مساحة شاسعة من الدولة الإسلامية وبلاد فارس التي فتحت.

أما أهل الشام فبعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أعلنوا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خليفة للمسلمين بعد واقعة التحكيم وليس قبلها.

فبويع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بالخلافة من قبل أهل الشام، وأصبح للمسلمين، ولأول مرة خليفتان، أحدهما في الشام، والآخر في العراق، وهذا

لا يستقيم شرعًا، ولا يصح في الإسلام، بل ينبغي أن يكون للمسلمين خليفة واحد يسمع له الجميع ويطيع.

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه لا يحب القتال، وهو ممن حاول أن يمنع أباه عليًّا رضي الله عنه من الذهاب إلى صفين، لولا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أقنعه بأنه إنما يقيم شرع الله بمقاتلة من خرج على بيعة الإمام، فلما تولّى الحسن رضي الله عنه الخلافة رغب في الكفّ عن القتال، وحفظ الدماء، وعدم الدخول في مشاحنات، أو معارك بين المسلمين، لكن أهل العراق أصرّوا على قتال أهل الشام وعلى ردّ الإمرة إلى العراق، وثاروا كعادتهم عليه رضي الله عنه، واجتمعت الألوف المؤلّفة على أمر قتال أهل الشام، والقتال وإن كان له تأويل شرعي، إلا أن فيه مخالفة للإمام، وقد خشي الحسن رضي الله عنه من فتنة مخالفة كل هذه الجموع، فخرج رضي الله عنه على رأس جيش لقتال أهل الشام وهو كاره لهذا الأمر، وعلم معاوية رضي الله عنه بخروجه فخرج له بجيشه.

وعند اقتراب الجيشين كان الصراع شديدًا في داخل نفس الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو غير راغب في القتال، ويريد أن يحقن دماء المسلمين، فأرسل رسائل إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يطلب منه أن يرجع عن رأيه، ويدخل في جماعة المسلمين ويبايعه على الخلافة، لكن معاوية رضي الله عنه كان يرى أن تلك هي فرصته التي ربما لا تتكرر لأخذ الثأر من قتلة عثمان رضي الله عنه بعد أن يكون أميرًا على جميع المسلمين، وكان جيش العراق القادم مع الحسن بن علي رضي الله عنه جيشًا ضخمًا كبيرًا، وخاصة بعد أن قتل النصف من جيش معاوية رضي الله عنه في موقعة صفين، وكانوا راغبين في القتال، وقد بايعوا الحسن رضي الله عنه على الموت.

يقول الحسن البِصري: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال.

ولما رآهم عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: إني لأرى كتائب لا تولّى حتى تقتل أقرانها.

فقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: إن قتل هؤلاء وهؤلاء من لي بأمور الناس، من لي بضعفتهم، من لي بنسائهم، من لي بصبيانهم؟

وكان رضي الله عنه يكره القتال، وكان كما يقول الإمام ابن تيمية أشد الناس بعدًا عن القتال.

فقرر رضي الله عنه أن يرسل رسولين إلى الحسن بن علي رضي الله عنه للمحاورة والمشاورة، فأرسل إليه عبدالرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر فذهبا إليه وجلسا معه.

فقال الحسن رضي الله عنه: إن هذه الأمة قد عاثت في دمائها.

فقال له الرسولان: إنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسالمك.

فقال الحسن رضي الله عنه: فمن لي بهذا؟

فقالا له: نحن لك بهذا، فسرّ بذلك الحسن وكان يرغب في هذا الأمر.

فقرر الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يقوم بخطوة من أخطر الخطوات في تاريخ الأمة الإسلامية، وهي خطوة جريئة لا يقدم عليها إلا رجل ذو نفس طاهرة طيبة كالحسن رضي الله عنه وأرضاه ابن بنت رسول الله ﷺ، قرر رضي الله عنه أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وهو راض تمامًا، وهو في غاية القوة، فقد كان يفوق جيش الشام كثيرًا جدًّا، وكان باستطاعته أن يبيد جيش الشام عن آخره ويبقى جيشه كبيرًا، ولكنه أراد أن يحقن الدماء بتنازله رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه.

وأرسل الحسن رضي الله عنه رسالة إلى معاوية رضي الله عنه بتنازله عن الخلافة على أن تحقن دماء المسلمين، وعلى أن ترجع الجيوش دون قتال ودون حرب.

وبهذا أصبح معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أمير المؤمنين الشرعي بعد الحسن بن علي رضي الله عنه الذي ظل أميرًا شرعيًّا للمسلمين لمدة ستة أشهر.

وتنازل الحسن رضي الله عنه وإصلاحه بين المسلمين بتنازله هذا من دلائل نبوة الرسول ﷺ ففي البخاري أن أبا بكرة كان يقول: رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على المنبر والحسن بن عليّ إلى جنبه وهو يقبل على النّاس مرّةً وعليه أخرى ويقول: «إنّ ابني هذا سيّد، ولعلّ اللّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وكان الحسن رضي الله عنه هو سبب الإصلاح بين فريقي العراق والشام، وسمّي هذا العام (41 هـ) بعام الجماعة، وكان عامًا سعيدًا على المسلمين، لاجتماع الكلمة ووحدة الصف.

روى عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم مُلْك بعد ذلك»،[1] فكان آخر الثلاثين يوم انحرف الناس عن الحسن وبُويع معاوية.

ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، أن الحسن سلم الأمر إلى معاوية، لأنه لما راسله معاوية في تسليم الخلافة إليه خطب في الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحسن بن علي بن أبي طالب «إنّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل، بظبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا».

فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية!، وأمضى الصلح.

1- رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

وقال البخاري في كتاب الصلح: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن أبي موسى قال: سمعت الحسن يقول: «استقبل والله الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال»، فقال عمرو بن العاص: «إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها»، فقال معاوية: «إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور الناس؟ من لي بضعفتهم؟ من لي بنسائهم»، فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس هما عبدالرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر، قال: «اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه»، فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا إليه.

ما يذكره المؤرخون في هذا الشأن هو صحيفة كتب عليها الحسن شروطه مقابل الصلح، ولم يذكر أي من المؤرخين كل ما كتبه عليها، إنما تعرضوا لبعض ما فيها، إلا أنه يمكن أن نصل إلى بعض هذه الشروط بتتبع المصادر والتوفيق فيما بينها، ويمكن تقسيم هذه الشروط إلى ثلاثة أقسام:

الشروط المتعلقة بالحكم مثل: العمل بكتاب الله وسنة نبيه. أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن ثم الحسين. أن لا يقضي بشيء دون مشورته.

والشروط الأمنية والاجتماعية والدينية: وأن لا يشتم علي وهو يسمع، أو أن لا يذكره إلا بخير. وأن لا يلاحق أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعراق مما كان في أيام أبيه.[1]

1- المصدر السابق.

مدة خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وموضع قبره

كانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام، ويقال ثلاثة أيام، ويقال أربعة عشر يوما،[1] والذي يظهر أنها أربع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، وذلك لأنه بويع بالخلافة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عام خمس وثلاثين، وكانت وفاته شهيدا في اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان عام أربعين للهجرة.[2]

وقد تولى غسل أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر، رضوان الله عليهم، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص،[3] وصلى عليه الحسن بن علي، -رضي الله عنهما-، فكبر عليه أربع تكبيرات.[4]

وأما موضع قبره فقد اختلف فيه وذكر ابن الجوزي عددا من الروايات في ذلك ثم قال: والله أعلم أي الأقوال أصح،[5] ومن الروايات التي جاءت في هذا:

- أن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- دفنه عند مسجد الجماعة في الرحبة مما يلي أبواب كندة قبل أن ينصرف الناس من صلاة الفجر.[6]

- رواية مثلها أنه دُفن بالكوفة عند قصر الإمارة عند المسجد الجامع ليلا وعُمِّيَ موضع قبره.[7]

1- التاريخ، خليفة بن خياط.
2- انظر التاريخ الكبير، للبخاري (99/ 1) بسند صحيح.
3- الطبقات، لابن سعد.
4- الطبقات، مصدر سابق.
5- المنتظم في تاريخ الملوك، لابن الجوزي.
6- الطبقات (38/ 3)، مصدر سابق.
7- المنتظم، لابن الجوزي.

وهناك رواية تذكر أن ابنه الحسن -رضي الله عنه- نقله إلى المدينة.[1]

ورواية تذكر أن القبر الذي بظاهر الكوفة المشهد الذي بالنجف هو قبر علي -رضي الله عنه-، وأنكر بعض أهل العلم مثل شريك بن عبد الله النخعي قاضي الكوفة (ت 178 هـ) ومحمد بن سليمان الحضرمي (ت297 هـ)،[2] وفي الحقيقة فإن ابتداع ما يسمى مشهد علي -رضي الله عنه- بالنجف كان أيام بني بويه في عهد الدولة العباسية وكانوا من الشيعة الروافض، وقد صنع الشيعة ذلك على عاداتهم في القرن الرابع، وأهل المعرفة متفقون على أنه ليس بقبر علي -رضي الله عنه- بل قيل، هو قبر المغيرة بن شعبة، قال ابن تيمية: وأما المشهد الذي بالنجف، فأهل المعرفة متفقون على أنه ليس بقبر علي، بل قيل: إنه قبر المغيرة بن شعبة، ولم يكن أحد يذكر أن هذا قبر عليّ ولا يقصده أحد أكثر من ثلاثمائة سنة، مع كثرة المسلمين من أهل البيت والشيعة وغيرهم وحكمهم بالكوفة، إنما اتخذ ذلك مشهدًا في ملك بني بويه - الأعاجم- بعد موت علي بأكثر من ثلاثمائة سنة،[3] وقال: وأما مشهد علي فعامة العلماء على أنه ليس قبره، بل قد قيل: إنه قبر المغيرة بن شعبة، وذلك أنه إنما أظهر بعد نحو ثلاثمائة سنة من موت علي في إمارة بني بويه.[4]

واختلف في سنه يوم قتل، فقال بعضهم: قتل وهو ابن تسع وخمسين سنة، وقيل وهو ابن خمس وستين سنة، وقيل وهو ابن ثلاث وستين سنة، وذلك أصح ما قيل فيه.[5] رضي الله عنه وأرضاه.[6]

1- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.
2- خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد ص (441).
3- الفتاوَى الكبرى، لابن تيمية.
4- الفتاوَى، المصدر السابق.
5- تاريخ الطبري.
6- يعتقد بعض من المسلمين في أفغانستان أن جسد الإمام علي رضي الله عنه مدفون في المسجد الأزرق في مدينة مزار شريف الأفغانية، مستندين إلى روايات أن أبا مسلم الخراساني قام بنقل الجثمان إلى تل حمران بقرية بلخ شمال أفغانستان حتى جاء السلطان حسين بيقرة فبنى المرقد الحالي في ذلك المكان عام 1480م (جريدة 14 أكتوبر اليمنية 19 يناير 2008).

ومما قاله الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد مقتل أبيه:

«لقد فارقكم رجل أمس ما سبقه الأولون بعلم ولا أدركه الآخرون، إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه ويعطيه الراية فلا ينصرف[1] حتى يفتح له، ما ترك من صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه كان يرصدها لخادم أهله».[2]

عن ربيعة الجرشي: أنه ذكر علي عند رجل وعنده سعد بن أبي وقاص فقال له سعد: أتذكر عليا، إن له مناقب أربعًا لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلى من كذا وكذا، وذكر حمر النعم قوله: لأعطين الراية، وقوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وقوله: من كنت مولاه فعلي مولاه،[3] ونسى سفيان واحدة.

عن سعد بن عبادة قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان فذكر من محاسن عمله، قال: لعل ذلك يسوؤك قال: نعم قال: فأرغم الله بأنفك، ثم سأله عن علي فذكر من محاسن عمله قال: هو ذاك، بيته أوسط بيوت النبي ﷺ، ثم قال: لعل ذاك يسوؤك؟ قال: أجل، قال فأرغم الله بأنفك، انطلق، فأجهد على جهدك.[4]

ولما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم،[5] وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل له علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعني عنك،[6] وقد طلب معاوية، -رضي الله عنه- في خلافته من ضرار الصدائي أن يصف له عليا، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين قال: لتصفنه، قال: أما إذ لابد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القوى،

1- فلا يرجع.
2- فضائل الصحابة، لاحمد بن حنبل.
3- فضائل الصحابة، إسناده حسن.
4- الصحيح المسند من فضائل الصحابة، للعدوي.
5- البداية والنهاية، مصدر سابق.
6- الاستيعاب، مصدر سابق.

يقول فصلا،[1] ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله – مع تقريبه إيانا وقربه منا- لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوى في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد أني قد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله،[2] وغارت نجومه، قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم (من لدغتة حية)، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غري غيري، أإليَّ تعرضت أم إليَّ تشوفت! هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟

قال: حزن من ذبح ولدها وهو في حجرها.[3]، وعن عمر بن عبد العزيز قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبوبكر وعمر جالسان عنده، فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف[4] الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول قضى لي ورب الكعبة، فما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول غفر لي ورب الكعبة.[5]

وروى ابن عساكر عن أبي زُرْعَة الرازي أنه قال له رجل: إني أبغض معاوية فقال له: ولم؟ قال: لأنه قاتل عليا، فقال له أبو زرعة: ويحك إن رب معاوية رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فإيش دخولك أنت بينهما؟ -رضي الله عنهما-.[6]

1- قولًا قاطعًا.

2- سدوله: سدلته ظلمته.

3- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مصدر سابق.

4- أجيف الباب: رُدَّ وأغلق.

5- البداية والنهاية، مصدر سابق.

6- البداية والنهاية مصدر سابق.

زوجاته رضي الله عنه

فاطمة: سيدة نساء العالمين فاطمة رضي الله عنها بنت محمد خاتم الرسل ﷺ.

ولدت له الحسن وحسينا ويُقال: ومُحسنًا، ويُقال: ومات وهو صغير.

وولدت له من البنات: زينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى، وهي التي تزوجها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

ولم يتزوج علي رضي الله عنه على فاطمة رضي الله عنها حتى ماتت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر.

ومن زوجاته:

أم البنين بنت حرام: وولدت له العباس، وجعفرا، وعبد الله، وعثمان. وقد قُتل هؤلاء مع أخيهم الحسين بكربلاء ولا عقب لهم سوى العباس.

ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك من بني تميم، فولدت له عبيد الله، وأبا بكر، قال هشام بن الكلبي: وقد قتلا بكربلاء أيضًا.

أسماء بنت عميس الخثعمية، فولدت له يحيى ومحمدًا الأصغر قاله الكلبي. وقال الواقدي: ولدت له يحيى وعونًا.

قال الواقدي: فأما محمد الأصغر فمن أم ولد.

أم حبيبة بنت زمعة بن بحر بن العبد بن علقمة، وهي أم ولد، من السبي الذين سباهم خالد من بني تغلب حين أغار على عين التمر، فولدت له عمر - وقد عُمِرَ خمسًا وثمانين سنة - ورقية.

أم سعيد بنت عروة بن مسعود بن معتب بن مالك الثقفي، فولدت له أم الحسن، ورملة الكبرى.

ابنة امرئ القيس بن عدي بن أوس الكلبية، فولدت له جارية، فكانت تخرج مع علي إلى المسجد وهي صغيرة، فيُقال لها: من أخوالك؟ فتقول: وه وه تعني: بني كلب.

أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي التي كان رسول الله ﷺ، يحملها وهو في الصلاة إذا قام حملها وإذا سجد وضعها، فولدت له محمدا الأوسط.

خولة بنت جعفر بن قيس: من بني حنيفة، سباها خالد أيام الصديق أيام الردة من بني حنيفة، فصارت لعلي بن أبي طالب فولدت له محمد الأكبر (ابن الحنفية)، ومن الشيعة من يدّعي فيه الأمامة والعصمة، وقد كان من سادات المسلمين ولكن ليس بمعصوم، ولا أبوه معصوم، بل ولا من هو أفضل من أبيه من الخلفاء الراشدين قبله ليسوا بواجبي العصمة كما هو مقرر في موضعه والله أعلم. [1]

وقال ابن كثير:

وقد كان لعلي أولاد كثيرون آخرون من أمهات أولاد شتى فإنه مات عن أربع نسوة وتسع عشرة سُرِّية رضي الله عنه، فمن أولاده رضي الله عنهم مما لا يعرف أسماء أمهاتهم: أم هانئ، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الكبرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم جعفر، وأم سلمة، وجمانة. ا.هـ.

1- ابن كثير في البداية والنهاية.



7 أهل السنة هم أنصار وشيعة الإمام علي رضي اللّه عنه

أهل السنة هم أنصار وشيعة الإمام علي رضي الله عنه

من خلال استعراضنا لسيرة أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه نجد أن أهل السنة والجماعة هم أنصار وشيعة الإمام علي رضي الله عنه، فلا يوجد في عهده مصطلح الشيعة أو السنة بل كانوا حزبًا واحدًا وفي هذا يقول الدكتور علي الوردي في هذا الخصوص: «قد يستغرب القارئ إذا علم بأن كلتا الطائفتين كانتا في أول الأمر من حزب واحد، وإن الذين فرقوا بينهما هم السلاطين ووعاظ السلاطين. ففي عهد الدولة الأموية كان الشيعة وأهل السنة يؤلفون حزب الثورة. إذ كان الشيعة يثورون على الدولة بسيوفهم، بينما كان أهل السنة يثورون عليهم بأحاديثهم النبوية - هؤلاء كانوا ينهون عن المنكر بألسنتهم، وأولئك ينهون عنه بأيديهم».

ومصطلح «أهل السنة والجماعة» لم يظهر في التاريخ إلا في عهد الخليفة العباسي المتوكل. وكانوا قبل ذلك يدعون بـ «أهل الحديث». و«الحديث» و«السنة» لفظتان مترادفتان في بعض الوجوه. ومن يدرس سيرة أهل الحديث أثناء الحكم الأموي يجدهم كانوا على عداء مع الأمويين، ما عدا فترة خلافة عمر بن عبد العزيز الذي كان عادلًا وراشديًّا، ولذلك سُمي بالخليفة الراشدي الخامس.

ولو درسنا سيرة الأئمة الكبار لأهل السنة والجماعة، كأبي حنيفة، والشافعي، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، الذين عاشوا في أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي لوجدناهم يؤيدون عليًّا رغم الظروف المثبِّطة التي كانت تحيط بهم. فأبو حنيفة النعمان الذي يلقّب بـ «الإمام الأعظم» كان يرى فضل علي وأسبقيته. يقول الزمخشري: «وكان أبو حنيفة يفتي سرًّا بوجوب نصرة زيد بن علي، وحمل الأموال إليه، والخروج معه على الأمير المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة». [1]

1- انظر: الزمخشري، تفسيره الكشاف، ج1.

وقد ساند الإمام أبو حنيفة زيد بن علي زين العابدين، على الخليفة الأموي هشام ابن عبدالملك وقال عنه (ضاهى خروجه خروج رسول الله يوم بدر).

ولما ثار محمد بن عبد الله الحسني في المدينة، ضد المنصور العباسي الهاشمي بايعه أبو حنيفة. وظل على تلك البيعة بعد مقتله إذ كان يعتقد بموالاة أهل البيت. [1]

وكتب أبو حنيفة إلى إبراهيم، أخي محمد، يشير إليه بقصد الكوفة سرًّا ويعلمه بأن في الكوفة من الشيعة من يستطيع دعمه. كما ونعرف من التاريخ أن الإمام الأعظم أباحنيفة (رحمه الله) قد درس الفقه فترة على الإمام جعفر الصادق في الكوفة، وكان من أقرب الناس إلى الإمام موسى الكاظم، فكلاهما عانى السجن والاضطهاد معًا وبواسطة الحاكم نفسه ومن أجل القضية ذاتها. ولو أدرك الشيعة حقيقة الأمر لعرفوا أن أبا حنيفة هو أحد أئمتهم كما هو أحد أئمة أهل السنة، لأنه وجد قبل انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة، وكان من أنصار أهل البيت. رحم الله الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان.

والإمام الشافعي (رحمه الله) وهو من هو دينًا وعلمًا وتقوى الذي لم يَقِلَّ عن أبي حنيفة حبًّا لآل بيت النبي، وهو الذي اتهم بأنه رافضي لتمسكه بسنة نبيه وآل بيته الذين يصلى عليهم في كل صلاة وقد قال في ذلك شعرًا:

قالوا ترفضت قلت كلا ... ما الرفض ديني ولا اعتقادي

لكن توليت غير شك ... خير إمام وخير هادي

إن كان حب الولي رفضًا ... فإنني أرفضُ العباد

وقال في مكان آخر:

تزلزلت الدنيا لآل محمد ... وكادت لهم صمم الجبال تذوب

1- الشهرستاني في كتابه الملل والأهواء والنِّحَل ج1.

أما مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي إمام المدينة المعروف والذي يقال فيه (لا يُقضى ومالك في المدينة)، فكان أيضًا من تلاميذ الإمام جعفر الصادق، وقد ساعد محمدًا الحسني في ثورته على المنصور إذ أفتى بصحة بيعته فعاقبه المنصور على ذلك ضربًا بالسياط. ولم يكن ذلك تشيعًا بل تفضيلًا لآل البيت على غيرهم.

وإذا أتينا إلى الإمام السني الرابع، أحمد بن حنبل، إمام أهل السنة والجماعة التقي النقي الصابر المحتسب رحمه الله، فهو الآخر لا يقل عن أسلافه في تفضيل علي والإشادة بعلمه. وهو القائل: «ما جاء لأحد من الصحابة من الفضائل ما جاء لعلي».

وبعد القضاء على الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، شعر العلويون بخيبة أمل لأن أولاد عمهم العباس قد قضوا على الدولة الأموية. لذلك بدأ الصراع من جديد بين أولاد العمومة، وهكذا وجد محبو آل البيت أنفسهم دائمًا في المعارضة. ولما كانت السلطة تفسد الحاكم، ومهما كان ناقمًا على الظلم عندما كان في المعارضة، إلا إن نزعة الظلم متأصلة في الإنسان، فلابد وأن يكون هناك أناس ناقمون، وآخرون منتفعون من هذا الحاكم أو ذاك، وعليه فقد حذا خلفاء بني العباس حذو الأمويين في إبعاد أولاد علي ومن ناصرهم. ولاقوا من الظلم من العباسيين أكثر مما لاقوه من الأمويين وهذا صراع على السلطة بين بني هاشم علويين وعباسيين.

وقد فطن الإمام علي رضي الله عنه لحدوث الفتنة عقب مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة ورفض مبايعة أبي سفيان له (أي لعلي) كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه، يقول الطبري: «لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان (إلى علي بن أبي طالب)، وهو يقول: والله إني لأرى عجاجةً لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف، فيم أبوبكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان علي والعباس؟ وقال: أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك، فزجره علي، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرًّا، لا حاجة لنا في نصيحتك».

بقي الإمام علي وفيًّا للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. ولقد وقف عليٌّ بباب أبي بكر ساعة وفاته ونعاه قائلا: «يرحمك الله يا أبا بكر، لقد كنت والله أول القوم إسلاما صدقت رسول الله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا».

فأولى الناس بالإمام علي رضي الله عنه هم أهل السنة والجماعة الذين يحبون آل البيت النبوي ويحبون الصحابة رضوان الله عليهم.

ولحب أهل السنة والجماعة للنبي ﷺ كرمت ذريته، ولشرفه شرف آل بيته، وكانت مودتهم ومحبتهم جزءًا من شريعة المسلمين، رعوها على مر الزمان كما رعوا باقي الشريعة. وأقاموها كما أقاموا بقية أحكام الدين، فهم وصية نبينا رسول الله ﷺ هم وصيته وهم بقيته، إذ يقول: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» (رواه مسلم).

وآل بيته ﷺ هم أزواجه وذريته وقرابته الذين حرمت عليهم الصدقة هم أشراف الناس، وقد قال النبي ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» (رواه البخاري).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني» وفي رواية في الصحيحين أيضًا: «فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»، وروى البخاري -رحمه الله- أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «أنت مني وأنا منك»، كما قال النبي ﷺ عن الحسن بن علي رضي الله عنه: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال للحسن رضي الله عنه: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبُّه» (متفق عليه).

وقد قال الله عزّ وجل في كتابه الكريم وقرآنه العظيم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] ومعلوم أن هذه الآية

نزلت في أزواج النبي ﷺ لأن ما قبلها وما بعدها كله خطاب لهن رضي الله عنهن، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لأصحابه: قولوا: «اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

هذه بعض فضائل آل بيت النبوة كما حفظتها كتب السنة والتزمها المسلمون منذ صدر الإسلام الأول وأنزلوهم منازلهم اللائقة من غير إفراط ولا تفريط. ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن أبا بكر رضي الله عنه قال: ارقبوا محمدًا في أهل بيته».

وفي الصحيحين (البخاري ومسلم) أيضًا: «أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي».

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شهد بالرضا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والسبق والفضل ولما وضع الديوان بدأ بأهل بيت النبي ﷺ وكان يقول للعباس رضي الله عنه: «والله لإسلامك أحب إلي من إسلام الخطاب لحب النبي ﷺ لإسلامك»، كما استسقى بالعباس، وأكرم عبد الله بن عباس وأدخله مع الأشياخ...

وقد روى إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في فضائل آل البيت وحفظ للأمة أحاديث كثيرة في ذلك، منها ما رواه عن عبد المطلب بن ربيعة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لعمه العباس: «والله لا يدخل قلب مسلم إيمان حتى يحبّكم لله ولقرابتي».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ

ويتولونهم ويحفظون وصية رسول الله ﷺ فيهم حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي». رواه مسلم.

وقال الطحاوي حنفي المذهب رحمه الله في كتابه العقيدة الطحاوية: «ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق».

وعقيدة أهل السنة والجماعة وسط بين الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء في جميع مسائل الاعتقاد، ومن ذلك عقيدتهم في آل بيت الرسول ﷺ، فإنهم يتولون كل مسلم ومسلمة من آل البيت، فيحبون الجميع، ويثنون عليهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعسف، ويعرفون الفضل لمن جمع الله له بين شرف الإيمان وشرف النسب، فمن كان من أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم يحبونه لإيمانه وتقواه، ولصحبته إياه، ولقرابته منه ﷺ.

ومن لم يكن منهم صحابيًا، فإنهم يحبونه لإيمانه وتقواه، ولقربه من رسول الله ﷺ، ويرون أن شرف النسب تابع لشرف الإيمان، ومن جمع الله له بينهما فقد جمع له بين الحسنيين، ومن لم يوفق للإيمان، فإن شرف النسب لا يفيده شيئًا، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، وقال ﷺ في آخر حديث طويل رواه مسلم في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». كما ورد في القرآن الكريم في كفر عمه أبي لهب بن عبدالمطلب بن هاشم.

وقد قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في شرح هذا الحديث في كتابه (جامع العلوم والحكم): (معناه أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: 132]، فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه، فيبلغه تلك الدرجات؛ فإن الله رتب

الجزاء على الأعمال لا على الأنساب، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: 101]، وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال، كما قال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران: 133 - 134]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١) ﴾ [المؤمنون: 57 - 61].

ثم ذكر نصوصًا في الحث على الأعمال الصالحة، وأن ولاية الرسول ﷺ إنما تنال بالتقوى والعمل الصالح، ثم ختمها بحديث عمرو بن العاص رضي الله عنه في (صحيح البخاري) و(صحيح مسلم)، فقال: (ويشهد لهذا كله ما في (الصحيحين) عن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين»، يشير إلى أن ولايته لا تنال بالنسب وإن قرب، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعملًا فهو أعظم ولايةً له، سواء كان له منه نسب قريب أو لم يكن، وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

روى ابن سعد في (الطبقات) عن عمر بن الخطاب أنه قال للعباس رضي الله عنهما:

«والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب»!!.

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر عن الشعبي قال: (صلى زيد بن ثابت رضي الله عنه على جنازة، ثم قربت له بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابه.

فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: هكذا نفعل بالعلماء، فقبل زيد يد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا).

أورد الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية): أن الحسن بن علي دخل على معاوية في مجلسه، فقال له معاوية: (مرحبا وأهلًا بابن رسول الله ﷺ)؛ وأمر له بثلاثمائة ألف.

وأورد -أيضًا- أن الحسن والحسين رضي الله عنهما وفدا على معاوية رضي الله عنه فأجازهما بمائتي ألف، وقال لهما: (ما أجاز بهما أحد قبلي. فقال الحسين: ولم تعط أحدًا أفضل منا).

وكذلك أورد عن رزين بن عبيد: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فأتى زين العابدين علي بن الحسين، فقال له ابن عباس: (مرحبًا بالحبيب ابن الحبيب).

وقال أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي رحمه الله في (العقيدة الطحاوية): (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير).

وقال أيضًا: (ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس؛ فقد برئ من النفاق).

وقال الإمام الحسن بن علي البربهاري في (شرح السنة): (واعرف لبني هاشم فضلهم، لقرابتهم من رسول الله ﷺ، وتعرف فضل قريش والعرب، وجميع الأفخاذ، فاعرف قدرهم وحقوقهم في الإسلام، ومولى القوم منهم، وتعرف لسائر الناس حقهم في الإسلام، واعرف فضل الأنصار ووصية رسول الله ﷺ فيهم، وآل الرسول فلا تنساهم، واعرف فضلهم وكراماتهم).

وقال أبو بكر محمد بن الحسين الآجري في (كتاب الشريعة): (واجب على كل مؤمن ومؤمنة محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، بني هاشم: علي بن أبي طالب وولده وذريته، وفاطمة وولدها وذريتها، والحسن والحسين وأولادهما وذريتهما، وجعفر الطيار وولده وذريته، وحمزة وولده، والعباس وولده وذريته رضي الله عنهم: هؤلاء

أهل بيت رسول الله ﷺ، واجب على المسلمين محبتهم، وإكرامهم، واحتمالهم، وحسن مداراتهم، والصبر عليهم، والدعاء لهم).

وقال الإمام عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني رحمه الله تعالى في (النونية)[1]:

واحفظ أهل البيت واجب حقهم ... واعــــرف عليًّا أيما عرفــان
لا تنتقصـــه ولا تـزد في قــدره ... فعليه تصلى النــار طائفتــان
إحداهمـا لا ترتضيـه خليفـــة ... وتنصه الأخــرى إلها ثانـــي

وقال الموفق ابن قدامة المقدسي (لمعة الاعتقاد): (ومن السنة الترضِّي عن أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين المطهرات المبرءات من كل سوء، أفضلهم خديجة بنت خويلد وعائشة الصديقة بنت الصديق التي برأها الله في كتابه، زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، فمن قذفها بما برأها الله منه فهو كافر بالله العظيم).

ومن أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ): في كتابه «العقيدة الواسطية»: (ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي». وقال للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي». (رواه أحمد في المسند).

وقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». (رواه مسلم في صحيحه).

وقال - رحمه الله تعالى- في بيان عقيدة السلف في أزواج النبي ﷺ:

«ويتولون أزواجَ النبي ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصًا السيدة خديجة رضي الله عنها أم أولاده وأول من آمن به وعاضده في أمره، وكان لها منه المنزلة العالية. والسيدة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها

1- قصيدته النونية الذي حرف الروى (نون) عرفان - طائفتان إلخ.

وعن أبيها، التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما).

وأهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل).

وقال -رحمه الله-: (ولا ريب أن لآل رسول الله ﷺ حقًّا على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر بطون قريش، كما أن قريشًا يستحقون من المحبة والموالاة ما لا يستحقه غير قريش من القبائل، كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر أجناس بني آدم.

وهذا على مذهب الجمهور الذين يرون فضل العرب على غيرهم، وفضل قريش على سائر العرب، وفضل بني هاشم على سائر قريش، وهذا هو المنصوص عن الأئمة كأحمد وغيره).

وقال أيضًا: (والحب لعلي وترك قتاله خير بإجماع أهل السنة من بغضه وقتاله. وهم متفقون على وجوب موالاته ومحبته، وهم أشد الناس ذبا عنه، وردا على من يطعن عليه من الخوارج وغيرهم).

قول الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: (ولا ننكر الوصاية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم؛ فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل ذريته رضي الله عنهم أجمعين).

وقال محمد بن إبراهيم الوزير اليماني -رحمه الله تعالى- في كتابه إيثار الحق على الحق: (وقد دلت النصوص الجمة المتواترة على وجوب محبتهم وموالاتهم (يعني أهل البيت)، وأن يكون معهم، ففي (الصحيح): «المرء مع من أحب» . (متفق عليه).

ومما يخص أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: 33].

فيجب لذلك حبهم وتعظيمهم وتوقيرهم واحترامهم والاعتراف بمناقبهم فإنهم أهل آيات المباهلة والمودة والتطهير، وأهل المناقب الجمة والفضل الشهير).

ومن أقوال العلامة صديق حسن خان (ت 1307 هـ) في (الدين الخالص): «... وأما أهل السنة فهم مقرون بفضائلهم (يعني أهل البيت) (كلهم أجمعين أكتعين أبصعين)،[1] لا ينكرون على أهل البيت من الأزواج والأولاد، ولا يقصرون في معرفة حق الصحابة الأمجاد. قائمون بالعدل والإنصاف، حائدون عن الجور والاعتساف، فهم الأمة الوسط بين هذه الفرق الباطلة الكاذبة الخاطئة».

وقال في موضوع يبين عقيدة أهل السنة في الأزواج والعترة:

«... وأهل السنة يحترمون الكل، ويعظمونهم حق العظمة، وهو الحق البحت، وكذلك يعترفون بعظمة أولاده ﷺ من فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ويذكرونهم جميعًا بالخير والدعاء والثناء، فمن لم يراعِ هذه الحرمة لأزواجه المطهرات، وعترته الطاهرات فقد خالف ظاهر الكتاب وصريح النص منه».

وقال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376 هـ) في (التنبيهات اللطيفة): «... فمحبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة من وجوه، منها:

أولًا: لإسلامهم وفضلهم وسوابقهم.

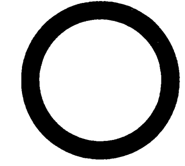
ومنها: لما يتميزوا به من قرب النبي ﷺ واتصالهم بنسبه.

ومنها: لما حث عليه ورغب فيه».

وقال العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين (ت 1421 هـ) في (شرح العقيدة الواسطية): «ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول الله ﷺ؛ يحبونهم للإيمان، وللقرابة من رسول الله ﷺ ولا يكرهونهم أبدًا».[2]

1- ألفاظ: تدل على التوكيد.

2-انظر: دراسات في أهل البيت النبوي - خالد بن أحمد الصمي .



الخاتمة

هذا البحث يبين مكانة الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه، الخليفة الراشد الرابع، وتاريخه المجيد منذ فترة فتوته وحتى وفاته، لقد قام بأعمال جليلة لخدمة الإسلام والمسلمين، كيف لا وقد عرّض حياته مرارًا للمخاطر، بإقدامه وشجاعته لمبارزة الأبطال غير وجل ولا خائف، تشهد له معارك الإسلام الشهيرة في بدر وأحد والخندق، وحتى في صفين عندما انقلب عليه معاوية، برز مقاتلًا شجاعًا يحمل راية الحق، وطلب معاوية مبارزًا وقال له: علام يقتل الناس بسببنا، أبرز إلي، فقال معاوية لعمرو بن العاص: أبرز أنت له، فقال عمرو: طمعت بها لنفسك -أراد الخلافة- فأردت التخلص مني وقد علمت أنه ما بارز أحدًا إلا غلبه.

لقد رفع عليٌّ كرم الله وجهه راية الإسلام خفاقة في سبيل الله لم يطلب من أجل ذلك الدنيا، وإنما إرضاء لله ورسوله، فكان ضد البدع والأفكار المنحرفة التي فيها مخالفة لمنهج الله، وقد تشرب صفاء العقيدة من ملازمته رسول الله ﷺ، وقد روي أن أبا طالب لما كثر عياله، طلب منه النبي ﷺ أن يعطيه بعض عياله لكي يعيشوا بكنفه، فأعطاه عليًّا، وهذا ما جعل عليًّا يحب رسول الله حبًّا لا يوصف إخلاصًا وفداء، ألم يطلب من النبي ﷺ يوم هاجر المبيت في فراشه ليوهم قريشًا أن النبي ﷺ لم يغادر داره، ولقد أحبه النبي ﷺ حبًّا كثيرًا، ولما طلب عمرو بن ود المبارزة يوم الخندق برز له عليٌّ، فقال له النبي: اجلس مكانك، خوفًا عليه من ابن ود، لكن لما لم يجرؤ أحد على منازلته، أذن بعد ذلك لعلي، ولكن قبل المبارزة عممه النبي ﷺ بعمامته ودعا له بالنصر على عدوه، كل ذلك كان خوفًا عليه من ابن ود لأنه كان مبارزًا لا يُغلَب، ثم تقدم للمبارزة فكان الغلبة لعلي رضي الله عنه، وقد روى الخوارزمي عن عبدالله بن العباس قال: "سمعت عمر بن الخطاب وعنده جماعة فتذاكروا السابقين إلى الإسلام، فقال عمر: أمَّا علي فسمعت رسول الله ﷺ يقول فيه ثلاث خصال؛ لوددت

أن لي واحدة منهن فكان أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبوعبيدة وأبوبكر وجماعة من أصحابه، إذ ضرب النبي ﷺ بيده على منكب علي رضي الله عنه فقال: يا علي أنت أول المؤمنين إيمانًا وأول المسلمين إسلامًا، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى" وفي غزوة خيبر قال النبي ﷺ: "سأعطي الراية غدًا لرجل يحبُّ اللهَ ورسوله ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ" وبعد أن انقطع الوحي من السماء وأتمَّ الله دينه، انصهر المسلمون في بوتقة واحدة؛ لم يترك النبي ﷺ وصية أو ما يدل على أنه سمّى من يلي أمور المسلمين بعده، فترك الأمر للمسلمين ليختاروا خليفته، مع أن هناك إشارات فهمها العارفون من اختيار النبي ﷺ لأبي بكر ليخلفه في الصلاة، مُرُوا أبَا بكر فليصل بالناس. فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء فأْمُر عُمَرَ فليصل بالناس، قالت فقال مُرُوا أبَا بكر فليُصل بالناس، قالت عائشة: فقلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فأمُرْ عُمرَ فليصل بالناس ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مُرُوا أبَا بكر فليصل بالناس، فقالت حفصة لعائشة ما كُنتُ لأُصيب منكِ خيرًا" . هذا حديث حسن صحيح.

ولما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بايعوا أبا بكر على الخلافة، وقبل وفاة أبي بكر عهد بخلافة المسلمين إلى عمر، فحاز على بيعة أهل الحل والعقد، ثم إن عمر لما طعن أوصى لستة من الصحابة منهم عثمان وعلي، فاختار الستة من بينهم عثمان، وبايع علي لعثمان كما بايع من قبل لأبي بكر وعمر.

وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه انشق المسلمون إلى حزبين؛ حزب مع علي، وآخر مع معاوية بن أبي سفيان، وكان حزب معاوية يطالبون عليًّا بالثأر من قتلة عثمان كي يبايعوه، لكن عليًّا كان يتريث لكي يحافظ على وحدة الصف بين المسلمين مؤجلًا النظر في محاسبة قتلة عثمان، فكان لاختلاف الفريقين تصعيدٌ خطيرٌ فوقعت معركة صفين، ثم ازداد الانقسام، فخرج من صفوف جيش علي معترضون على التحكيم

سموا بالخوارج، فأصبحت الفرق المتناحرة ثلاثًا؛ من أخطرها فرقة الخوارج، التي عملت على اغتيال علي رضي الله عنه، وإصابة معاوية بجراح، وكانت مثل السرطان في جسم الأمة الإسلامية.

ويهمنا في هذا البحث كيفية انبعاث تشكل التيارات الفكرية والمذهبية، ثم تحولت إلى فرق قوية تحارب الدولة الإسلامية وتبث الفتن بين المسلمين؛ يحرك تلك التيارات المخربة بعض أبناء البلاد من العناصر التي وفدت مع اتساع الفتوحات الإسلامية؛ خاصة أولئك المستفيدون من أسر الحاكمة السابقة المنتفعين من علو طبقاتهم الاقتصادية والاجتماعية ووجاهتهم ونفوذهم أبطنوا الحقد على الإسلام وأهله وأخذوا ينتظرون الفرصة السانحة لتقع الفتن والعداوة والفرقة بين المسلمين، ومزيد من توسيع شقة الخلاف بينهم وإفساح المجال لتكوين الفرق المناهضة للإسلام ونشر الزندقة والإباحية والبدع التي منها ادعاء محبة آل البيت لجذب الجماهير والعوام من الناس لهم، وكان كثير من الصحابة أحبوا عليًّا رضي الله عنه وأخلصوا في طاعته كرم الله وجهه من المهاجرين والأنصار، وعرفوا حقه وفضله وأسبقيته في الإسلام، فأنزلوه منزلة تليق بقدره دون أن ينتقصوا أحدًا من إخوانه أصحاب رسول الله ﷺ، وكان معظم الصحابة من محبي علي وعرافي فضله، ولكنه كان لا يريد من أحد أن يغالي في محبته أو في تفضيله على الشيخين وكان ينهى عن ذلك حتى قال صراحة: "لئن سمعت أحدًا يفضلني على الشيخين رضي الله عنهما لأجلدنه حد الفرية" كما ذكر رضي الله عنه في إحدى خطبه فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنهما أخوا رسول الله ﷺ، وقال: "لا يحبهما إلا مؤمن ولا يبغضهما إل شقي مارق" وقال رضي الله عنه وهو على منبر الكوفة يخطب: "لا أوتي برجل يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري" وفي تاريخ الخلفاء الراشدين كثير من الوثائق التي تثبت محبة الصحابة لعلي وإجلالهم له رضي الله عنهم أجمعين.

لقد انتقلت العمامة الصفوية إلى من جددها وأدخل عليها أفكارًا جديدة وبدعًا

مبتكرة كولاية الفقيه، وتصدير الثورة، وزعزعة الأمن في بلدان الجوار، ليسهل الانقضاض الصفوي عليها بعد تصدعها الفكري وانهيار جبهتها الداخلية، ومن دلائل ذلك ظهور الفارسية ثقافيًّا وسياسيًّا ودينيًّا على المسرح في بعض البلدان العربية كظاهرة غريبة، وهي مختزنة تحت عمامة آل البيت والحسين، وليس عمامة الحسن، أو علي رضي الله عنهم، وقد استطاعت العمائم أن تخفي بين طبقاتها أسرار الأهداف الفارسية باستخدام الشعارات الدينية.

لقد استخدم الصفويون التشيع وسيلة أخفوا وراءها طموحاتهم الكسروية مستثمرين الادعاء بمحبتهم لآل البيت للوصول إلى سياستهم القومية إعادة أمجادهم المجوسية على حساب الأمة العربية وثقافتها وأرضها ورسالة نبيها السماوية، وقد ورطوا التشيع بما ليس فيه من البدع والمنكرات والمستحدثات التي لا يقرها عقل ولا دين، حتى استنكرها علماء الشيعة المنصفون، فقد تنبه بعض أئمة آل البيت رضوان الله عليهم إلى تغلغل الروح الفارسية في دعواهم ومناداتهم باسم آل البيت، حتى قال الإمام زين العابدين: "فما زال بنا حبكم حتى صار عارًا علينا" وكذلك رفض الإمام جعفر الصادق طلب أبي سلمة الخلال منه بأن يكون خليفة للخراسانيين بعد أن أشرفت الدولة الأموية على السقوط.

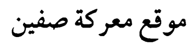
هذا قليل من كثير يخص هذا البحث بعد أن ضل كثيرون طريقهم الصحيح في محبة آل البيت على الوجه الصحيح رضوان الله عليهم، وأرجو أن ينير الله به قلبَ مَنْ رام الهدى وابتغى الصواب، وقد قدمت قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: 23]

والله الهادي إلى سواء السبيل.

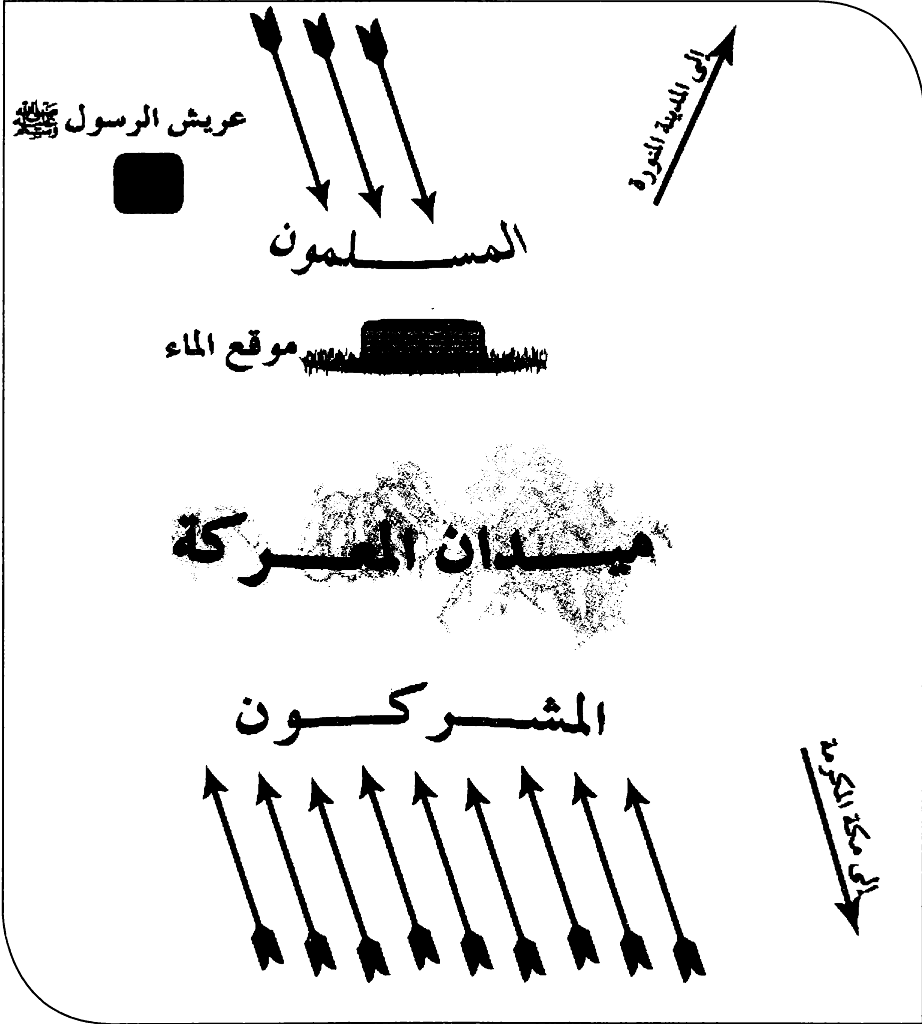
د. عبدالمعين الشواف



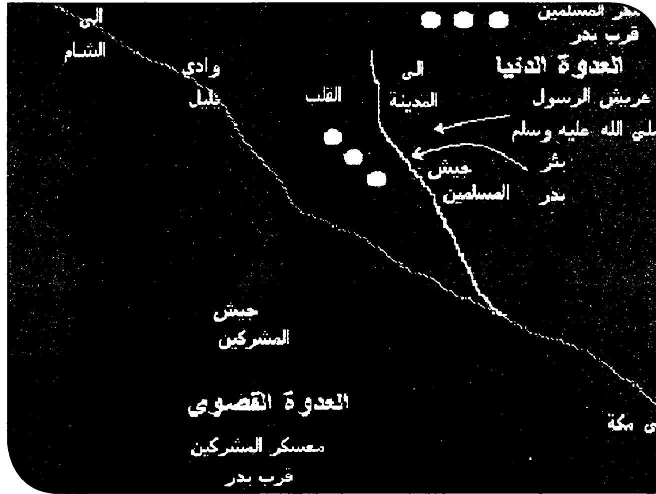
ملحق الصور


موقع معركة صفين


غزوات الرسول ﷺ



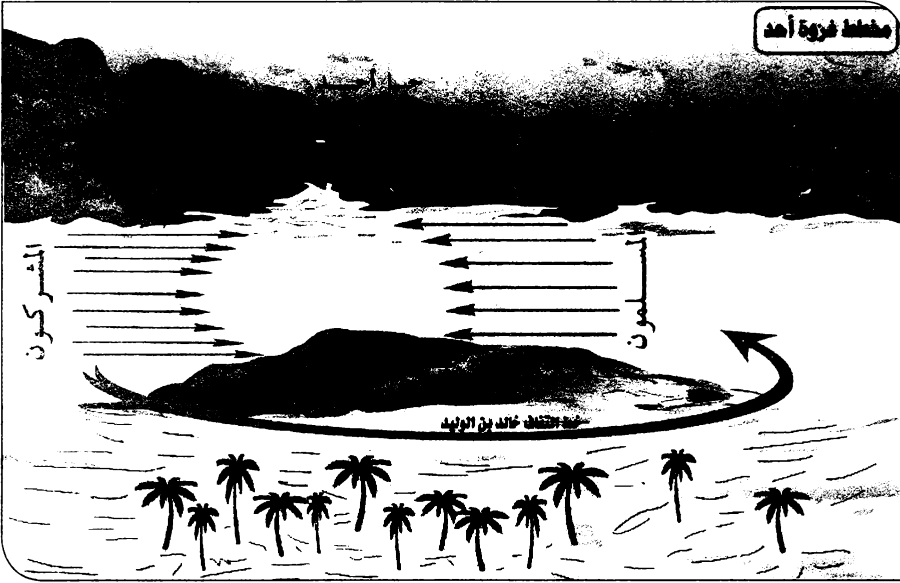
مخطط معركة بدر



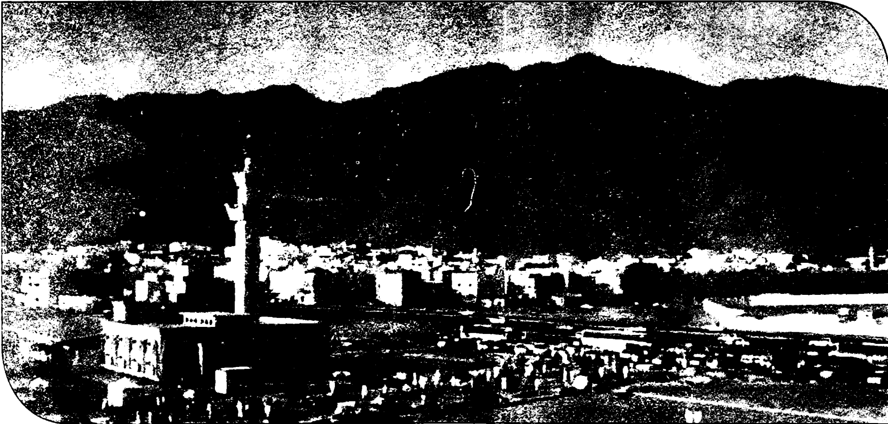
مخطط لغزوة بدر الكبرى عام ٢ هجرية



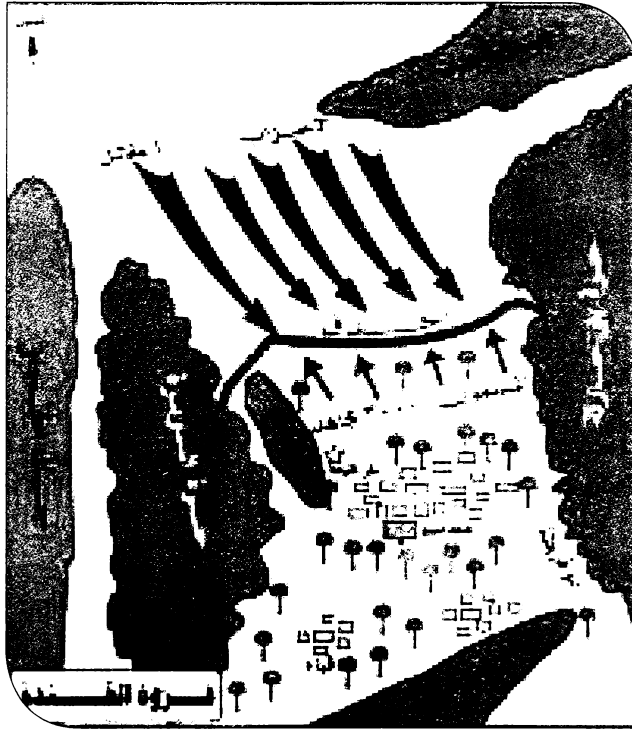
موقعة بدر الكبرى



مخطط توضيحي لموقعة أحد



جبل أحد وأرض المعركة الآن



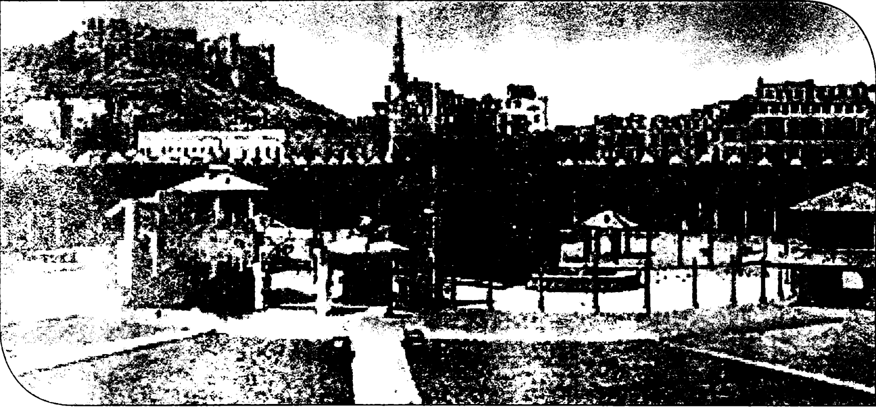
غزوة الخندق



عبادة الأصنام في مكة في عصر الجاهلية



• عبادة الأصنام في الجاهلية



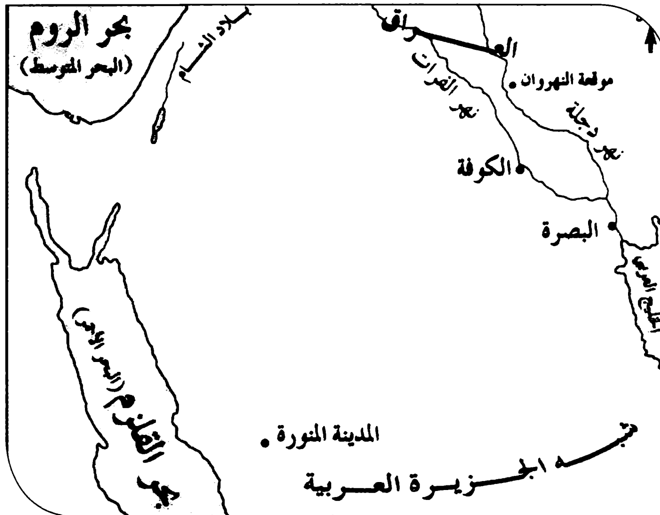
الكعبة المشرفة قبل مائة عام

ت	إسم الغزوة	تاريخها	مكان حدوثها	ت	إسم الغزوة	تاريخها	مكان حدوثها
١	ودان(الابواء)	صفر ٢ هـ	ودان	١٥	بدر الآخرة	شعبان ٤هـ	بدر
٢	بواط	ربيع أول ٢هـ	بواط	١٦	دومة الجندل	ربيع أول ٥هـ	دومة الجندل
٣	العشيرة	جماد أول ٢هـ	العشيرة	١٧	بني المصطلق	شعبان ٥هـ	المريسيع
٤	بدر الأولى	جماد آخر ٢هـ	وادي سفوان	١٨	الخندق	شوال ٥هـ	المدينة
٥	بدر الكبرى	رمضان ٢هـ	بدر	١٩	بني قريظة	ذو القعدة ٥هـ	ضواحي المدينة
٦	بني سليم	شوال ٢هـ	قرقرة الكدر	٢٠	بني لحيان	جماد أول ٦هـ	غران
٧	بني قينقاع	شوال ٢هـ	المدينة	٢١	ذي قرد	جماد أول ٦هـ	ذو قرد
٨	سويق	ذو الحجة ٢هـ	قرقرة الكدر	٢٢	الحديبية	ذو القعدة ٦هـ	الحديبية
٩	ذي أمر	محرم ٣هـ	ذو أمر	٢٣	خيبر	محرم ٧هـ	خيبر
١٠	بحران	ربيع أول ٣هـ	بحران	٢٤	عمرة القضاء	ذو الحجة ٧هـ	مكة المكرمة
١١	أحد	شوال ٣هـ	جبل أحد	٢٥	فتح مكة	رمضان ٨هـ	مكة المكرمة
١٢	حمراء الأسد	شوال ٣هـ	حمراء الأسد	٢٦	حنين	شوال ٨هـ	وادي حنين
١٣	بني النضير	ربيع أول ٤هـ	ضواحي المدينة	٢٧	الطائف	شوال ٨هـ	الطائف
١٤	ذات الرقاع	شعبان ٤هـ	ذات الرقاع	٢٨	تبوك	رجب ٩هـ	تبوك

ملخص غزوات الرسول ﷺ



غزوة ذات الرقاع



موقع موقعة النهروان على الخريطة



موقع موقعة الجمل



أماكن ثلاث معارك خاضها الإمام علي رضي الله عنه (الجمل والنهروان وصفين)

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- سنن أبي داود.
- صحيح ابن حبان.
- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لأبي عمر بن يوسف بن محمد بن عبدالبر.
- الإصابة في تميز الصحابة - لابن حجر العسقلاني.
- أصول مذهب الشيعة الإمامية - د. ناصر بن عبدالله بن علي الغفاري.
- الاعتقاد في مذهب السلف أهل السنة والجماعة - البيهقي.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين - لابن قيم الجوزية.
- الإمام علي بن أبي طالب - محمد رشيد رضا.
- أسمى المطالب في سيرة علي بن أبي طالب - د. علي الصلابي.
- البداية والنهاية - لابن كثير.
- تفسير القرطبي.
- تفسير ابن كثير.
- الإمامة والسياسة - لابن قتيبة.
- أنساب الأشراف - البلاذري.
- تاريخ الطبري.
- تاريخ الخلفاء - للسيوطي.

- البداية فتن والنهاية ملاحم - منصور عبدالحكيم.
- خلفاء الرسول - خالد محمد خالد.
- عبقرية علي - للعقاد.
- الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين - د. حمدي شاهين.
- زواج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهم حقيقة وليس افتراء - أبو معاذ الإسماعيلي.
- السلسلة الصحيحة - للألباني.
- سنن الترمذي.
- سنن النسائي.
- سير السلف - لأبي القاسم الأصفهاني.
- السيرة النبوية لابن هشام.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - محمد أبو شهبة.
- الشيعة والسنة - لإحسان إلهي ظهير.
- صحيح مسلم بشرح النووي.
- الصفوة - لابن الجوزي.
- الطبقات لابن سعد.
- ابن سبأ مؤسس الماسونية في الإسلام - منصور عبدالحكيم.
- علي بن أبي طالب - خالد البيطار.
- علي بن أبي طالب - د. علي شرف.
- فتنة قتل عثمان بن عفان - محمد عبدالله الغبان.
- الفَرْق بين الفِرَق - البغدادي.

- الكامل في التاريخ - ابن الأثير.
- كنز العمال - للهندي.
- مدارج السالكين - لابن القيم الجوزية.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- معجم الطبراني الكبير والأوسط.
- مفتاح دار السعادة - لابن القيم.
- المنتظم في تاريخ الملوك - لابن الجوزي.
- مراجع أخرى ذكرت في الهوامش.

الفهرس

المقدمة 7

1 - علي رضي الله عنه بين الميلاد والنشأة في مكة والهجرة للمدينة المنورة 15

- الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين الميلاد والنشأة........ 17
- الجد والأب والأعمام والعمات والإخوة 19
- علي رضي الله عنه في بيت النبي ﷺ........ 27
- قصة دخوله في الإسلام........ 28
- هجرة علي رضي الله عنه للمدينة المنورة 29
- الإمام علي رضي الله عنه في المدينة المنورة........ 34

2 - جهاد الإمام علي في عصر النبوة الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ 37

- الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ 43
- غزوة بدر الكبرى 39
- غزوة أحد........ 46
- غزوة دومة الجندل........ 51
- غزوة بني قريظة 53
- غزوة الخندق 56
- قتل عليٍّ رضي الله عنه عمرَو بن عبد ود رأس الكفار........ 57
- غزوة حمراء الأسد........ 60
- غزوة ذات الرقاع في السنة الرابعة للهجرة 64
- غزوة بدر الآخرة 66
- غزوة بني المصطلق 68
- غزوة بني لحيان........ 69
- غزوة ذي قرد........ 70

• صلح الحديبية والإمام علي رضي الله عنه.. 72
الرسول ﷺ يعطي الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في غزوة خيبر 77
وادي القرى تيماء بعد غزوة خيبر 84
عمرة القضاء ثم فتح مكة 87
فتح مكة المكرمة.. 89
غزوة حنين 103
غزوة الطائف.. 110
غزوة تبوك التي لم يشهدها علي رضي الله عنه 115
استخلاف علي رضي الله عنه على المدينة في غزوة تبوك 118
هدم الإمام علي رضي الله عنه صنم الفلس.. 120
3 - الإمام علي رضي الله عنه داعيًا وقاضيًا ومفسِّرًا للقرآن الكريم وفقيهًا 123
بعثة الإمام علي رضي الله عنه إلى اليمن في عهد رسول الله ﷺ..................... 125
زواج سيدنا علي بن أبي طالب 128
الإمام علي رضي الله عنه مع القرآن الكريم والسنة النبوية 132
الإمام علي رضي الله عنه مفسِّرًا للقرآن الكريم 135
الإمام علي رضي الله عنه والسنة النبوية متبعًا وراويًا.............................. 143
من فقه الإمام علي رضي الله عنه 151
4 - الإمام علي رضي الله عنه والخلفاء الراشدون أبوبكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم .. 155
بيعة علي رضي الله عنه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة 157
الإمام علي رضي اله عنه إبان خلافة أبي بكر رضي الله عنه 164
علاقة أبي بكر رضي الله عنه والسيدة فاطمة رضي الله عنها (ميراث النبي ﷺ) ... 168
بين الصديق وأهل البيت النبوي 178
علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه.................. 181

الإمام علي رضي الله عنه والخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه 197
علي رضي الله عنه ومقتل عثمان رضي الله عنه.............................. 199
رد فعل الصحابة رضوان الله عليهم تجاه مقتل عثمان رضي الله عنه 202
5 - علي رضي الله عنه خليفة للمسلمين 205
دفن عثمان ومبايعة علي رضي الله عنهما بالخلافة.......................... 207
مقدمات معركة الجمل 220
نشوب معركة الجمل 228
خلاصة القول فيما سبق 251
واقعة صفين بين أهل العراق وبين أهل الشام 253
لجوء الطرفين إلى التحكيم 266
ظهور أمر الخوارج عند اعتراضهم على التحكيم 270
اجتماع الحكمين بدومة الجندل 277
الخوارج وخروجهم على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه 281
أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقتال الخوارج في النهروان 287
6 - اغتيال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على أيدي الخوارج 291
مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في رمضان.................. 293
الحسن بن علي رضي الله عنهما وعام الجماعة................................. 301
مدة خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وموضع قبره 306
زوجاته رضي الله عنه 310
7 - أهل السنة هم أنصار وشيعة الإمام علي رضي الله عنه 313
الخاتمة 327
ملحق الصور... 333
أهم المصادر والمراجع 345
الفهرس.. 349